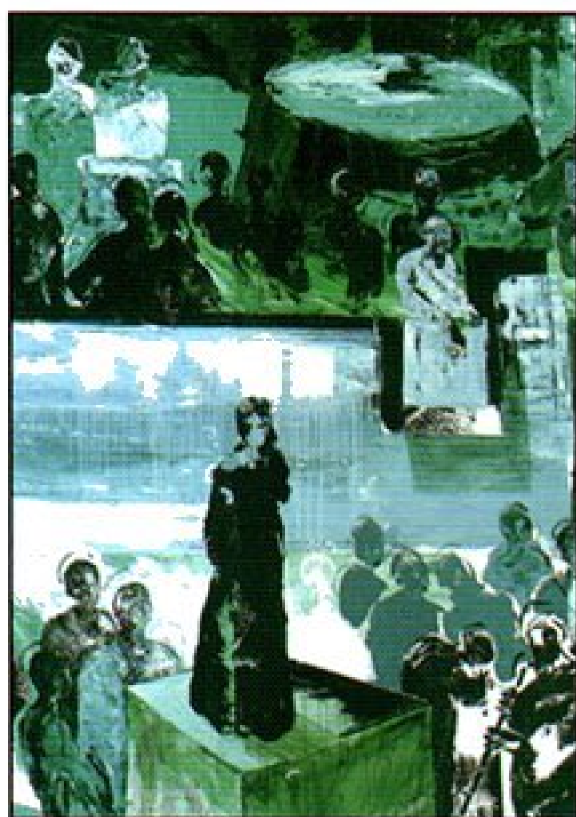
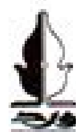
جورج أمادو

عودة البحار

رواية





ترجمة: ممدوح عدوان

جورج أمادو

عودة البحار

رواية

ترجمة: ممدوح عدوان

«عودة البحار»
والحاجة لتجميل الحياة بالكذب

البداية:

«قرأت ذات يوم، ولم أعد أذكر ما إذا كان ذلك في كتاب، أم في صحيفة، «أن الحقيقة مرمية في قرارة بئر».

.... ليس فقط أن الحقيقة موجودة في قرارة بئر بل وهناك يمكن العثور عليها عارية، دون ستار ليغطيها أو حتى ليغطي عورتها.

.... في قرارة بئر وعارية.

.... البئر ليست بئراً. والقرارة ليست قرارة. وكما يقول المثل فإن هذا يعني أن الحقيقة يصعب نيلها وأنها لاتعرض نفسها عارية في الأسواق بمتناول كل إنسان. ولكن من واجبنا، واجبنا جميعاً، البحث عن حقيقة كل واقعة. وأن نغرق أنفسنا في ظلمة البئر لنصل إلى نورها القدسي.

.... صدقوني إن رغبتي، ورغبتي الوحيدة، هي أن أكون موضوعياً وبعيداً عن العواطف. رغبتي هي البحث عن الحقيقة وسط المجادلات، ونبشها من الماضي دون انحياز، وتعريتها من الصيغ المتناقضة لكشف الأستار كافة التي نسجها الخيال من أجل خفاء الحقيقة العارية، ولو جزئياً».

النهاية:

«كما ترون: مرة أخرى يصبح من الصعب التوصل إلى الحقيقة وتجريدها من أستار الخيال.

هل يستطيع قرائي الآن، بثقافتهم وخبرتهم أن يقولوا لي: ماهي الحقيقة، الحقيقة الكاملة؟

هل تكمن الحقيقة في الحوادث اليومية والأحداث المتكررة، في التفاهة أو السوقية التي ترتبط بها حيوات معظم الناس؟ أم أن للحقيقة مأواها في الحلم الذي أعطيناه للهرب من شرطنا الإنساني؟ كيف يسمو الإنسان على رحلته في الحياة، بالكيد والغش يوماً بيوم؟ أم بالحلم المحلق الذي لايعرف قيداً ولاحدوداً؟

أين هي الحقيقة؟ قولوا لي، أرجوكم: في الواقع الصغير لكل منا؟ أم في الحلم الإنساني الكبير؟».

على الرغم من أن جورج أمادو يبدأ، وينهي، روايته «عودة البحار» بهذه العبارات إلا أنه يريد، منذ البداية، أن يسخر منا، أو أن يورطنا في هذه الجدية الموحى بها من خلال هذا الكلام الذي يريد أن يبدو فلسفياً.

فهو غير معني بالبحث عن الحقيقة. بل إن هذا الكلام، الذي يبدو، في مدخل الرواية، على أنه كلام المؤلف ـ أمادو ـ هو في حقيقته كلام الراوي الذي يسرد الأحداث، والذي تدلنا الأحداث ذاتها على أنه لايقيم للأخلاق المعروفة وزناً. فهو الذي يحاول «أن يسمو على رحلته في الحياة بالكيد والغش يوماً بيوم». وهو يتقن استخدام أساليب المنطق، والجدل، التي يتقنها المثقفون، من أجل تبرير سلوكياته غير المشروعة. هذا هو رأيه بأنصاف المثقفين الذين يسيطرون على أعلام عصره.

يلجأ إلى واسطة لكي ينال ما يشبه التفرغ ـ من خلال التمارض ـ من أجل القيام بالبحث عن حقيقة القبطان فاسكو موسكوسو دو

أداغان (البطل الفعلي للرواية). وهو يغير آراءه في الناس حسب تغير آرائهم به أو تغير مصالحه معهم. من يعجب بشعره «وكتابته» هو المثقف الواعي الموضوعي. ومن لايعطيه الجائزة هو المتحير، الدجال المزور. وحين يقدم لنا القاضي المتقاعد إنما يقدمه على أنه نبراس العدل والحكمة والثقافة. ثم يقدم القاضي وهو يستغل وضعه لكي يتخذ من دوندوكا الفتاة المغرر بها عشيقة بعد أن تدخّل في البداية لإنصافها ومواساتها. وبما أنه عجوز فإن الراوي الشاب يستغل الفرصة ويتخذ منها عشيقة في الليل. وتصبح دوندوكا «حبيبتنا: حبيبتي وحبيبة فضيلة القاضي». وحتى حين يضبطه القاضي معها في الفراش عاريين ينزل من السرير ويلبس الخف الجميل - الذي كان القاضي قد أهداه لدوندوكا - فيصرخ به القاضي: «اخلع خفي أيها الوغد» ويقول الراوي: «خلعتهما ووقفت حافياً على الأرض الباردة. لقد كانت حقارة هذا الرجل الهام هي المسؤولة عن الرشح الذي أصابني ولم أشفَ منه بعد».

وهو في هذا الموقف ليس مخزياً أمام القاضي، بل إنه مستعد للنقاش. يعني أن القاضي يراه بعينيه ويصرخ: «صحيح إذاً، صحيح!»:

«هكذا يبدو على أية حال. لأنني كنت مستعداً، لو أنه أعطاني الوقت، لمناقشته في الموضوع، فأنا بارع جداً حين يتعلق الأمر بالحقيقة. ولقد تعلمت وأنا أجمع ذكريات القبطان، هذه، أنه من المجازفة بالنسبة لأي إنسان أن يدعي أن لديه الحقيقة لمجرد أنه يرى نفسه مالكاً أدلة وثائقية محددة، أو أنه شاهد بعينيه، مما يعطى عادة قيمة أكبر من حجمه. ولماذا نذهب بعيداً؟» ثم يروي قصة امرأتين رأتا بأم عينيهما صحناً طائراً... ثم يتبين الأمر أنه طائرة ورقية أفلتت من يد طفل. ماذا يعني، إذاً، أن القاضي رآه بعينيه مع المرأة في الفراش؟ الأمر قابل للنقاش.

السؤال المطروح في نهاية الرواية: «كيف يسمو الإنسان على رحلته في الحياة؟ بالكيد والغش يوماً بيوم؟ أم بالحلم المحلق الذي

لايعرف قيداً ولاحدوداً؟» وهو السؤال الذي يبدو أن الرواية قد كتبت كمحاولة للرد عليه.

وإذا أبقينا في أذهاننا الطاقة، التي لاحدود لها، للسخرية في أسلوب أمادو، وفي هذه الرواية بالذات، فإننا نجد في القصتين المتشابكتين اللتين تحتوي عليهما الرواية، المحاولتين «للسمو على الحياة»: «الكيد والغش يوماً بيوم» وهو ما نراه في الرحلة في القصة الأولى، قصة الراوي الذي يبحث عن حقيقة القبطان. و«الحلم المحلق الذي لايعرف قيداً ولاحدوداً» الذي هو محور حياة القبطان.

قرية على البحر يأتيها المصطافون فتدب فيها الحياة. أهلها، هم عجائز متقاعدون، ينتعشون وهم يراقبون الشباب والصبايا وقصص الحب والعلاقات الغرامية العابرة في إجازات الصيف التي يقضونها هنا، ثم ينتهي الصيف وتعود القرية إلى رتابتها... حياة بطيئة تتغذى على الحكايات التي شوهدت في الصيف. الحدث الأساسي الذي يحرك هذا الركود حدث متعلق بموظف جمارك متقاعد يقيم دعوى ضد الحكومة بشأن تعويضاته. ذهابه إلى العاصمة والمماحكات حول قضيته، والصدامات مع الموظفين والمحامين والقضاة، والتبهيرات التي يرشها الموظف المتقاعد على الأحداث ليزيدها إثارة وتشويقاً هي زاد القرية المهم. وهي أيضاً مستند الموظف لكي يبقى مركز الاهتمام في القرية.

ثم يأتي ليسكن في هذه القرية قبطان متقاعد هو القبطان فاسكو.

القبطان شيء آخر، عاصفة من الإثارة والتشويق. قصص عن البحر ومغامرات البحر ومغامرات العشق في المرافئ وأدوات ملاحة. عواصف وسفن غارقة واصطدامات بجبال جليدية. حب على السفينة وتجوال في أرجاء الأرض كافة.

ما الذي يفعله رجل كهذا، بقصصه هذه، في القرية؟

حتى الموت الذي كان يأتي إلى القرية فيميت في كل واحد من

سكانها العجائز المتقاعدين من وظائفهم والمتقاعدين من الحياة نفسها، شيئاً، صار، بوجود القبطان، يمر مروراً عابراً.

صارت حكاياته زاداً يومياً للناس. وصاروا يرحلون مع حكاياته من قريتهم. ويرون عشيقاته ويأخذونهن معهم إلى بيوتهم بعد كل سهرة... وحتى البيت المليء بأدوات البحر صار سفينة... إلى درجة أن أحد المترددين على البيت صار يصاب بدوار البحر.

ولكن موظف الجمارك المتقاعد يريد أن يدافع عن مكانته السابقة: لم تعد قصصه عن المحاكم تثير أي اهتمام ولامجال له للصمود أمام عواصف القبطان البحرية إلا إذا أثبت أن القبطان كذاب.

الرواية من ثلاثة أجزاء.

الجزء الأول يحتوي على وصف القرية ومجيء القبطان وتصدي موظف الجمارك له وانقسام أهل القرية بينهما.

والجزء الثاني يحتوي على القصة التي يكتشفها موظف الجمارك عن حقيقة القبطان: هو ليس قبطاناً بحرياً. أخذ شهادته هذه بالواسطة والاحتيال. لم يركب في حياته سفينة. هو حفيد رجل أعمال ثري. عاش شبابه في الحانات والمواخير.

والجزء الثالث هو الامتحان. إذ تمر سفينة مات قبطانها ويستدعى القبطان لقيادتها - حسب قوانين البحر - كي تكمل رحلتها... وما يجري معه على متنها.

الرواية كلها ممتعة. وقصة القبطان ذاتها ممتعة. والحكايات التي يرويها ممتعة.

حتى أنك تسأل نفسك: ماذا يعني إذا كان الكاتب يكذب؟ ألم يجمّل حياة هؤلاء الناس؟ ما الذي نخسره مع كذبه؟ ما الذي يكسبه هو؟ لاشيء. فليكن كذاباً. وليجمّل هذه الحياة.

«لاشيء» ليست دقيقة تماماً. هو يكسب. إنه يعيش حلماً يحتاج

إليه أكثر مما يحتاج إليه القارئ وأكثر أيضاً مما يحتاج إليه أهل القرية.

ولأن المسألة على هذا النحو، فإنك وأنت تتقدم في قراءة الرواية تبدأ بالشك في أن القبطان يكذب. ولكنك تتعاطف معه، وتتمنى أن لاينكشف كذبه، أن يستمر هذا الحلم الجميل الذي يجمّل الحياة: حياتنا وحياة أهل القرية وحياة القبطان ذاته.

ويبلغ التعاطف حداً يجعلك تقف على حافة مأساة حقيقة حين يتهدد القبطان بالفضيحة. كيف ستكون النتيجة عليه هو وعلى أهل القرية الذين جمّل حياتهم؟

لقد برع أمادو في أن يجعلنا نتعاطف مع كذبه إلى درجة أنني بدأت أحس وأنا أترجم أحد الفصول الأخيرة المتوترة في الرواية، وكأنني أسلخ إنساناً حياً. غير معقول أن يجعلنا أمادو نحس بالحاجة إلى هذه الكذبة. كيف يجعلنا نحس أننا أمام فاجعة إذا ما انكشفت؟

لعل أمادو يريد أن يقول إن الحياة لاطعم لها بالواقع وحده. لابد من فسحة للحلم. الحقيقة العارية التي نسعى إليها هي حقيقة باردة ميتة. والحياة التي لها طعم هي تلك المطعمة بشيء من الخيال وشيء من حلم اليقظة، بشيء من الكذب الأبيض الذي لايؤذي.

وبراعة أمادو في هذا المجال هي التي تجعلك تشك وأنت تقرأ وتستمع: أين هي الحقيقة؟

لقد تعرف فاسكو بين المواخير على كلو. وحين يقود السفينة يلتقي بكلوتيلد، فيدلّلها بكلو. وحين يناديها بهذا الاسم يسرح القبطان مع تداعياته. أين عرف كلو الأخرى؟ في بنسيون مونت كارلو؟ أم في رحلاته وراء البحار؟ هل هي المومس التي كانت في الماخور؟ أم هي زوجة التاجر المسافر الذي أحبته على ظهر السفينة وهجرت زوجها لتموت معه مصابة بالحمى في أحد مرافئ الشرق الأقصى؟

إن حياتنا شبيهة بحياة سكان القرية: حياة عادية رتيبة ومملة. ونحن في حاجة إلى القبطان لكي ينقلنا بكذبه، أو مغامراته الحقيقية، إلى عالم أكثر إثارة وجمالاً. إننا في حاجة إلى الفنان المبدع الذي يفتح أبواب المخيلة، والذي يقودها إلى الحلم، بل إن من يحاول أن يبدد هذا الحلم يصبح في نظرنا كريهاً حتى لو كان يملك الحقيقة أو يقدمها لنا مثلما صار موظف الجمارك يبدو وهو يحاول فضح القبطان.

من قال إننا نحتاج إلى الحقيقة إلى هذا الحد؟ نحن نريد أن نستمتع بالحياة ولتبق الحقيقة في قرارة البئر المعتمة الرطبة. لأنها قد تكون باردة لانكهة لها لو عثرنا عليها.

وأنت تضحك من خارج الجو في الرواية تجد نفسك قد انسللت إلى داخلها. وأنت تضحك تصبح واحداً ممن يستمعون لقصص القبطان. وأنت تضحك يورطك أمادو ليجعلك تعترف أنك تقف إلى جانب الكذب وتدافع عنه. لكن هذا الكذب ليس خبيثاً ولا أسود... إنه ما نحتاج إليه لتجميل الحياة وإكسابها لوناً وطعماً.

لماذا ننحاز إلى القبطان؟ لماذا ينحاز أهل القرية إلى القبطان؟ يأتي الجوابان على السؤال:

القاضي يقول إنه لم يفاجأ بكون جمهور القبطان سذجاً سريعي التصديق، لأنهم قد ووجهوا بقرائن محددة على أقواله: الشهادة المبروزة ووسام المسيح والبوصلة والتلسكوب. كيف لهم أن يتشككوا أو أن يصدقوا افتراءات شيكو باشيكو ـ موظف الجمارك المتقاعد ـ الذي يقف في طليعة النمامين الذين مازالوا يجتاحون ضاحيتنا الهادئة وهم يثرثرون عن أبناء بلدهم، ويطعنون في شرف جيرانهم.

ولكن شخصية ثانوية تعلق على هذا الكلام: ما الذي يفهمه هذا الحيوان عن السلوك البشري؟

ثم يقدم تفسيره لانحياز الناس للقبطان.

«لم تكن القرائن المادية والمحددة - الشهادة والخرائط والكرونومتر - هي السبب الجوهري لتأييد القبطان. ليس الأمر بسيطاً وسهلاً. الناس لايقيمون اعتباراً للدلائل المادية. إن سبب انحيازهم للقبطان، وتصديهم لشيكو باشيكو ولسانه السليط، هو الحاجة التي يحسونها جميعهم، أولئك المتقاعدون المتواضعون الخانعون، إلى نصيبهم من المغامرة وإلى جرعتهم من البطولة، مهما كان الإنسان في الحضيض ومهما كانت حياته تافهة، ففي أعماقه ومضة، وأحياناً مجرد شرارة، ولكنها قابلة للتحول إلى لهيب إذا جاءت الفرصة المؤاتية. وهذا ما يجعل من الضروري الهرب من العادية، من رتابة الأيام الكئيبة التافهة والمتشابهة، ولو على كلمات حكاية مسموعة أو كتاب مقروء. في مغامرات القبطان وفي حياته الجسورة المليئة بالأخطار كانوا يواجهون الأخطار التي لم يعرفوها من قبل، والمشاجرات والمعارك التي لم يشاركوا فيها من قبل، وأحداث العشق البهية والفاسقة التي، وياللأسف، لم يستمتعوا بها من قبل.

ما الذي يستطيع شيكو باشيكو أن يقدمه لهم؟ تفاهات قضية ضد الدولة؟ هذه قضية قليلة الشأن... هذه الدعوى حول التعويض لاشيء إذا ما قورنت بما يحتاجون إليه، وبافتقادهم لحياة أعمق وذات معنى أكبر. القبطان هو المانح السخي للعظمة الإنسانية، وهذا هو سر نجاحه».

ممدوح عدوان

مقدمة المؤلف

أما عنه، هو، فلم يكونوا يعرفون شيئاً،
ولن يعرفوا أبداً،
فهو لم يعش أبداً.
لم يكن موجوداً، ولم يكن غير موجود
مثل الأشياء التي توجد في المخيلة وحدها.
ومن يستطيع أن يخترع شبيهاً لها!

كارلوس بينا فيلهو

«حادث مشؤوم»

رياح العالم كلها ستجتمع في مؤتمر

جاكيم كاردوزو

«مؤتمر الرياح»

الحدث الأول

حول وصول القبطان إلى ضواحي بريبري، في باهيا؛ ووصف مغامراته المثيرة في المحيطات الخمسة، والبحار والمرافئ البعيدة، مع البحارة الأجلاف والنساء الشهوانيات؛ وحول تأثير الكرونومتر[*] والتلسكوب على الأرياف الهادئة.

(*) أداة لحساب الزمن بدقة ـ كرونومتر.

كيف يتهيأ الراوية، وبناء على تجربة سابقة محددة ولطيفة، لنبش الحقيقة من قرارة بئر

صدقوني إن هدفي، وهدفي الوحيد، ليس أكثر من جلاء الحقيقة: الحقيقة الكاملة؛ وبحيث يتبدد أي شك يحيط بالقبطان (فاسكو موسكوسو دو أراغان) وبمغامراته الغريبة.

قرأت ذات يوم، ولم أعد أذكر ما إذا كان ذلك في كتاب أم في صحيفة، أن «الحقيقة مرمية في قرارة بئر». ما يهم هو أنها كانت مطبوعة. ومن يستطيع أن يشك في الكلمة المطبوعة؟ وأنا لست ميالاً إلى التشكيك في الأدب أو الصحافة ولا إنكارهما. وإن لم يكن هذا كافياً أقول إنني قد سمعت تعابير مشابهة من شفاه أشخاص ذوي أهمية. وبالتالي فلم يعد هناك أي مجال، في مسألة استخراج الحقيقة من بئر وحفظها في مكان أسلم، للوقوع في أخطاء طباعية كأن نقول: «قصر»، مثلاً، (الحقيقة في القصر الملكي) أو «صدر» (الحقيقة كامنة في صدور النساء الجميلات) أو «قطب» (هربت الحقيقة إلى القطب الشمالي) أو «شعب» (الشعب مستودع الحقيقة). فهذه التعابير، كلها، والتي تبدو لي أكثر فصاحة وأقل فظاظة، هي خالية من ذلك الشعور الغامض بالإهمال والبرودة المتوافر في كلمة «بئر».

ولقد تفضل فضيلة الدكتور سكويرا، القاضي المتقاعد والمواطن المحترم والمستقيم، ذو الصلعة الكبيرة الناصعة، فأوضح لي أن التعبير شائع، بمعنى أنه يحمل وضوحه فيه، وأنه

معروف إلى حد كونه متداولاً ومتعارفاً عليه. وأشار، بصوته الوقور والحكيم، إلى تفصيل غريب: فليس فقط أن الحقيقة موجودة في قراءة بئر؛ بل وهناك يمكن العثور عليها عارية دون ستار ليغطيها أو حتى ليغطي عورتها.

في قرارة بئر... وعارية.

إن الدكتور ألبرتو سكويرا هو ذروة الثقافة وقمتها في ضاحية بريبري التي نعيش فيها. فهو الذي يلقي خطاب الثاني من تموز في الساحة العامة الصغيرة وخطاب السابع من أيلول في المدرسة الابتدائية، ناهيك عن المناسبات الأقل أهمية، وهو الذي يقترح الأنخاب في الأعياد السنوية وحفلات التعميد. وله أدين بالكثير مما أعرف، والذي حصلت عليه من محادثاتنا في تمشياتنا الليلية إلى بيته. إنني أدين له بالاحترام والعرفان. وحين يجلو لي، بصوته الوقور وبتلميحة محددة، شكاً من شكوكي؛ فإن كل شيء، عندها، يصبح واضحاً وبسيطاً بالنسبة لي؛ فلا يرفع أي اعتراض رأسه. ولكنني بعد أن أتركه وأقلّب الأمور في رأسي يتلاشى اليقين والبساطة، كما هو الحال في مسألة الحقيقة. يعود كل شيء إلى تشوشه وصعوبته. وأحاول تذكر توضيحات فضيلته لكنها تفلت مني. يصبح كل شيء هراء. ولكن كيف يمكن الشك في كلمة رجل متعلم كهذا وهو الذي لديه تلك الرفوف المزدحمة بالكتب وبالتشريعات المحلية والمعاهدات؟ وفي الوقت ذاته وعلى الرغم من كل ما يوضحه لي من أن التعبير شائع ومتداول؛ فإنني أجد نفسي أفكر في تلك البئر، التي لابد أنها عميقة ومعتمة، والتي انزوت فيها الحقيقة لتخفي عريها فتركتنا في تشوشنا ونحن نتجادل حول كل شيء أو حول لاشيء، جالبين على أنفسنا الخراب واليأس والحروب.

البئر ليست بئراً. والقرارة ليست قرارة. وكما يقول المثل، فإن هذا يعني أن الحقيقة يصعب نيلها، وأنها لاتعرض نفسها عارية في الأسواق بمتناول كل إنسان. ولكن من واجبنا، واجبنا جميعاً، البحث

عن حقيقة كل واقعة، وأن نغرق أنفسنا في ظلمة البئر لكي نصل إلى نورها القدسي.

«النور القدسي» تعبير للقاضي. وكذلك المقطع السابق كله. إنه مثقف إلى درجة أن كل ما يقوله يبدو كالخطاب، مليئاً بالكلمات البارعة، حتى وهو يتحدث إلى قرينته الموقرة دونا إرنستينا. «الحقيقة هي المنارة التي تنير حياتي». هذا ما اعتاد أن يقوله لي ونحن نناقش أخبار العالم وأخبار ضاحيتنا ليلاً تحت سماء مليئة بالنجوم وفوقنا ضوء كهربائي شحيح. ودونا إرنستينا، المفرطة في بدانتها، والمتلامعة بعرقها والمتخلفة، إلى حد ما، عقلياً تهز رأسها الفيليّ موافقة. منارة ساطعةٌ تلقي بأضوائها من بعيد، هذا هو ما تعنيه الحقيقة للقاضي النبيل المتقاعد.

وربما لهذا السبب بالذات فإن ضوءها لايجد طريقه إلى الزوايا القريبة، والشوارع الجانبية، وحارة (الفراشات الثلاث) المنزوية التي تؤوي، داخل عتمة بيت صغير فيها بين الأشجار، السمراء المشرقة الجميلة دوندوكا، والتي قصد والداها فضيلة القاضي عندما اختفى زي كانجيكوينها من الجوار، ورحل جنوباً.

لقد سلب دوندوكا أعز كنوزها، كما عبر عن الموضوع والدها التعيس، بدرو نورسمو، مستعيراً صورة تشبيهية، وترك الفتاة مجردة من شرفها ومن آخر بنس.

«معدم، يا صاحب الفضيلة، معدم...».

وأدلى القاضي بحديث أخلاقي مؤثر ثم وعد بأن يفعل ما يستطيعه. وحين طالعه المنظر المؤثر للضحية التي تبتسم من خلال دموعها توصل إلى تقديم تبرع مالي صغير؛ فَتَحْتَ الصدر القاسي لقميص القاضي المنشّى - وعلى الرغم من صعوبة تصديق ذلك - يخفق قلب حنون. ووعد بإصدار مذكرة بحث وأمر توقيف بحق «الدون جوان البخيل» ناسياً، في غمرة حماسه لقضية الفضيلة المغتصبة، أنه متقاعد وأنه ليس تحت إمرته محامون أو شرطة. كما

وعد بلفت أنظار أصدقائه في المدينة إلى الموضوع. سينال هذا «المغرِّر الخسيس» ما يستحقه.

وقد قام هو، بنفسه، ـ إلى هذه الدرجة يبلغ حماس القاضي لمسؤولياته حتى وهو متقاعد ـ بنقل الأنباء إلى العائلة الفقيرة المصابة في مسكنها البعيد. وكان بدرو تورسمو نائماً ليعوض سهر الليلة الفائتة، وفي الباحة الخلفية كانت يوفراسيا، الأم العجفاء للضحية، منهمكة في غسل الملابس بينما كانت دوندوكا تهيء المدفأة. تبرعمت ابتسامة على شفتيها المكتنزتين، وتطلع القاضي إليها بنظرة تحذير ثم أمسك بيدها:

ـ لقد جئت لتوبيخك.

وغمغمت الفتاة: لم أكن أريد ذلك. هو الذي...

فقال: «كان ذلك خطأ جسيماً» وهو يمسك بذراعها الفتية القوية.

وانفجرت دموع الندامة. فأجلسها القاضي، من أجل تهدئتها ومراضاتها، في حضنه. وربت على خدها وقرص ذراعها. لقد كان المنظر جميلاً: جفاء العناد لدى القاضي يروضه اللطف المتفهّم لدى الرجل. وخبأت دوندوكا وجهها المضرج على الكتف المريحة فدغدغت شفتاها الرقبة اللامعة.

لم يستطع القانون أن يمسك بزي كانجيكوينها؛ ولكن من قبيل التعويض، منذ تلك الزيارة اللبقة صارت دوندوكا تحت حماية جناحي العدالة (وصارت، مثل ملكة، تعيش من أجل أن تقتل) في ذلك البيت الصغير في حي الفراشات الثلاث. كما تخلى بدرو تورسمو عن العمل نهائياً. ها هي حقيقة لم تضئها منارة القاضي. وعلي أن أغوص في البئر بنفسي للوصول إليها ولابد من أن أضيف بأنه كان غوصاً لطيفاً ممتعاً. ففي قرارة تلك البئر كان هناك فراش دوندوكا الحريري الناعم حيث ـ وبعد أن أذهب قبيل العاشرة ليلاً تاركاً المحادثة الشاملة المفيدة مع فضيلته ومع زوجته الضخمة ـ كانت

تحكي لي تفاصيل حميمة عن القاضي الفاضل لاتليق بالطباعة لسوء الحظ.

وأنا، كما هو واضح لدي شيء من الخبرة في مثل هذه الأمور؛ فليست تلك هي المرة الأولى التي أتقصى فيها الحقيقة. ولهذا، وبفضل إلهام فضيلته - «إنه من واجبنا، جميعاً، البحث عن حقيقة كل أمر» - كنت مستعداً لحل عقدة مغامرات القبطان، موضحاً، وبشكل نهائي، هذه المسألة الشائكة التي تضاربت حولها الأقوال. وليست المسألة مجرد مسألة خيوط متشابكة بل هي أكثر صعوبة من ذلك بكثير. ففي مضمارها عقد، وعقد بحارة، وأطراف متدلية، وخيوط من كل لون وأمور حقيقية وأخرى متخيلة. أين الحقيقة وسط ذلك كله؟ في الوقت الذي حدث فيه ذلك كله، عام 1929 قبل ثلاثين عاماً، كانت مغامرات القبطان، والقبطان نفسه، محور وجود بريبري. أثارت جدلاً حامياً وتسببت في وقوع الانقسام بين السكان فولدت العداوات والأحقاد كما لو أنها حرب دينية. فمن جهة كان هناك مؤيدو القبطان، والمعجبون به بلا شروط ولاحدود. ومن جهة أخرى منتقدوه وعلى رأسهم العجوز شيكو باشيكو، مفتش الجمارك المتقاعد، والذي ماتزال ذكراه تستعاد حتى الآن مصحوبة بالابتسامات، فهو مُفترٍ قاس لايتمتع بالاحترام، ونموذج من توما المتشكك.

لكننا سنصل إلى هذا كله في الوقت المناسب. فالبحث عن الحقيقة لايتطلب التصميم والمثابرة وحدهما، بل يتطلب الأسلوب والود. حتى الآن ماأزال على حافة البئر أفكر في أفضل وسيلة للنزول إلى أعماقها الغامضة. وها قد قام شيكو باشيكو العجوز من قبره في المقبرة البعيدة ليشوش لي أفكاري ويراقبني ويثير فيَّ الاضطراب. يا له من إنسان مزعج فضولي استعراضي مهووس في ما يتعلق بالبرهان والدليل. ما كان يطمح إليه هو أن يكون المواطن الأول في هذه الضاحية المنتعشة التي كل ما فيها لطيف وظريف، حتى البحر حيث الخليج الذي لاتثور فيه الأمواج أبداً والشاطئ

الخالي من الأمواج المتكسرة والتيارات التحتية، وحيث الحياة هادئة وآمنة.

صدقوني إن رغبتي، ورغبتي الوحيدة، هي أن أكون موضوعياً وبعيداً عن العواطف. رغبتي هي البحث عن الحقيقة وسط المجادلات، ونبشها من الماضي دون انحياز، وتعريتها من الصيغ المتناقضة لكشف كافة الأستار التي نسجها الخيال من أجل إخفاء الحقيقة العارية ولو جزئياً. وعلى الرغم من أنني أحمل الشاهد في جسدي؛ أو لكي أكون أكثر دقة، في جسد دوندوكا الذهبي؛ فإن العري الكامل ليس دائماً أكثر إغواءً مما هو عند التلصص عليه من تحت لحاف أو أي غطاء يخفي نهداً أو فخذاً أو استدارة ردف. ولكن الحقيقة التي نبحث عنها بعناد وحمية في كافة أرجاء الدنيا ليست، في النهاية، ما يُضاجَع في السرير.

نزول البطل في بريبري ومعرفته بالبحر

«يبدو حياً يا صحاب».

كان صوتاً معتاداً على إصدار الأوامر. وبإشارة من يده حدد الاتجاه ونزل درجات المنصة الثلاث وتصدر العبور ويده الثابتة على الدفة وعيناه مثل البوصلة.

تشكل نوع من الموكب الصغير استلم الشارع. في المقدمة كان القبطان هادئاً ومشدود العزيمة. ووراءه على بعد خطوات الحمالان كاكوبودر وميزاييل ومعهما قسم من أمتعته. في تلك الساعة من النهار كان كاكوبودر قد احتسى الكمية المعتادة من الشراب وصارت مشيته أشبه بالدحرجة، بالتالي فإن كلمة «صاحب» التي ناداه بها القادم الجديد لم تكن خطأ في التسمية، بعدهم كانت تمشي الجماعة المتزايدة من الفضوليين، وكل منهم يهمس للآخر. فالدفة التي كان ميزاييل يحملها على رأسه كانت شبيهة بالمزمار الملون.

لم يدخل إلى البيت، بل دَلّ الحمالين عليه وتابع طريقه. توجه نحو الشاطئ ومشى حتى أسفل الجرف وتفحصه بعين خبيرة ثم بدأ يتسلقه. لم يكن عالياً أو شديد الانحدار؛ بل كان ميلاناً خفيفاً اعتاد الأولاد في الصيف أن يلعبوا عليه صاعدين ونازلين، وفيه كان العشاق يختفون عن الأنظار ليلاً. ولكن كان هناك نوع من الجلال في مظهر القبطان بحيث أن الجميع أدركوا الطبيعة المجهدة لما يجري وكأنما، بغتة، تحولت تلك الصخور المتواضعة إلى جدار حجري عاتٍ لم ترتَقِه قدم إنسان من قبل.

وحين وصل إلى القمة توقف وذراعاه حول صدره وهو يتطلع إلى المياه. وفي تلك الوقفة الصامتة التي كان فيها وجهه نحو الشمس وشعره يتطاير مع الريح (نسيم بريبري العليل المعهود) كان يشبه جندياً يقف وقفة الاستعداد أو، من خلال الانطباع الذي يعطيه، تمثالاً برونزياً لجنرال. كان يرتدي سترة غريبة، ليست بعيدة الشبه باللباس العسكري، من قماش أزرق غامق وبقبة عريضة. زكوينها كرفيلو، كان كلب بحر(*)، إنساناً مصنوعاً من السفن والعواصف. وهمس باكتشافه هذا للآخرين: على غلاف قصة عن البحر، وهي قصة سفينة بحرية صغيرة، وقعت نهب العواصف في بحر سارغاسو، هناك بحّار يرتدي سترة مثل هذه.

ولم تستغرق الوقفة الساكنة أكثر من دقيقة، ولكنها كانت طويلة، تشبه الأبد، كافية لانطباع الصورة في ذاكرة المشاهدين. ثم مد يده القصيرة على طولها ونطق بهذه الكلمات: «ها نحن معاً من جديد أيها البحر».

وعاد إلى عقد ذراعيه على صدره في حركة كانت تأكيداً للذات وتحدياً في الوقت ذاته. واستقرت نظرته على مياه الخليج الهادئة حيث كان يلتقي البحر والنهر. وفي البعيد كانت السفن الغامقة في المرسى وقوارب الصيد السريعة تمر؛ وأشرعتها البيضاء تنويع على زرقة المشهد البحري الهادئة. كشفت تلك النظرة وتلك الوقفة عن ألفة طويلة مع البحر، هي مزيج من الحب والغضب والتجارب المتنوعة التي لا تستطيع حتى القلوب الرتيبة، البعيدة عن المغامرة والبطولة، أن تحس بها. ولكن لابد من استثناء زكوينها كرفيلو لأنه كان يعيش في مناخ مختلف وهو يلتهم رواياته الرخيصة عن القراصنة والرواد. وكانت له تركيبة الأنبياء الأوائل، نوع من يوحنا المعمدان يتنبأ بالبطل الذي وصل لتوه.

ولذا عندما نزل القبطان عن الجرف ودخل في دائرة المراقبين،

(*) بحار عريق خبير.

وهو يتمتم كأنما يحدث نفسه: «لا أستطيع العيش بعيداً عن البحر»؛ فإنه دخل في الوقت ذاته في إطار إعجاب مواطنيه الجدد، إلا أنه بدا وكأنه لايراهم، وكأنه لايحس بوجودهم أو بفضولهم.

وكأنما كان يحسب بعناية كل حركة يقوم بها فإنه، أولاً، قاس بنظره المسافة بينه وبين البيت القريب المنعزل قرب الشاطئ بنوافذه المفتوحة على الماء، وتوجه نحو الباب ثم تهيأ لدخوله. وكان المتفرجون يتابعون كل حركة وهم يتطلعون باحترام: إلى الوجه المدوّر المورّد، والشعر الفضي الكثيف، وسترة البحار بأزرارها النحاسية اللامعة. ومع بدء المسيرة حشر زكوينها كرفيلو نفسه بين القبطان والآخرين؛ فقد وجد المكان الملائم له.

وصل الحمالون ببقية الأمتعة، وأصدر القبطان أوامره بدقة ووضوح. الحقائب والأسرّة والصناديق إلى غرف النوم؛ والأقفاص والعلب إلى الصالون.

وبعد أن نفذت هذه الطلبات بدا عليه أنه انتبه إلى الناس المحتشدين الذين كانوا يراقبونه من الطريق. ابتسم وانحنى ثم وضع يده على صدره بإيماءة كان فيها شيء شرقي وغريب وردّت جوقة من التحيات على تحيته، كما أن زكوينها كرفيلو بعد أن استجمع شجاعته تقدم خطوة نحو الباب.

وأخرج القبطان من أحد جيوب سترته الواسعة شيئاً فاجأهم، كان أشبه بالمسدس. وتراجع زكوينها، لكنه لم يكن مسدساً. ما هو بحق الشيطان؟ وضعه القبطان في فمه ـ غليون. لكنه ليس من أي نوع من أنواع الغلايين القديمة التي هي نفسها كانت ستبدو جديدة على هذا المجتمع الرصين. كان له مرشوم(*) معقوف وقصبته على هيئة ساقي امرأة وفخذيها، والتجويف على شكل صدر ورأس. وهمهم زكوينها «آه» وهو يقف مسمراً في مكانه.

(*) المرشوم: الرخفة: معدن قوامه سليكات المغنزيوم تصنع منه غلايين التدخين ـ المورد.

وحين استفاق من الصدمة كان القادم الجديد يبتعد عن الباب، فأسرع زكوينها، وقدم نفسه سائلاً عما إذا كان يستطيع تقديم أية مساعدة.

ـ شكراً جزيلاً. قال القبطان وهو يهز رأسه. وأخرج بطاقة من محفظة الجيب وقدمها إلى زكوينها وهو يضيف: «بحار قديم، تحت أمرك».

وراقبوه وهو في الصالون مع الحمالين يفتح العلب بمطرقة ومفك براغٍ، ومن تلك العلب خرجت أدوات غريبة مع تلسكوب ضخم وبوصلة بحرية. وتحلق المتفرجون فترة أخرى وهم يتفرجون ثم تفرقوا لينشروا الأخبار، وأخرج زكوينها البطاقة المزينة برسم مرساة وقد كتب عليها:

القبطان فاسكو موسكوسو دو أراغان

رئيس بحارة

وهكذا صارت عندك الآن قصة وصوله إلى بريبري قبيل ظهر ذلك اليوم وحيث بضربة واحدة أقام شهرته ورسخ سمعته.

ما يتعلق بموظفي الحكومة المتقاعدين وبرجال الأعمال، وبالنساء على الشاطئ وفي السرير، والصبايا الفارات، وبالخراب والانتحار، والغليون المرشوم

طقس مؤاتٍ، مزيج من المأساة واللغز، سبق اليوم المشهود لوصول القبطان وكأنما الأحداث اللاحقة كانت تلقي بظلالها مقدماً.

نادراً جداً ما يحدث شيء غير متوقع ليكسر رتابة الحياة الريفية في بريبري. وهذا يستمر من آذار إلى تشرين الثاني (نوفمبر). وخلال الأشهر الثلاثة في الصيف ـ كانون الأول وكانون الثاني وشباط ـ تمتلئ ضواحي ليست برازيليرا التي تعتبر بريبري أكبرها وأكثرها سكاناً وجمالاً، بالمتنزهين لقضاء العطلات. إن العديد من أفضل البيوت التي يملكها سكان المدن، تظل مغلقة معظم أيام السنة ولاتفتح إلا في الصيف. وفي هذا الوقت تدب الحياة في بريبري. بغتة يغزوها الشبان المرحون: الأولاد الذين يلعبون كرة القدم على الشاطئ أو الفتيات بالمايوهات يتشمّسن على الرمال، والقوارب تنطلق على المياه، والتمشايات والنزهات والحفلات والمغازلات والمضاجعات تحت أشجار الساحة أو في ظلال الجروف.

وعلى ذكريات هذه الأشهر الثلاثة والتعليقات على أحداث مختلفة أو حقيقية جرت خلال الصيف يعيش السكان الأشهر التسعة المتبقية على مدار العام. يستذكرون العلاقات الجنسية والحفلات

والمشاجرات بين الرياضيين الشبان الغيورين المتهورين، والطفل الذي أوشك على الغرق، واحتفالات أعياد الميلاد الشخصية، وشغب السكارى الذي يعكر صمت الليل.

السكان الدائمون على مدار العام (باستثناء الصيادين وبعض أصحاب الحوانيت - مالكي الفرن الوحيد والحانتين والبقالتين والصيدلية - وبعض موظفي لستي برازيليا الذين يعيشون قرب المحطة) هم موظفون ورجال أعمال متقاعدون مع عائلاتهم التي تتكون كل منها، عادة، من زوجة وعانس، شقيقة لأحد الزوجين. ويدعي بعض هؤلاء المتقاعدين أنهم يفضلون بريبري بصفتها المكان المنعزل قبل فصل الصيف وبعده، ولكن الحقيقة هي أنهم جميعاً ينخرطون، بطريقة أو بأخرى، في حياة المصطافين الصاخبة. وحين لايتطلعون بشغف إلى الفتيات شبه العاريات على الشط - ما أشهاهن! - فإنهم يعلقون تعليقات ساخرة على العشاق الباحثين عن الزوايا المعتمة. فأدريانو ميرا، تاجر الخردوات المتقاعد يخرج كل ليلة، في الصيف، بعد التاسعة ومعه مصباح يدوي بحثاً عن العشاق «ليرى إن كانوا يشتغلون شغلهم» حسب تعبيره. وكان ينجز جولة كاملة على الأزقة والجروف والصخور والفسحات الخلفية والمداخل والزوايا التي يبحث عنها العشاق لتلبية متطلبات الحب. وفي اليوم التالي يقدم أدريانو تقريره المفصل والمبهّر، فيفرك المسنون أيديهم وتلتمع عيونهم.

وليس هذا من أجل الاستهلاك الصيفي فقط، فكل حادث يتم تخزينه بحرص لكي يتم إخراجه وتحليله بعناية وتفكيكه بعد أن يكون المصطافون قد تفرقوا وحل السلام مرة أخرى على بريبري فاستطالت الساعات ولم يعد مصباح أدريانو يكشف له في الزوايا المعتمة شيئاً غير كاكوبودر النائم مخموراً وملتقيات الطهاة وصيادي الأسماك.

بعض فصول الصيف استثنائية، ليس بسبب جمال الطقس ولابسبب البهاء المدوخ للخضرة والزرقة في الأشجار والماء، ولا

لبرودة النسيم أو الليالي المرصعة بالنجوم. هذه الأشياء كلها لاتعني كثيراً لرجال الأعمال والموظفين المتقاعدين. إنها فصول الصيف التي تحدث فيها فضيحة حقيقية شهية يولمونها خلال الأشهر الراكدة الطويلة. لكن هذه الفصول نادرة للأسف الشديد.

ولقد كان الصيف السابق لمجيء القبطان سخياً بلا حدود. فضيحتان: واحدة عند البداية تماماً في كانون الثاني، والثانية بعد الكرنفال؛ وهذه كانت لها نهاية مأساوية جعلتها تدخل سجلات تاريخ الضواحي.

وبالتدقيق لايمكن إيجاد أية رابطة فعلية بين قضية المقدم أنانياس ميراندا، من الشرطة العسكرية، وبين القبطان فاسكو موسكوسو دو أراغان. لكن هناك ميلاً عاماً للربط بين الحادثتين وكأن سوء طالع أنانياس كان تمهيداً لمغامرات فاسكو.

«صوت الشعب» - رأي العامة - ماكان يستحق الاحترام الذي أولاه إياه المؤرخون، ولا كان الأمر يستحق مغبة سرد فضيحة كانون الثاني السلمية، لولا مسألة أنه ما من حادث إلا وهناك درس يمكن استخلاصه منه. ولهذا فإن الأحداث الفاضحة - والمتسارعة - التي غمرت المقدم وزوجته (رث)، وطالب السنة الثالثة حقوق، الشاب، أرلندو بايفا، تعطينا درسين قيّمين: الأول هو أن أفضل النوايا وأصدقها معرضة للتفسيرات السيئة والثاني هو أن على المرء أن لايثق أبداً بأي برنامج، مهما كان صارماً، وحتى البرامج العسكرية.

النوايا المقصودة هنا هي نوايا الطالب، والبرنامج هو برنامج ضابط الشرطة العسكرية المتقد حماساً. أما (رث) فشأنها الوحدة في الظهيرات الحارة، والساعات البطيئة تتهدل مثقلة بين يديها، والحاجة إلى عزاء معنوي، إذ ما فائدة وجود زوج، وجمال مغوٍ ناضج مع عينين حزينتين بأهداب طويلة - هكذا كانت تناكد نفسها بالتساؤل وهي تشمّس جسدها المهجور على الشاطئ - طالما أنها

تظل دائماً وحيدة في ظهيرات بريبري الممطوطة. كان المقدم يتناول إفطاره في العاشرة صباحاً ثم ينطلق مسرعاً لكي يلحق بالقطار، فالنظام في قطعته العسكرية صارم. ولم يكن يعود إلى منزله حتى السابعة مساء حيث يرتدي منامته ويتناول عشاءه ثم يجلس مسترخياً للنوم على الكرسي الهزاز عند الباب. وكانت (رث) موريس ميراندا تسأل نفسها وهي تتأجج وحيدة على الشاطئ والشمس تحرق جسدها وقلة الاهتمام بها تنهش روحها: أيعني هذا أن لديها زوجاً، وان لها في حياتها رجلاً كان المفروض أن يكون واجبه منحها العاطفة والحنان والعناية بها جسداً وروحاً؟

ولأن بايفا الشاب قد تأثر لحزن زوجة الضابط التي كانت في حاجة حقيقية للراحة المعنوية وللرفقة من أجل تبديد إحساسها بالوحشة؛ فإنه لم يتردد في أن يضحي ببضع ساعات على الرغم من أن أيامه كانت مثقلة بالواجبات المحببة. تخلى عن مشاويره، وعن الألعاب الكروية المثيرة على الشاطئ، وعن المحادثات المفيدة مع زملائه الطلبة وحتى عن المغازلات الواعدة. كان هذا تصرفاً كريماً دلَّ على قلب مفعم بالنبل يستحق كل تقدير. ونظراً لأن السيدة التواقة، في بريبري، لم تستطع أن تملأ ظهيراتها بالذهاب إلى السينما أو بزيارات صديقاتها أو بطلعات التسوّق إلى رواتشيلي؛ فإنه وضع مواهبه وشبابه وشاربه الأزغب المغوي في الخدمة للتخفيف عنها.

والمقدم، من جهته، استطاع ذات يوم أن يحتال على صرامة النظام العسكري. كم ستكون مفاجأة ظريفة لزوجته الصغيرة التي تظل تشكو من بعاده، فحين كان يرجع في العادة مساء ويحاول أخذها بين ذراعيه؛ كانت تدفعه عنها غاضبة مجروحة في كبريائها الأنثوي: «تتركني طوال النهار وكأنني غير موجودة...».

اشترى كيلو من العنب لأنه الفاكهة المفضلة لدى (رث). كانت تحب أن تغرز أسنانها في هذا اللب الطري، واشترى جبنة وعلبة مرملاد. ولكي تكون حفلة حقيقية اشترى زجاجة من الخمر

البرتغالي ثم استقل قطار الثانية والنصف. ستكون (رث) وحيدة وحزينة، يا للمسكينة.

لم تكن وحيدة، ولم تكن حزينة! فما أن اجتاز المقدم العتبة حتى تلقى مفاجأته الأولى: ما أن وقعت عليه عينا زيفا، الخادمة التي تشتغل عندهم منذ زمن، حتى اندفعت نحو الباب الخلفي تصرخ طالبة النجدة. ومن غرفة النوم جاءته أصوات مرحة بينها ضحكات رث و، يا إلهي، صوت آخر، كانت الأكياس ماتزال مدلاة من أصابعه وزجاجة الخمر تحت إبطه حين رفس أنانياس باب غرفة النوم وفتحه. ولأنه محدود من الناحية الجمالية فإنه لم يتأثر بمنظر الجسدين الفتيين العاريين، ولا بشاعرية التوددات القائمة بين الطالب الموهوب وزوجة الضابط الحسناء. لم يمتلئ بالإعجاب بل امتلأ بالغضب. أربكته الرزم (لأنه كان قد شد الخيوط على أصابعه) التي خففت درجة الكرامة التي يتطلبها الموقف، وكان هذا ما أنقذ بايفا الشاب الذي، ودون أي تفكير بملابسه، قفز من السرير واقتحم النافذة وانطلق إلى الشارع. وعبر الساحة المليئة بالناس بسرعة بطل في العدو وهو عار كما أرسله ربه إلى الدنيا. وبعد أن تخفف مقدم الشرطة العسكرية من الرزم، انطلق وراءه والمسدس بيده وهو يمطره بالشتائم والطلقات. ومن خلال النافذة المفتوحة كان في وسع المتطفلين الأكثر جرأة أن يروا عزلة (رث) العارية والمرفقة بالعزاء وهي ماتزال تعلن براءتها.

اختفى الطالب بعد أن خبأه أهله وأصدقاؤه، وعُقدت المناقشة المطولة وراء الأبواب الموصدة بين الضابط وزوجته، وأعدت الحقائب ثم غادرا في تلك الليلة ذاتها في آخر قطار. ولقد غادرا وكل منهما يتأبط ذراع الآخر بعاطفية شديدة كما جاء في شهادة بعض الكلاب المحظوظة التي رأتهما يغادران.

ولا يبدو سهلاً ربط هذه الأحداث بالقبطان، إلا أن ليمنوس العجوز، موظف البريد والبرق المتقاعد، والشاهد الحي الوحيد على هذه الأحداث لم يكن، وهو يروي قصة القبطان، يقول إلا: «بدأ ذلك

كله عندما ضبط رائد من بريوسا زوجته في الفراش مع طالب مدرسة»، ولاسبيل لمعرفة سبب تخفيض ليمنوس من رتبة المقدم إلى رتبة رائد، وسبب إقامة رابطة بين قرني أنانياس وبين مغامرات القبطان. غير أن تأكيداته لم تكن تقبل جدلاً. إن ليمنوس رجل ذو بصيرة ولاشك أن لديه أسبابه ونحن علينا أن نحترمها.

والفضيحة الثانية مرتبطة بشكل محدد بالقبطان. فقد حدثت عدة أمور في المنزل الذي جاء ليقطنه. فلولا المأساة التي وقعت لعائلة كورديرو لما أتيح له أن يأخذه بالسعر الذي تم الاتفاق عليه.

كانت أسرة كورديرو تضم الأب، بدرو كورديرو - الذي يملك معمل تقطير - والأم وأربع فتيات في سن الزواج. وكان يمكن لبدرو كورديرو أن يكون في وضع مالي ممتاز لولا أنه كان مسرفاً ومبذراً. والدليل على ذلك هذا البيت الصيفي الواسع والمريح والمبني على أساس صخري متين والذي يضاهي في جماله بيته في المدينة.

كانت الأم هي المسؤولة عن حملة تدبير أزواج للبنات، ودائماً كانت هناك حفلات لهو في المنزل ذي النوافذ الخضراء، وكان الشبان والفتيات يرقصون في الغرفة الكبيرة المطلة على البحر والتي سيضع فيها القبطان تلسكوبه فيما بعد. وتخرج الفتيات للتنزه بالزورق ويقضين الأمسيات على الحيد البحري ويذهبن في رحلات تنزه إلى باريب. كن متأججات بالحيوية في كل لحظة ويعشن حياة فصل الصيف. قبل عام خطبت إحداهن روزالفا، وهي الثانية من حيث الترتيب، إلى مهندس زراعي. ولم تكن تخرج إلى طريق الشاطئ ليلاً بل تجلس مع خطيبها على الشرفة ويدها في يده. بل اليد في اليد والفم على الفم والفخذ على الفخذ حسب ما يقوله أدريانو ميرا معتمداً على مصباحه اليدوي.

أثناء الكرنفال قامت حفلة راقصة في منزل بدرو كورديرو استمرت من السبت إلى الثلاثاء. وبعد عدة أيام حدثت الفضيحة. فقد اختفت أديليا، أصغر البنات الربع، وهي سمراء ومتمردة، وأخذت

معها ملابسها وأفضل ما في خزائن أخواتها إضافة إلى الدكتور أرستيديس (الطبيب المتزوج). عملياً شاهدت البلدة كلها المشهد الذي قدمته الزوجة المهجورة التي اندفعت إلى منزل كورديرو المحطم وهي تطالب من خلال الصراخ والدموع بالزوج «الذي أخذته مني ابنتكم القحبة»، وهربت عائلة كورديرو من بريبري. وكان الناس مايزالون يثرثرون بالموضوع عندما انطلقت الطلقة التي أنهى بها بدرو كورديرو مشاكله في مكتبه في معمل التقطير في باهيا بعد أن تم إعلان إفلاسه. ووصلت أصداء الطلقة إلى الضواحي عن طريق القطار ومعها موجة من الشائعات: أملاك المنتحر كلها صارت مرهونة، وطوق الدائنون المتوترون الجثة، وفسخ المهندس الزراعي الخطبة مقدماً أسباباً وجيهة: عائلة سيئة السمعة وعروس بلا مهر. ولم يتحدث أحد عن أي شيء آخر، وراحت السيدات يتهامسن من وراء أكفهن بالتفاصيل الصاعقة لعلاقات بنات كورديرو الغرامية.

مرة واحدة استطاع أدريانو ميرا أن يضبط كبرى البنات بضوء مصباحه. كان ثوبها مرفوعاً حتى سرتها وهي مضطجعة إلى جانب شخص غريب في الصباح الباكر على الشاطئ «وقد بان كل ما تحت خصرها». وأشياء من هذا القبيل بأعداد كبيرة، كان المطر غزيراً ذلك العام وقد طوَّف الشوارع الرملية فأثار المخيلة.

سكان بريبري وحدهم قادرون على أن يفوا فضيحة بهذه الأبعاد حقها: فتاة تهرب مع رجل متزوج، وأخرى تفرط بنفسها على الشاطئ وانتحار مع إفلاس من النوع الهام. لقد ملأت هذه الفضيحة الأيام الماطرة التي تلت رحيل المصطافين وراحت الضاحية تعيش على الذكريات.

ولاتحتفظ بريبري من فصل الاصطياف إلا بالجو البهيج للمصيف، وربما كان هذا عائداً إلى لون البيوت، التي دهنت بالأزرق والقرمزي والأخضر والأصفر، والأشجار المنتشرة في الساحة وعلى الشاطئ وفي المحطة. والأكثر من ذلك، دون شك، أن معظم

السكان الدائمين هم أناس لاعمل لديهم. فغالبيتهم موظفون متقاعدون ورجال أعمال وعاطلون عن العمل، يذهبون إلى المدينة مرة كل شهر لقبض معاشاتهم. لقد تخلصوا من عادة وضع ربطات العنق ولذا فإنهم عند الصباح يخرجون وهم يرتدون المنامات أو سراويل عتيقة مع قمصان مفتوحة الأزرار. كل منهم يعرف الآخر ويلتقي بالآخر كل يوم. زوجاتهم يناقشن المشاكل المنزلية ويتبادلن القطفات للحدائق وتعليمات صنع الكعك والكسيد. أما الأزواج فيلعبون النرد أو الداما ويتبادلون الصحف وقد يذهب بعضهم لصيد السمك بعيداً عن الشاطئ؛ وجميعهم يلتقون عصراً في الساحة. تجلب الكراسي الهزازة والكراسي ذوات الأذرع والكراسي التي تطوى إضافة إلى النضد القذرة وتوضع حول الأشجار، يتناقشون في السياسة ويتذكرون ما حدث في الصيف الفائت، ويمطون سنواتهم بعيداً عن ضجيج المدينة التي تظهر أضواؤها من بعيد مشيرة إلى أنه قد حان وقت العشاء. وفي الهدوء الساكن لهذا الملجأ يتحرك الزمن ببطء. وفي ساعة القيلولة المتوقدة يحس المرء كأن الزمن قد توقف تماماً.

حين كانت مناقشات مأساة كورديرو في أوجها وصلت شذرة مثيرة من نبأ: لقد بيع المنزل ذو النوافذ الخضراء. كيف يمكن أن يكون هذا قد حدث دون علمهم؟ ودون أن تصل إلى أحد نأمة من المفاوضات؟ فما من شيء استؤجر أو بيع دون مساهمة فعالة من السكان الذين يقدمون الاقتراحات، ويناقشون الأسعار، ويلفتون انتباه الطرف المعني إلى العيوب والمزايا مما يؤدي إلى إثارة غضب وكلاء المكاتب العقارية. غير أن هذا المنزل الذي هو تحت السمع والبصر والمضرج، إذا صح القول، بدم بدرو كورديرو، قد تم بيعه دون أية مشاركة منهم ودون تفحصهم للشاري وضرب الصحبة معه. هذا لغز. كان هناك حديث غامض عن ثري متقاعد من الشغل، ولكن أي شغل؟ وأية ثروة؟ وأي سيد هو؟ ما من أحد كان يعرف وضعه المادي أو حالته المدنية أو مهنته. شعروا أنهم قد استُغفلوا.

يمكن أن تلقى مسؤولية هذا اللغز على الأمطار، وليس هناك تفسير آخر. والحقيقة أن الأخوات ماغالهايز، وهن ثلاث عجائز ذوات عيون وآذان متحفزة لكل صوت ولكل حركة، وبيوتهن مغلقة في وجوه عائلة كورديرو، حكين عن أنهن رأين من يتحرك في الجوار، شخصين بالتحديد يرتديان معطفين واقيين من المطر، ويحمل كل منهما مظلة قبل ما يقرب من شهر. ولكن المطر كان غزيراً جداً، فلم يستطعن إبقاء النافذة مفتوحة. وإضافة إلى ذلك فإن كارمينا، الأخت الوسطى، كانت مصابة بالكريب (الرشح) وكان لابد من العناية بها. وبما أنه لم يكن ليخطر لهن أن البيت سيباع فإن ذلك قد خفف من يقظتهن المعودة. إذاً رجلان بمعطفين واقيين من المطر ومظلتين، أحدهما الشاري والآخر الوسيط العقاري، هذا كل ما عُرِف.

ولكن وصول خادمة، خلاسية غامقة في الأربعينات من عمرها، في قطار الصباح فتح آفاقاً جديدة للفضول الذي لم يشبع. فلم تكد تجتاز عتبة المنزل حتى كانت الأخوات ماغالهايز حاضرات يعرضن مساعدتهن ويمطرنها بأسئلتهن. ومع توقف المطر تجمع بعض العجائز أمام المنزل، لقد خرجوا ليستدفئوا بالشمس ثم اقتربوا تدريجياً ليشاركوا في الحديث، ولكن الخادمة، بالبينا، كانت نكدة ومتجهمة وقليلة الاهتمام بالثرثرة. فراحت تجيب بعبارات مقتضبة وهي تنطق الأرمنية رافضة أي عرض للعون. وعلى الرغم من ذلك فقد استطاعوا أن يعرفوا أن المالك الجديد سيصل بعد ظهر هذا اليوم.

- مع أسرته؟

- أية أسرة؟

أعلنت حالة الاستنفار وذهب الجميع تمشياً مع الواجب إلى المحطة. كانت الشمس قد عادت إلى الظهور وكانت شمساً شتائية لطيفة. الأيام جميلة ونسيم الخليج يدغدغ الحواس. وراحوا يغرقون

في التخمينات: هل يلعب الداما؟ ماهر في النرد؟ من يدري؟ قد يكون هو النظير الذي طال انتظاره لإيميليو فاغوندس في لعبة الشطرنج. وهذا رئيس قسم سابق في مديرية الزراعة كان يتابع مبارياته في الشطرنج بالمراسلة. ففي بريبري لم يكن هناك متمكن آخر في هذه اللعبة العلمية والمعقدة.

ولذا فعندما خطا القبطان خارجاً من القطار في الثانية والنصف ثم توجه إلى عربة الأمتعة ليشرف على إنزال أمتعته؛ فإن معظم القادرين كانوا بانتظاره فرفعوا أعينهم عن الصحف الصباحية أو رقع الداما لينظروا إلى هذا الوافد القصير الممتلئ بوجهه المتورد وأنفه المعقوف وسترته الغريبة.

- ماهذا؟ سأل زكوينها كرفيلو وهو يشير إلى دفة السفينة الموضوعة في قفص.

حتى أوغستو راموس، الموظف السابق في دائرة العدل والداخلية، ولاعب الداما المتحمس، والذي كان في تلك اللحظة يحرك نقلة ستقضي على داما وثلاث قطع عند ليمنهوس (من مكتب البريد والبرق) ما كان يستطيع الآن مقاومة منظر دفة السفينة. ترك اللعبة وانضم إلى الآخرين، وانتشرت الأمتعة على رصيف المحطة. وكانت عبارة عن صناديق غامضة مكتوب عليها بالخط الأحمر: «سريع الكسر... أدوات ملاحية»، وكرة أرضية ضخمة وسلم من الحبال الملفوفة. وكان القبطان يوصي الحمالين بالحذر، ثم حدث ذلك الصعود الذي لاينسى للجرف.

بعد ظهر ذلك اليوم ذاته، وفيما كانت الشمس تغرب والظلال تمتد لتغطي معظم أرجاء الساحة، حكى زكوينها كرفيلو لأولئك الذين فاتهم مشهد الوصول العظيم كيف أن رعشة أصابت ظهره حين رأى القبطان في أعلى الصخور غير هياب ووجهه إلى الشمس وعيناه مثبتتان على البحر. وعلى المقاعد والكراسي تحت أشجار التمر هندي كان المتقاعدون ورجال الأعمال المعتزلون يستمعون

موافقين. وكان زكوينها مترعاً بالحماس: «حتى قبل أن يدخل المنزل ذهب ليلقي نظرة على البحر».

وانتقلت البطاقة من يد إلى أخرى، وعلق جوزيه باولو العجوز، المعروف باسم مرّيكو، وهو بائع معتزل للمواد الصيدلانية، قائلاً: «الأشياء التي يستطيع المرء قولها...».

وأضاف إيميلو فاغوندس بنبرة مشوبة بالحسد: «هؤلاء البحارة الذين لديهم امرأة في كل ميناء...».

وعلق روي بسوا، الموظف السابق في مكتب الضرائب: «تكفي نظرة واحدة لتعرف أنه رجلُ فعل».

ولخص هذه الانطباعات الأولية زكوينها كرفيلو، وهو يحمل بيده كتاباً ظهر على غلافه بحار باسل يرتدي سترة شبيهة بسترة القبطان: «هناك بطل يعيش بيننا يا جماعة».

وحل الليل متمهلاً بطيئاً كالحياة في بريبري.

وهتف أحدهم: «هاهو قادم!».

التفت الجميع مستطلعين. وبخطوات وقورة منتظمة، خطوات رجل اعتاد التمشي على ظهر الباخرة في عزلة البحر الشاسعة، كان القبطان ينزل الشارع مرتدياً سترته البحرية وغليونه في فمه، وفوق شعره الأشعث قبعة مزينة بصورة مرساة لم يروا شبيهاً لها من قبل. كان يمد بصره في الفراغ، متلفعاً دون شك بذكرياته عن بحارته الميتين ونسائه اللواتي تركهن في المرافئ البعيدة. وحين صار في مواجهة الجماعة، رفع كفه إلى قبعته بتحية رُدَّ عليها بحرارة. ثم خيم الصمت ليرافقه في مشيته. ولم يستطع زكوينها كرفيلو السيطرة على نفسه: «سأرى إن كنت أستطيع فتح حديث...».

- حاول أن تجلبه إلى هنا لنتحادث.

- سأجرب.

وانطلق بخطى سريعة حتى لحق بالقبطان.

قال مرّيكو: «لابد أن هذا الرجل موسوعة».

عاد القبطان وزكوينها نحو الجماعة. وكان زكوينها يشير إلى كل بمفرده، ربما لذكر أسمائهم وألقابهم.

- تعال إلى هنا...

ونهضوا عن كراسيهم ومقاعدهم مبتهجين، وراح زكوينها يقوم بالتعريف والتقديم، وصافح القبطان بيده كلاً منهم وهو يقول له: «رئيس بحارة... بخدمتك».

وقدموا له كرسي جوزيه باولو الفخم ذا المسندين، فجلس وسط جيرانه ومج مجة طويلة من غليونه (وكانت العيون كلها معلقة بالنهدين والفخذين العاريين للمرأة التي أعطت الغليون إيحاء شهوانياً نادراً) وقال بصوته الهادئ الأجش: «جئت لكي أعيش هنا لأنني لم أر في حياتي مكانين في العالم يتشابهان مثل بريبري وراسمات، وهذه جزيرة في الباسفيك قضيت فيها عدة أشهر».

- أكنت تقضي هناك إجازة؟

ابتسم القبطان. «نجوت من سفينة غارقة. في ذلك الحين كنت مازلت مساعد ربان على سفينة يونانية...».

وقاطعه أوغستو راموس: «لحظة. رجاء، يا حضرة القبطان، انتظر لحظة قبل أن تبدأ. دعني أحضر زوجتي أولاً، إنها مولعة بالقصص».

كيف شاركت الراقصة الشهوانية ثريا والبحار الجلف جيوفاني في السهر على جثمان دونينها باراتا العجوز وتشييعه

لم يستطع حتى موت دونينها باراتا - خاصة أنه كان متوقعاً منذ أشهر - وهي أرملة استروجيلدو باراتا، وقد جاءا من أكويداكتس وسوير، أن يقطع الاهتمام الذي أثير بوصول القبطان واستقراره. لقد بدا وكأن الناس غير قادرين على تضييع الكثير من الوقت بالخوف.

من الناحية الخارجية لم يحدث تغيير. السهر على الجثمان والتشييع جاءا بعد الإجراءات المعهودة. ظهر أقرباء بعيدو القرابة من المدينة؛ جاء الأب جوستو من بلاتافورما ليشيع الجثمان إلى مثواه الأخير، جردت النسوة حدائقهن من الورود ولبس الرجال العجائز أحذيتهم وربطات أعناقهم من أجل الجنازة. غير أنه كان هناك تغيير طفيف، شيء ما لاتستطيع أن تلمسه لمس اليد، كأنما حضور الموت لم يُحَس بالقسوة المعهودة، كأنه دام أقل مما اعتاد بينهم. فحين كان الموت يزور بريبري بين حين وآخر لم يكن يرحل حالما يؤدي مهمته المروعة. كان يظل معلّقاً، حتى بعد الجنازة، فارداً ظله الجليدي على الموظفين المتقاعدين ورجال الأعمال المعتزلين، وعلى زوجاتهم المحنيّات، والجميع يحسون بالانقباض في قلوبهم وكأن مخالب الموت قد أطبقت عليها. ويفقد النسيم مداعباته؛ فما يحسون به فوق أكتابهم المحنية بالخوف هو نَفَسُ الموت الجنائزي. من الذي سيدعوه الموت في زياراته القادمة؟

لا. لم يكن الموت هو ذاته هناك في مدينة باهيا. هناك كان الموت سريعاً ومبتذلاً تحت عجلات سيارة أو في سرير في مستشفى أو في صفحات جريدة مخصصة للجرائم والحوادث. كان هيناً وشائعاً قلما يزعج أكثر من حارتين ثم تبتلعه الحياة بضجيجها وصخبها. لامكان له بين القلوب المتعجلة. وظله يمحى تحت الأضواء. والضحك يطغى على حفيفه. كيف يمكن للنساء الغارقات في العطور وبين أمواج الشهوات الحارة أن يشعرن بأنفاسه المزعجة؟ كان الموت يمر دون أن ينتبه إليه أحد حالما ينهي مهمته ويختفي. لاوقت لتضييعه على الموت وسط هذا القلق وهذا التوق للعيش.

«مات فلان» تقول الصحف أو الإذاعة أو الأحاديث. «مسكين»، «في وقته تقريباً»، «مازال شاباً...» وهكذا ينتهي الأمر. هناك أمور كثيرة يمكن التحدث عنها وضحكات كثيرة يجب أن تُطلق وطموحات يجب أن تتحقق، وكثير من الحياة يجب أن يعاش.

في بريبري كان الأمر مختلفاً. فحياة أولئك الذين يعيشون أو يتراخون هناك لم تكن مصنوعة من العمل والكفاح، الطموح والمتاعب، الحب والكراهية، الأمل واليأس. هناك لاتوقف للزمن ولاشيء يستعجله، فتأخذ الأحداث مداها الكامل. وأطول الأحداث هو الموت، لايكون عجولاً ولا عادياً بل يكون دائماً بطيئاً وفظيعاً، يستهلك بحضوره كل مظاهر الحياة في البلدة. أولم يبدأ هؤلاء الموظفون المتقاعدون ورجال الأعمال المعتزلون بالموت عندما نزلوا هنا مدفوعين بالرغبة في أن يحيوا قدر ما يستطيعون وهم يمطّون سنواتهم بعيداً عن الصخب والرغبات؟ السكان عجائز لا هم لهم إلا حياتهم. وموت واحد منهم يجعلهم، جميعاً، يموتون قليلاً ويخلّيهم مغمومين ومكتئبين.

تقلّ لعبات الداما والنرد. بل إن بعض السكان يتوقفون عن الخروج من منازلهم. وتتفاقم أوجاع آخرين. تصبح الأيام حزينة. وتصبح الأحاديث قصيرة وكئيبة. بصعوبة وبالتدريج يتلاشى ظل

الموت مدفوعاً بالرغبة الوحيدة والحب الوحيد المتبقيين لديهم، الرغبة في أن لايموتوا. فتعود الضحكات المُجلجلة ويعود معها الطموح الصغير لكسب لعبة داما، ورذيلة الشره؛ وترجع إلى الحياة المحادثات في المحطة وفي الساحة وفي صالون منزل القبطان الآن في الليل.

كانت الجدران، التي أقاموها بينهم وبين الموت، لتخبئهم وتحميهم من حضوره المشؤوم وتبعد الرؤية المنحوسة عن أعينهم، جدراناً هشة.

حضر القبطان السهرة على الجثمان. وكان يرتدي السترة الضيقة الزرقاء ذات الأزرار النحاسية ومعه قبعته وغليونه. ولكن، ربما لأنه قادم حديثاً من المدينة، فإنه لم يدخل مقوساً ومحنياً؛ وكأن تلك الجثة تمهيد لموته هو. تطلع إلى وجه دونينها المغضن، الذي لم يره من قبل، وقال بما يشبه المرح: «لابد أنها كانت جميلة في صباها».

كانت سهرة خاملة صامتة، كل منهم كان يفكر في نفسه، ويرى نفسه ممدداً في تابوت وسط الشموع التي يتصاعد منها الدخان والورود عند قدميه وقد انتهى تماماً كل شيء. بين حين وآخر كان أحدهم يرتعش. فالخوف، الخوف من الموت، كان ينخس كلاً منهم. لم يكونوا يفكرون في دونينها وأيام صباها وجمالها الأقل المشكوك فيه. لقد أيقظتهم عبارة القبطان من خدرهم. وبحث مرّيكو، الذي كان يعرف المتوفاة في صباها، في ذاكرته وقال: «كان فيها شيء من الجمال».

جلس القبطان وتربع ثم أشعل غليونه (ليس الغليون المرشوم فهو غير ملائم لسهرة كهذه بل كان غليوناً أسود ذا قصبة معقوفة). تطلع حواليه وشجع على الحديث: «يذكّرني وجهها، ولا أعرف لماذا، براقصة عربية عرفتها قبل سنوات طويلة حين كنت مبحراً على متن سفينة شحن هولندية. من أجلها كان مساعدي الأول وهو سويدي اسمه جوهان سيحطم حياته. ولكنني استطعت إنقاذه...».

كل من عاش حياة مليئة يكون كذلك. أي حادث أو مشهد أو وجه يذكره بشيء ما من ماضيه، بقصة حب، بضفتي نهر، بوجه آخر. أو لم ير القبطان في وجه دونينها المجعد الهزيل، الذي لم يكن الآخرون يرون فيه إلا الموت، الوجه الأسمر والشعر الطويل الأسود الداكن لثريا، الراقصة الخاطئة الشهوانية ذات الشفتين الناريتين؟ المرأة التي من أجلها غرق المساعد السويدي، الذي فقد عقله، في الديون فباع أشياء تعود للسفينة وحاول أن يقتل نفسه؟ بخطوة زلقة دخلت ثريا الغرفة فيما كان القبطان يجهد نفسه لتذكر الإيقاع الغريب لرقصتها المجنونة وهو يدندن به.

«ليست الموسيقى امتيازي ولكنني أستطيع تذكر الإيقاع...».

وكيف له أن ينساه وهو الذي يتدفق مثل الدم في شرايين الإنسان، بموسيقى مخدرة كالرذيلة؟ لقد أفسد جوهان وجعله يفقد عقله. الموسيقى والرقص. وكانت ثريا مثل مرض يتسرب إلى دم الإنسان فيسممه. ومن ذا الذي لايفقد عقله أمام ذراعيها الأفعوانيين وساقيها العاريتين ولمعان الحجارة الكريمة على صدرها والزهرة على سرتها؟

تفهم الجميع حالة جوهان وتأثروا بعناية القبطان المفرطة بمساعده من أجل انتزاعه من بين ذراعي الراقصة الشهوانيين والباهظين... آه على هذين الذراعين والساقين والنهدين... كل منهم كان يرى ثريا في الغرفة. وكانت ترقص واستطاع عريها المحاط بالزهور واللآلئ أن يخفي جثة دونينها الهزيلة عن أنظارهم وأن يطرد الرعب والموت.

وفي اليوم التالي من الجنازة استطاع القبطان، مرة أخرى، أن ينتزعهم من قبضة الموت عندما ظهر متألقاً ببذلته الرسمية. لم يسبق لأحد أن رآه بملابسه الكاملة مع الكتافيتين الفضيتين والقفازين الأبيضين وبيده قبعة جديدة وعليها مرساة ذهبية، وعلى صدره وسام.

قال: «في البحر يكون الأمر أسرع بكثير. تُلَفُّ الجثة بشراع

مغطى بعلم، يعزف له عريف الملاحين على ظهر المركب. ثم يتم إنزال الجسد إلى الأمواج. أسرع وأجمل. أليس كذلك؟».

ـ هل سبق لك أن كنت حاضراً في جنازة كهذه يا قبطان؟

ـ يا له من سؤال! عشرات المرات... كنت موجوداً ومسؤولاً... عشرات المرات.

أغمض عينيه نصف إغماضة وأحس الحاضرون باحتشاد الذكريات في تلك الحركة البسيطة.

«أفكر بجيوفاني المسكين... بحار كان معي عدة سنوات... وحين أبدل السفينة كان يهجر مهجعه لكي يأتي معي فقد كرس نفسه لي. لكنه كان إيطالياً، وكما تعرفون يا سادة، الإيطاليون سطحيون جداً مؤمنون بالخرافات. كان يقول لي دائماً: «يا قبطان. إذا مت في البحر أريد أن أدفن في مياهنا الإقليمية» فهو يعتقد أنه إذا ما ألقيت جثته في بحر آخر فإن روحه لن تجد الراحة».

كان المشيعون يمشون ببطء وصوت القبطان يتهادى: «عندما مات جيوفاني الشجاع قمت بأفعال الشياطين».

ـ وممَ مات؟

ـ من الشراب. ما الذي يميت جيوفاني غيره؟ كان يشرب مثل من فقد عقله ـ مشاكل عائلية. وعندما مات كان علي أن أغير طريقي لمدة يومين، تغيير الطريق، يا سادة، تستطيعون تصور ذلك، فقط من أجل طرح جسمه في المياه الإيطالية. لقد وعدته ووفيت بوعدي. غيرت الطريق. مشينا ثماني وأربعين ساعة...

ـ والجثة...؟

ـ ما بها؟

ـ هل تظل طوال هذه المدة دون...؟

ـ وضعنا الجثة في براد السفينة. وفي ساعة الدفن كانت صلبة مثل القديد المسلح ولكنها محتفظة بشكلها. غير أنني من أجل الوفاء بعهدي وقعت في مشاكل كبيرة مع مالكي السفينة. لاتسألني...

لكنهم كانوا يريدون أن يعرفوا فسألوا. وراح جيوفاني بسكره ومشاكله العائلية وجلده المكوي برذاذ الملح يتأرجح بينهم وبين تابوت دونينها عبر شوارع بريبري. وحكى القبطان عن الجدل الذي دار بينه وبين المالكين الجشعين بأجوبته المؤدبة والحازمة معاً دفاعاً عن حق فتيانه في أن يدفنوا في بحار أوطانهم لكي تأكل أجسادهم أسماكٌ يعرفون أسماءها. وبهذا ومع الغوص الأخير لهم يتمكنون من أخذ شواطئ أوطانهم داخل عيونهم الميتة وهم يمدون أذرعهم الميتة نحوها. لكنها كانت مهمة مستحيلة أن يتم إقناع بهيمة مثل مينينديز، الذي كان وغداً بكل معنى الكلمة، وقد كان ذات يوم موظفاً صغيراً في الشركة استطاع بالمكائد والدهاء أن يصبح مديراً لها بعد أن أوصل رئيسه السابق، الذي كان رجلاً طيباً يتفهم عمل البحارة، إلى الإفلاس. هذا المينينديز منحط. القبطان يحتقره.

كيف كانوا سيختبئون في غرفهم لينكمشوا في أسرتهم تحت البطانيات وتتفاقم أمراضهم تفاقماً مفاجئاً وهم يرتجفون من الخوف، والموت يحاصرهم، لولا أن كان القبطان معهم في الساحة بعد ظهر ذلك اليوم ليحكي لهم كيف نجا من غرق سفينة بعيداً عن شواطئ البيرو عند وقوع هزة أرضية تحت سطح البحر! أمواج كالجبال تفلق البحر كالهاوية والسماء أشد سواداً من أحل الليالي.

كان القمر بدراً يلقي بأضوائه على الرمل والمياه في الليلة التي دفنت فيها دونينها باراتا. في مرات سابقة ما كانوا يلاحظون أبداً، جمال السماء. كانوا ينغلقون على أنفسهم في غرفهم وفي يقينهم الراسخ باقتراب الموت. ولكن في هذه المرة دعاهم القبطان لتناول الشراب في منزله وللتطلع إلى السماء بواسطة تلسكوبه.

عن التلسكوب واستخداماته المختلفة ودوروثي في السفينة تحت ضوء القمر

التلسكوب! آه... التلسكوب. على جناحيه انطلقوا لاستطلاع القمر والنجوم، وفي رحلات خيالية حطمت حدود الرتابة والملل. كأنما بموجة سحرية من أمواجه لم تعد بريبري ضاحية مضجرة على خط ليست برازيليرا يقطنها عجائز ينتظرون الموت، بل تحولت إلى محطة فضائية ينطلق منها رواد جريئون لغزو الفضاء.

تغير الصالون الكبير بنوافذه المفتوحة لتطل على المياه، حيث سبق أن أقيمت حفلات عديدة خليعة في فصول الصيف الفائتة، كانت فيها بنات كورديرو وصديقاتهن يتهادين ويدخن بين أذرع الشبان. اختفت المزهريات واختفى البيانو الذي كانت عليه أديليا تقتل الفالس ورقصة الفوكستروت واختفى الحاكي والأثاث الاستعراضي، صارت القاعة الآن شبيهة بسطح سفينة وإلى درجة أن ليمنهوس، الذي لديه معدة حساسة، صار يحس بالغثيان وبشيء من دوار البحر كلما دخلها. السلم المصنوع من الحبال المتدلي من النافذة، يؤدي مباشرة إلى الشاطئ. وقد خطط زكوينها كرفيلو، المتطلع إلى مركز ضابط محاسبة، أن يستخدمه للدخول والخروج حين يتحسن من الروماتيزم المزعج.

وفي وسط الحائط تتدلى الشهادة المؤطرة بشكل مترف مع الدرج(*) الذي يعود تاريخه إلى ثلاثة وعشرين عاماً. تحمل الأولى

(*) لفيفة من الرق أو ورق البردي تدون عليها وثيقة ـ المورد.

توقيع مدير مرفأ سابق يشهد بأن فاسكو موسكوسو دو أراغان قد اجتاز كافة الاختبارات والامتحانات التي تؤهله لمركز رئيس بحارة، الأمر الذي يمنحه أحقية قيادة أي نوع أو صنف من السفن التجارية في البحار والمحيطات. قبل ثلاثة وعشرين عاماً، حين كان مايزال شاباً نسبياً، في السابعة والثلاثين، حصل على شهادة (قبطان). صحيح أنه كان صغيراً في السن لكنه كان (كلب بحر - ملاحاً ماهراً) لأنه، كما قال، بدأ عمله هذا في العاشرة من عمره خادم (كابين) على متن سفينة شحن بطيئة ثم ارتقى خطوة خطوة إلى مرتبة المساعد الرئيسي (وكيل الربان). وبين حين وآخر كان يبدل سفينته لأنه كان يحب أن يرى أماكن جديدة ويجوب البحار السبعة ويرتحل تحت أعلام ورايات مختلفة وينخرط في مغامرات عسكرية وعاطفية. ولكن حين صار في السابعة والثلاثين وصارت لديه المؤهلات التي تجعله رئيس بحارة عاد إلى باهيا لأنه كان يريد أن ينال اللقب المرجو هناك ومن سلطة مرفئها. كان يريد مرفأ وطنه، حيث سجلت قدراته ومؤهلاته، وهو حوض السفن الأساسي لسلفادور دو باهيا، فمنه انطلق كولد في مغامراته البحرية. وأضاف وهو يبتسم أن لديه هو الآخر معتقداته الخرافية. واعترض زكوينها: إنها لسمة نبيلة تكشف عن وطنية القبطان أن يأتي من طرف الدنيا ليؤدي امتحاناته في باهيا. وأضاف رئيس البحارة: «لنضع التواضع جانباً. لم تكن امتحاناتي رديئة جداً». وكان هذا أيضاً الرأي المتحمس للقبطان جورج دياس نادرو، الذي كان في ما مضى مدير مرفأ (وهو الآن أميرال شهير في أسطولنا المجيد) حين خاض امتحاناته.

وفي إطار آخر تعلقت حلية درجية لوسام فارس في خدمة المسيح، الوسام البرتغالي الهام، مع امتياز تعليق وسام وسلسلة، منحت للقبطان من قبل كارلوس الأول ملك البرتغال والغارف للخدمات الجلية التي قدمها للتجارة وراء البحار.

جلس في كرسي بحري (قابل للطي)، مقعده ومسنده من

القماش الزيتي، قرب دفة السفينة وغليونه في يده ونظره موزع بين النوافذ. على مائدة طويلة كانت الكرة الأرضية الضخمة الدوارة مع أدوات بحرية مختلفة: بوصلة، أداة سبر الأعماق، وآلة السدس(*)، والمرطاب(**)، والمنظار المقرب الأسود الكبير الذي تظهر من خلاله مدينة باهيا قريبة جداً والمسماك(***) لتعيين الاتجاه ومجموعة الغلايين التي تثير الإعجاب والتي أخذوا بها جميعاً. أما ساعة السفينة فكان اسمها الكرونومتر.

على الجدار كانت المخططات البحرية وخرائط المحيطات والخلجان والجزر المغمورة. وفي الخزانة وضع القبطان الكؤوس وزجاجات الشراب. وكان فيها نموذج قارب بريدي في علبة زجاجية كبيرة، «عروسي التي لاتنسى»، آخر ما أبحر عليه، سفينته الأخيرة. وكانت هناك صور مؤطرة لسفن أخرى بأحجام ومواصفات مختلفة، بعضها بالألوان. كل منها يمثل مرحلة من حياة القبطان فاسكو موسكوسو دو أراغان، وأحداثاً وحوادث وأفراحاً وليالي موحشة طويلة.

والتلسكوب، الذي ولّد قشعريرة حين رأوه مركزاً وموجهاً نحو السماء جعل زكوينها كرفيلو يعلن: «إنه يكبّر القمر ثمانين مرة». وقد قالها مع تزايد ألفته مع الأدوات والصور المؤطرة والقبطان.

في تلك الليلة الغارقة في الضوء نسوا جنازة دونينها باراتا، التي حدثت في صباح ذلك اليوم، من خلال تشوقهم لتفحص السموات واكتشاف أسرار الفضاء ورؤية النجوم والمجرات التي تعلموا أسماءها أيام الدراسة التي صارت بعيدة جداً، وجميعهم، وبحماس تلاميذ المدارس، راحوا يحاولون تحديد مكان صليب الجنوب.

بعد بضعة أيام اكتشفوا استخداماً آخر ليس أقل إدهاشاً

(*) آلة لقياس ارتفاع الأجرام السماوية من سفينة أو طائرة متحركة ـ المورد.
(**) آلة قياس الرطوبة ـ المورد.
(***) آلة لقياس السماكة.

للتلسكوب. راحوا يوجهونه عند الصباح نحو شاطئ بلاتا فورما المحتشد ليتفحصوا أجساد النساء - المكبرة ثمانين مرة - بالمايوهات. وبين الضحكات راحوا يتجادلون حول الدور للنظر فيه متهامسين بعبارات داعرة وكأنهم مراهقون.

تعودوا المجيء إلى منزل القبطان للفرجة على السموات ولسماع القصص. وأعد القبطان مشروباً مسكراً لذيذاً حسب وصفة تعلمها من ملاحٍ قرب هونغ كونغ. استغرق معه الإعداد نصف ساعة وبمعونة الخلاسية بالبينا. وكان احتفالاً حقيقياً. سخنا الماء في إبريق الشاي. وحضّرا السكر المحروق في مقلاة صغيرة. قشرا البرتقال وقطعا القشور. ثم أخرج القبطان كؤوساً زرقاء بحرية (ثقيلة لكي لاتهتز مع اهتزاز السفينة) ووضع في كل منها قليلاً من السكر الأسمر وقدراً من الماء وقدراً آخر من الكونياك البرتغالي ثم زيناه بقشرة برتقال. في البدء لم يجرؤ على شرب هذا المزيج الغريب إلا أدريانو ميرا وإيميليو فاغونديس وزكوينها كرفيلو طبعاً. ولكن مع تأكيدات هؤلاء على أنه لذيذ ولطيف، وضمانات زكوينها بأن من الممكن استخدامه كدواء؛ جربوه جميعاً وهم يتمطّقون بشفاههم. وحتى جوزيه باولو العجوز ومرّيكو المعتدل في كل شيء، والذي لم يسبق له أن ذاق المشروب؛ طلب أن يذوقه ذات يوم ثم صار زبوناً مواظباً.

كانوا يجلسون على الكراسي البحرية وهم يرتشفون الخمر الفواح. وقبل أن ينتبهوا يصير الوقت بعد التاسعة... لابل بعد التاسعة والنصف أحياناً ويكون على بقية القصة أن تنتظر إلى لقاء اليوم التالي في المحطة أو في الساحة.

ولم يمر وقت طويل حتى كان القبطان قد أصبح المواطن الأهم والأكثر شعبية في بريبري. وانتشرت شهرته حتى إلى الضواحي الأخرى. وكان الجميع يمتدحون سلوكه وطباعه ومودته الحارة

وتجرده من التكبر. ولأنه كان بهذه الأهمية فإنه كان لطيفاً مع الجميع، الأغنياء، والفقراء، ولم يستثن أحداً.

وفي إحدى الليالي التي كانت السماء فيها ملبدة وبوادر المطر في الجو لم يستطع روي بسوا، الموظف السابق في مكتب الضرائب، أن يسيطر على فضوله فسأل القبطان عن سبب تخليه عن مهنته مع أنه مايزال، نسبياً، شاباً، فهو مايزال في أبواب الستين، ولكنه ترك العمل منذ ثلاثة أو أربع سنوات. وبالتالي فهو لم يكن مع البحر منذ ما لايقل عن عشر سنوات فلماذا؟

وضع القبطان كأسه على طرف الطاولة ثم جلس يتطلع إلى الأفق الملبد بالغيوم واكتست ملامحه سمات الجدية المشوبة بالحزن. لم يقدم إجابة سريعة، بل نقل نظره على وجوه مجموعة الأصدقاء وكأنه يدرس استحقاقهم لثقته. وأحس زكوينها كرفيلو بالتوتر. لعل روي بسوا كان عديم اللياقة. إن رجلاً مثل القبطان لابد أن تكون له أسراره المدفونة في أعماق روحه ومن واجب أصدقائه أن يحترموا صمته. وكان على وشك تغيير الموضوع عندما نهض القبطان ومشى خطوتين نحو النافذة ثم قال: «بسبب امرأة. ما الذي يمكن أن يكون غير ذلك؟».

وأشار إلى «العروس» في علبتها الزجاجية.

«كنت آمراً على تلك السفينة وكنت متجهاً إلى أوستراليا. وكما قلت لكم لم أكن في ما مضى قد فكرت بالزواج. كنت أفضل امرأة هنا وامرأة هناك... أية امرأة تتلقى عواطفي الاعتباطية في أي مرفأ نتوقف فيه... فرنسية في مرسيليا، تركية في أسطمبول، روسية في أوديسا، صينية في شانغهاي وهندوسية في كالكوتا. حب في أوقات الفراغ وقلوب موجوعة في الوداع وعزلة ووحشة على السفينة في البحار البعيدة. كن كثيرات حتى أنه لم يفكر في وشم أي اسم على صدره أو ذراعه كما يفعل الكثير من البحارة. كان يسجل أسماءهن وعناوينهن في دفتر صغير، ويحتفظ بصور معظمهن، مع

خصلة شعر، قميص داخلي، الصدى الكريستالي للضحكة وعواطف دموع الوداع التي تنزل على الخد».

ولكن حتى هذه الأمور لم تعد لديه لأنه حين عرفها وأحبها على متن «العروس» قدم لها دفتره الصغير كأضحية - وكان الدفتر عملياً خريطة للعالم - وتخلى عن الذكريات المحددة المرتبطة بالأخريات كلهن.

كان اسمها دوروثي. وكانت سمراء رشيقة شعرها يتطاير مع الريح ويتناثر حول وجهها. ساقان طويلتان، فم مزموم ونظرة عذاب في عينيها. مزاجها متقلب. أحياناً تكون لطيفة وطيعة كالطفل. وأحياناً قاسية ومنكمشة وكأنها تحس أن الجميع ضدها. كانت تسافر مع زوجها، وهو كائن عديم اللون، ملّاك لبعض المعامل لم يكن يفكر في شيء إلا في التجارة والأرقام مهملاً جمالها والعذاب المعشش في عينيها. كانا يقومان برحلة حول العالم: هو من أجل أن يرتاح. وهي، كما اعترفت في ما بعد، لكي تبحث عن قدرها. في الليل كانت تستند إلى حاجز السفينة لتتطلع إلى المياه.

كيف بدأ الأمر؟ لم يكن يعرف. كقبطان كان من الطبيعي أن يختلط بهما وأن يعجب بجمالها وأن يشتهيها بصمت. لكن فارق السن بينهما كان كبيراً. فهي في الخامسة والعشرين. تبادلا الكثير من الأحاديث. هذا صحيح. حكى لها عن البحر وعن عواصفه وفتراته الساكنة، وعن ألفته مع النجوم. وحين كان يغادر منصة الربان في وقت متأخر من الليل يجدها وحيدة قرب الحاجز. يتحدثان عن هذا الأمر أو ذاك وعيناها معلقتان به وكأنها تريد أن تكتشف أي نوع من الرجال هو. وذات ليلة ودون أن يعرف كيف حدث ذلك وجدها بين ذراعيه.

ولأنه قبطان لايحق له أن يفعل ذلك. بعد النزول على الشاطئ يستطيع القبطان أن يغرق نفسه في المجون كله والعربدة الفاسقة.

ولكن وهو آمر السفينة من المفترض أن يتصرف كقديس وأن يصمد أمام أية غواية...

«ولم تكن الغوايات قليلة».

وتخطرت دوروثي في الصالون بجسدها الممشوق وفمها المزموم وشهوتها المتوقدة. واستطاع الموظفون المتقاعدون ورجال الأعمال المعتزلون أن يروها وأن يشتهوها.

- وهل انتبه زوجها للأمر يا قبطان؟

استاء القبطان من هذه العبارة المبتذلة. كان ذلك حباً، حباً لايشبهه أي حب آخر، لاحدود له ولامنطق، استولى عليه جسداً وروحاً، وقاده نحو الجنون منذ أن أخذها بين ذراعيه وتذوق العسل من فمها، لكنه كان القبطان. لم يسبق له خلال عمله كله، خلال أربعين عاماً من الخدمة، أن لوث اسمه بأية لطخة، ولم يكن يستطيع، لم يكن يستطيع... هذا ما قاله لها بعينين مبللتين بالدمع، هو الذي لم يسبق له أن بكى في حياته كلها.

هل سبق لأحد من السادة أن حاول مجادلة امرأة لجعلها تفهم حالة واضحة كالكريستال؟ دوروثي المندفعة أكثر منه، والتي كانت في حاجة إليه، كانت مستعدة للانتحار، لإلقاء نفسها في البحر إن لم يحبها. ووصل بها الأمر ذات صباح أن جاءت إلى مهجع الضباط ودقت باب كابينته.

كانت تلبس قميص نوم مخرماً شفافاً غير قادر على إخفاء جسدها المتلهف. واندفعت دوروثي بينهم في الصالون بقدميها الحافيتين. ولعق أدريانو ميرا شفتيه.

«وهذا كثير عليك...».

آه... إنهم لم يعرفوه بعد، ولم يعرفوا صلابته حين يتعلق الأمر بأداء الواجب. لم يقاوم. ألقى معطفاً على كتفيها العاريتين (قميص النوم ذو القبة المنخفضة كان يظهر انحناءة نهديها الرجراجين -

وأطلق أوغستو راموس تنهيدة) وأبعدها بما يشبه القوة. كانت تلك لحظة عاصفة بالنسبة له إذ راح يتمزق بين الحب والواجب، وهي شبه فاقدة الوعي بين ذراعيه، حتى وعدها بأن يرسو في أقرب مرفأ لكي يهرب معها إلى الأبد. إلى أي ركن منسي من العالم. وحدثت قبلة واحدة أمام جبروت البحر.

أبرق يستقيل، فأجابت الشركة بالتوسلات والرجاءات والعروض بزيادة راتبه. وأصيب الوكلاء بالذعر لأن اسمه اكتسب هالة من الاحترام والشهرة في عالم البحر بين البحارة ومالكي السفن. لم يغير موقفه. فقد أعطى كلمة وهو عاشق. وفي أول مرفأ، في ماكاسّار، وهو مرفأ قذر في الشرق الأقصى ودع بحارته. البحارة العجائز، النكدون الملفوحون بتغيرات الطقس، بكوا وهم يشدون على يده الوفية. وكان قد رتب الالتقاء مع دوروثي في منزل شخص اسمه كارول أوهو مهرب أفيون مدين له بمعروف. وعبثاً انتظرها الزوج فتابع تجواله وحيداً.

مر أسبوعان من الجنون وهما مختبئان في منزل صغير في ضواحي المدينة، في الغابة المدارية، مستسلمين لحبهما العنيف الهائج. وكأنهما كانا قد تكهنا...

«وظهر الزوج؟».

ما قيمة الزوج هنا؟ هذا المغفل! كان اسمه روبرت. إن القبطان لايكن له إلا الاحتقار. ولم يقم له شأناً في كافة مراحل تطورات القصة. مغرور وأبله. ظن أنه يستطيع شراء حب دوروثي وإخلاصها بالزواج وبالمال... لا. لاعلاقة للزوج بالأمر. إنها الحمى. حمى الجزر القاتلة. خلال يومين قضت على دوروثي وآمال القبطان. كيف يستطيع بعدها أن يقود سفينة وأن يبحر عبر البحار طالما أنه لن يستطيع أن يتوقف هناك في مرفأ ماكاسار ليرى عيني دوروثي، تينك العينين الحزينتين، المتقدتين بالحمى وهما متعلقتان به وكأنه قادر على إنقاذها؟ كان فمها المزموم يتوسل إليه أن لايدعها تموت

بعد أن اكتشفت متعة الحياة. ولم يستطع حتى أن يموت معها، كما كان يتمنى ويتوسل إلى السماء أن تفعل؛ لأنه كان ممتنعاً على تلك الحمى ومحمياً منها فقد تعرض لها في شبابه. مرت فترة فقد فيها توازنه فأدمن الأفيون. وأغرقه الوكلاء بالطلبات والعروض إلا أنه فضل العودة إلى مسقط رأسه. لن يعتلي منصة الربان مرة أخرى. لقد انتهى كل شيء بالنسبة له. وقد أقسم يميناً غموساً بهذا قرب ضريح دوروثي. ولأول مرة، ولآخر مرة، سمح بوشم اسم امرأة على ذراعه. وطوى كمه فبان اسم دوروثي مع رسم قلب.

أنزل كمه واستدار إلى النافذة معطياً ظهره لأصدقائه. وخيل لهم أنهم سمعوا بكاء مخنوقاً. خرج الجميع معاً متمتمين بـ «تصبح على خير» خافتة، وأمسك زكوينها كرفيلو كف القبطان وشد عليها بتضامن حار. وحمل كل منهم دوروثي معه وسعيها نحو الحب وقلقها وصورتها التي لاتنسى.

بعد أن غادر الآخرون أطفأ القبطان الأضواء في الصالون. كان يفضل أن لايقتل دوروثي وأن لايدفنها في ذلك المرفأ القذر أو يقطف زهرة شبابها بالحمى. كان يمكنه أن يتركها على الشاطئ في مكان أكثر تحضراً، ولكن كيف يمكن ختام حب مطلق مهلك كهذا إلا بالموت؟ وفيما هو يمشي إلى القاعة حيث كان يظهر وميض ضوء رأى مرة أخرى دوروثي القلقة المعذبة حافية على ظهر السفينة ـ يا لتلك الساعة! ـ نهداها يقدمان نفسيهما من خلال قميص النوم المدلوق وفمها متعطش للحب وجسدها جمر متقد.

أمسك دوروثي من يدها ودفع باب غرفة الخادمة ففتحه وغمغمت بالبينا الخلاسية وهي تفسح له مكاناً إلى جانبها في السرير.

حيث يكشف الراوي عن نفسه
بأنه وغد إلى حد ما

مَنْ، في عالم هذه القصة، يستطيع أن ينجو من سهام الحسد؟ كلما برزت مكانة شخص ما في عيون أبناء بلده، وكلما ازداد موقعه أهمية واحتراماً؛ صار هدفاً أفضل لسهام الحاسدين المسمومة. تهيج بحار الافتراء لتقذف أمواج تشويه السمعة عليه. وما من سمعة، مهما كانت نقية وطاهرة، أو مجد، مهما كان ناصعاً، يرقى على الهجوم.

ولدي الدليل على ذلك أمام عيني، فضيلة الدكتور ألبرتو سكويرا يضفي على بريبري الشرف والقيمة بقبوله العيش بيننا بشهاداته وعلمه وصدره ذي القميص المنشّى وثروته. فلو أراد لاستطاع أن يشتري لنفسه منزلاً في بيتوبا حيث المصايف التي تعيش، وتقضي الصيف فيها، الطبقة الراقية. إلا أنه يفضل ضاحيتنا حيث لايوجد إلا القليلون ممن يستطيعون تقدير أفكاره ونثره الناعم وخطاباته المليئة بالكلمات القاموسية. ويجب علينا جميعاً أن نحس بالاعتزاز لتفضيله هذا وأن ندين له بالعرفان الدائم لوجود فضيلته بيننا.

ولكن، وعلى الرغم من هذا كله، ماذا حدث؟ ألقوه إلى الكلاب. وليس من المهم أن مقالاته كانت تظهر في الصحف القانونية بجمل وضيئة موقعة باسم الدكتور سكويرا. أنا نفسي صدف أن وقعت على أعداد بأطر جلدية من صحيفة البار «بار ريفيو» وكانت فيها مقالات تعكس حكمة فضيلته وتحتل صفحات وصفحات. لا أستطيع

ولا أغامر بإطلاق حكم على تلك الآراء والجمل، التي كُتب نصفها باللاتينية، والنصف الآخر بصيغ نحوية رفيعة. ولكن ألم يقل رجل قانون آخر، في معرض تعليقه على رأي قاضينا في المنشورات المذكورة آنفاً: إن الدكتور سكويرا «نجم ساطع في علم التشريع؟».

غير أنه ولا حتى هذا الدليل المطبوع في صحف سان باولو ولا المديح المنهمر من العاصمة نفسها استطاع أن يمنع أشخاصاً من أمثال تيليماكو دوريا، الموظف المتقاعد في سيتي هول، والذي دار رأسه بعد أن نشر بضع قصائد بإيقاع راقص في ملحق جريدة في باهيا، من القول: إن فضيلته «ليس إلا غبياً أحمق ـ التعابير لذلك الأبله دوريا ـ وأكبر طيز حصان أنجبتها محاكم باهيا». هذا مثال على ما يمكن أن تصل إليه قلة الاحترام والحسد الحاقد. والأسوأ من ذلك أن أناساً مثل تيليماكو دوريا يجدون من يستمع إليهم ويوافقهم الرأي مما يساعد على سكب الزيت على ناره الخسيسة.

هناك مجموعة من المتكلمين في القفا ممن لديهم الاستعداد لتفتيت حياة القاضي السابقة والحالية. ولايكتفون بنكران ميزاته الجلية، التي لها دوي في جنوب البلاد، بل يهاجمون فضيلته بصفته قاضياً ويسمونه المرتشي، الفاسد تماماً. ويحكون قصة، ليست واضحة تماماً، عن قرارين مختلفين ومتناقضين تماماً اتخذهما في القضية ذاتها. أولهما برد ادعاءات شركة كبيرة لعدد من المصدّرين. والقرار الآخر يستجيب لادعاءات الأقطاب الأقوياء المتنفذين. وأنا لا أرى ما يستحق النقد حين تأتي مكتشفات جديدة وتضاف إلى الملخص الأصلي، فتغير المسألة تغييراً كبيراً، كما يبين فضيلته، مما يعكس المعطيات كلها، ولكن حسب ما يقوله رعاع بريبري إن هذه «المكتشفات الجديدة» كان بينها خمسة آلاف كونتو ـ عملة نقدية ـ ونصف مليون كروزير ـ عملة برازيلية ـ أضيفت إلى رصيد الدكتور سكويرا ولم تضف إلى الملخص الأصلي.

ويدعون أن هذا هو الأسلوب الذي جمع فيه فضيلته ثروته وليس بالوراثة عند أبويه الغنيين. أما الميراث فزوجته هي التي

ورثت ذلك كله حين تزوجها. فحتى وهي بنت لم تكن إلا كتلة من الشحم تحمل لقب زبلين.

ولم يكتفوا بتدمير ماضيه، بل عبثوا في حاضره ونبشوا مسألة دوندوكا الصغيرة المسكينة، كأنها جريمة أن يبحث رجل متميز عن استراحات لطيفة بعد جهوده الفكرية المضنية في عصريات بريبري المملة الطويلة. كانت الدونا أرنستينا تغط في نوم عميق في قيلولتها. واغتنم فضيلته الفرصة ليشبع رغباته من متعة الحب الحلوة. ولقد أسرَّ لي - بعد أن غمرني بشرف ثقته - أنه يكن شعوراً بالحماية، يكاد يكون أبوياً، نحو الفتاة. الطفلة المسكينة المخدوعة والمهجورة، على الرغم من مواصفاتها الطيبة، سيكون مصيرها المحزن أن تتحول إلى عنصر في جماعات المسفّين لولا توافر الذراع التي تسندها وتدافع عنها. وأكثر من ذلك أنه كان يعتبر تلك المخالفات للأخلاق المتشددة نوعاً من التعويض عن التزاماته الزوجية «التي هي التزامات ثقيلة يصعب حملها».

وأنا أصدق أنها «ثقيلة ويصعب حملها» حين أفكر في المئتين وخمسين رطلاً التي تحملها دونا أرنستينا، ولا أستطيع إلا أن أتمثل المشهد الذي أثارته الصفات المثيرة للشفقة لدى القاضي: تقليب تلك الكتل من الشحم، والمتحررة من المشد والحزام، في السرير... لابد أنها مهمة مرهقة لفضيلته.

لكنني كبتّ ابتسامتي، فليس من الملائم التنكيت على أمور كهذه حين تتعلق بأشخاص يستحقون الاحترام، مثل الدكتور سكويرا وزوجته البدينة، ولكن الفاضلة. أما في ما يتعلق بدوندوكا فما الذي يمكن أن يثيره فيَّ القاضي من شعور إلا الامتنان؟ فلولا زلته الكريمة لما استطعت التمتع بسهولة بمفاتن أجمل وأشهى خلاسية في باهيا، أو لبست الشحاطة الفاخرة التي تركها القاضي في بيتها أو أكلت الشوكلاتا التي جلبها لها، لكن الإنسان سافل بطبيعته؛ فها أنذا أتمدد إلى جانب دوندوكا في السرير الذي دفع ثمنه القاضي وآكل الحلوى والفاكهة التي اشتراها، وأستمع إلى الفاجرة وهي

تتحدث عن خصوصيات معينة لدى حاميها وفي الوقت ذاته أتخيل فضيلته وهو يجرب هذه الخصوصيات مع زبلين وهو يتعرق ويلهث لأداء واجبه المرهق.

ولاأستطيع، أمام ضميري، أن أنتقد أولئك الذين يقضون أوقاتهم وهم يطلقون انتقاداتهم لثقافة فضيلته ولشرفه. فإذا كنت، أنا المدين له بالكثير من الفضل والرعاية، أضحك وأسخر من نقاط ضعفه الصغيرة؛ وإذا كانت دوندوكا، محميته، تفعل ذلك فما الذي يتوقعه المرء من الآخرين؟ ولكن مع ذلك كله لا أستطيع أن أحتمل تيليماكو دوريا هذا المغرور المتعالي. أخذت له بعض فقرات من تاريخ القبطان، وهي ثمرة تقصٍّ وجهد. فأبدى هذا الشويعر النظام عدداً من الملاحظات النقدية: مملة، أسلوب مسهب، بطيئة، حدث ضعيف، وعدداً آخر من الكليشيهات! شخصيات دون حياة داخلية، وإحدى العبارات التي أعترف بأنني كنت أفخر بها وقد سبق أن ذكرتها منذ قليل: أمواج من الافتراء... أمواج تشويه السمعة، أثارت امتعاض هذا الدوريا الساخر وضحكته المستعلية لأنه عجز عن الشعور بقوة الصورة وجمالها.

ويمكنني أن أضيف بهذا الخصوص، أن هذه العبارة ذاتها قد نالت ثناء كبيراً من القاضي المحترم والمثقف، فهو معتاد على خيرة الكتّاب، قارئ لروي باربوسا والكسندر دوماس. ودوندوكا أيضاً حين قرأتُ العبارة بصوت مرتفع، وكنت أقرأها لنفسي أكثر مما أقرأها لها، صفقتْ وهتفتْ: «ما أجملها!». إن الحساسية لاتنقصها كما استطعت أن ألاحظ في السرير. وهكذا بعد أن تزودت بتأييد النخبة المثقفة، ممثلة بالقاضي، وصفقت لي الجماهير، ممثلة بشخص دوندوكا الحلوة، تنازلت إلى الاحتقار الكامل لضحكة تيليماكو دوريا الغبية، شاعر معجبيه الزنوج. ومن الآن فصاعداً وعدت نفسي أن أهجر رفقته السخيفة، وأكثر من ذلك هو عديم الذمة مدين لي بمئة وثمانين كروزيرو استدانها مني في الصيف الفائت ليشتري سمكاً، وقال: «سأردها بعد الظهر»، ولكنني مازلت أنتظر.

ويرجع مرجوعنا إلى قصة القبطان. فعندما كنت أسجل تلك الملاحظات الافتتاحية حول الحسد لم أكن في الحقيقة أفكر في القاضي أو زوجته الفاضلة أو دوندوكا أو ذلك الهاوي دوريا. لقد خطر لي القاضي كمثال، ومثل بعض الضيوف المضجرين فقدت الإحساس بالوقت. وأظن أنني خرجت عن الموضوع وأنا أناقش ذلك الحقير دوريا، وأسترخي في سرير دوندوكا بين ذراعيها المعانقتين ناسياً العهد الذي قطعته بالكشف عن تاريخ القبطان المتشابك وجعل الحقيقة تسطع عارية وطليقة حول مغامراته.

وكما قلنا سابقاً ما من أحد ينجو من الحسّاد، فكيف يمكن أن ينجو القبطان فاسكو موسكوسو دو أراغان، الذي لم يكمل الشهر في بريبري ومع ذلك صار الشخصية الأكثر أهمية فيها؟ فهو الاسم الذي يُذكر دائماً، وتفتخر به البلدة ويستشار في مختلف الشؤون. لم يكن رأيه يُحترم فقط بل صار قانوناً. «القبطان يقول...»، «اسألوا القبطان...»، «أكد لي القبطان»، هي العبارات التي كانت تطرح في كل نقاش. وحين كان هو يزيح غليونه المرشوم من فمه ويقول رأيه يكون كلامه نهائياً وغير قابل للنقاش.

دام شهر العسل للقبطان مع بريبري، دون أية غيمة في السماء الزرقاء التي لاتحد، قرابة الشهر. وكان من الممكن أن يدوم أكثر قليلاً لو لم يرجع تشيكو باشيكو، مفتش الجمارك السابق، الذي كان يعيش هناك منذ أكثر من عشر سنوات حتى صار يظن أنه يملك المكان، من المدينة التي كان يزور فيها ابنه المحامي.

لقد سبق لي أن ذكرت أي نوع من الناس هو: شديد الحساسية، مثير للمشاكل، متكلم في القفا، شكاك وحقود، حاد ومتطرف في كل شيء. أحيل على التقاعد قبل وقته نتيجة سوء النية من جهة رؤسائه، ولأنه تورط في السياسة وفي الاتجاه الخاطئ، وصار يدعي أنه ضحية أعداء أقوياء، وأنه منذ سنوات وهو منخرط في قضية ضد الدولة. حقق بعض النجاح الجزئي إذ ضمن زيادة معقولة في تقاعده. لكنه تابع الأمر آملاً في أن يكافأ بتعويض مُجْزٍ.

هذه القضية واحدة من أكثر الموضوعات خضوعاً للنقاش في بريبري، وعليها يرتكز القسم الأعظم من مكانة شيكو باشيكو، أعني على تطوراتها. وكانت عودته من سفراته المتعددة إلى باهيا، حيث كان يقيم في بيت ابنه لمتابعة تطور المحاكمة، يوماً مشهوداً بالنسبة للمتقاعدين ورجال الأعمال المعتزلين. كان شيكو باشيكو يحب أن يحكي تفاصيل المسألة كلها، وهي التي صارت الآن أمام المحكمة العليا، وكان يتقن هذا الحكي. لقد شنّ هجوماً على القضاة، وسلخ جلود الموظفين والسياسيين وتعرف على مداخل حياة القضاة ومخارجها كلها وكذلك حياة المحلفين والمستشارين وكل من، لسبب أو لآخر، له علاقة بالقضية ـ الدعوى، كان مستودعاً لاينضب من الأحداث والافتراءات والتعبيرات الساخرة المسلية.

في الحقيقة إن دعواه الممطوطة المتماطلة صارت ملكاً لسكان بريبري كلهم، فبشعور بالتضامن مع شيكو باشيكو نهض المتقاعدون ورجال الأعمال المعتزلون على أقدامهم عندما استطاع استئناف من قبل الدفاع أن يبطئ مسيرة القضية، وعندما استطاع طلب محاكمة جديدة أن يؤجل إصدار الحكم. وزوجة أوغستو راموس، التي تحب القصص، أقسمت لرنباني بومفين أن تقيم قداساً في كنيسته إذا ما كسب شيكو باشيكو هذه الدعوى. ومن المؤسف أن فضيلة الدكتور سكويرا لم يكن يعيش هناك في ذلك الحين، كم كان سيقدم من العون، ليس فقط لشيكو، بل للأهالي كلهم، بمواهبه وخبرته؟! وخُطِّط لإقامة مأدبة تذكارية للاحتفال بالنصر، ووعد شيكو باشيكو أن يسكب الشمبانيا حين يستلم التعويضات.

هذه المرة عاد بمزاج سيء، فبعد أن صار كل شيء على وشك أن يُحَل، والدعوى في جدول الأعمال، أصدرت الحكومة تشريعات جديدة فتأجل القرار إلى «أجل غير مسمى» كما حكى لمدير المحطة عندما غادر القطار.

وصل مليئاً بالحكايات والأحداث والفضائح حول القضاة والمحامين مع كمية كبيرة من الأخبار. إلا أنه كان في حاجة إلى

الاهتمام وإلى الدعم المعنوي من أصدقائه وجيرانه. ووجد نفسه وقد أنزل إلى المرتبة الثانية وهذا ما لايستطيع التسامح معه. فالمجد الجديد والداوي للقبطان كان يملأ بريبري من طرفها إلى طرفها، واسمه على كل شفة، ومآثره حديث المدينة. وكيف يمكن للأحداث الصغيرة المرتبطة بدعوى قضائية تجرجر نفسها بيد المحاكم أن تجاري قصص غرق السفن والعواصف والعشق؟ وكيف يمكن مقارنة «وقفة أمام القاضي» بهونغ كونغ أو هونولولو؟ ناهيك عن التيلسكوب ودفة السفينة والكرونومتر.

- هل تعرف ما هو الكرونومتر يا سيد شيكو باشيكو؟

- لا، ولا أريد أن أعرف.. سأحكي لكم عن قذارة القاضي بيتانغا، الذي لدى زوجته سبعة أولاد من سبعة آباء مختلفين، ملك الديوثين...

- كان عليك أن ترى مجموعة الغلايين، ستنسيك حتى قضيتك.

وهكذا... شيكو باشيكو يرمي ورقة من دعواه. وهم يكسبونها بورقة عن الخرائط والراقصات العربيات والبحارة السكارى(*). هو يتحدث عن الاستئناف الذي جُمّد وهم يردون بإحدى مغامرات القبطان.

وعصر ذلك اليوم، وفيما هو يروي عرضاً مملاً للمحاكمة إلى جمهور فقد حماسه، دب حماس جديد أنبأ باقتراب القبطان. وتطلع إليه شيكو باشيكو يقيسه بعينيه الصغيرتين الضعيفتين - سيد قصير القامة ممتلئ الجسم ذو شعر كثيف وأنف معقوف ومشية كالدحرجة - ثم بصق.

- هذا قبطان؟ لايبدو لي قادراً على قيادة كنو(**)، أشبه ما يكون بأمين مستودع.

(*) يشبه الكاتب المسألة بلعب الورق (الطرنيب مثلاً) ترمي ورقة فيكسبها (يأكلها) الخصم بورقة أقوى.

(**) زورق طويل خفيف يقاد بمغدف - المورد.

مصاعب عدم معرفة الجغرافيا
والميل المؤسف للبلف في البوكر

- «لو كنت أعرف جغرافيا فقط!».

راح شيكو باشيكو يردد العبارة بين أسنانه المطبقة متأسفاً على أيام شبابه الضائعة، فلقد كان زوّاغاً مشهوراً عن الدروس، وكل الوقت الذي ضيعه في حياته، وبدده على التفاهات، كان يمكن أن يكرس نفسه فيه، جسداً وروحاً، للدراسة المركزة للجغرافيا، ذلك العالم الذي لم يدرك أهميته إلا مؤخراً.

وسأل نفسه: «أين يمكن أن يكون ماركوس فاز دو توليدو؟»، على أمل أن يرى زميله في مديرية الجمارك، والذي لم تقع عينه عليه منذ أكثر من عشرين عاماً، يترجل من القطار في محطة بريبري ولو بمعجزة.

كان ماركوس فاز دو توليدو، الجنوبي المغرور،هذا، ساحراً في الجغرافيا، حتى ليخيل إليك أنه يحمل في رأسه خريطة للعالم: العواصم، والمدن الرئيسية والخلجان والجزر والبحيرات والأهوار والجبال والبراكين والأنهار الكبيرة والجداول الصغيرة والتيارات البحرية والمرافئ البحرية والنهرية. وأي مرفأ تريده في أوروبا أو أميركا أو آسيا أو أفريقيا أو أوقيانوسيا يكون لديه جاهزاً مع دزينة غيره على رأس لسانه. كان مدهشاً هذا الماركوس فاز دو توليدو، على الرغم من بعض الإملال فيه، ومن هوسه بعلمه؛ بحيث

إن أصحابه كانوا يهربون منه وينصرفون عن مرافقته. ما أن تعطيه أقل فرصة ممكنة حتى يبدأ بمشربه الطويل وذاكرته المذهلة يكر لك أسماء صعبة اللفظ من هامبورغ حتى شانغهاي ومن نيويورك حتى بيونس آيرس، وشيكو باشيكو الذي كان مولعاً بالكلام وغير قادر على الاستماع كان يسميه «السفينة المومس» ذلك النوع من السفن الذي لايمكن أن يمر بمرفأ مهما كان قليل الأهمية دون أن يدخله.

فات الأوان، الآن يدرك شيكو باشيكو خطأه في التقليل من قيمة ذلك المستودع المحشو بالمعرفة الجغرافية. لقد كان يرى ماركوس فاز دو توليدو مزعجاً ومملاً وكان يتوارى في الزوايا لكي يتحاشاه. الآن هو مستعد لأن يدفع أي شيء من أجل أن يعثر عليه في بريبري ومعه بحاره الوطنية وروافده ودوائر خطوط الطول والمئات من تلك المرافئ الثمينة. من كل ذلك الخليط من المرافئ لايتذكر إلا أكثرها شيوعاً وأسهلها لفظاً مما لافائدة له الآن لشخص يحاول أن يكشف محتالاً. كان واثقاً من أنهم يتعاملون مع محتال يتلاعب بطيبة عجائز بريبري وبساطتهم، بأولئك السذج المحدودي الذكاء الجاهزين لتصديق أي نصاب وأن يبتلعوا أطول الحكايات. أو لم يسبق له هو أن مرر عليهم أكبر الكذبات فتقبلوها دون أن يداخلهم بها أدنى شك؟!

أين في الدنيا كلها سوق أفضل من بريبري لكذاب يريد أن يعرض بضاعته؟! إنه يتلقى نقداً، ثمناً لذلك، كلَّ تقدير واحترام. والدليل على ذلك هو نفسه شيكو باشيكو. لقد زاد احترامهم له بعد القصص التي اخترعها حول القضاة والمحامين وبعد الحكايات المبالغ بها عن الحيل والبدائل القانونية أكثر مما كانوا يحترمونه من أجل الظلم الذي وقع ضحية له. والمشكلة الآن هي أن كذباته كانت سطحية ومحدودة وتدور حول أناس يعرفهم الجميع، موجودين على مسرح لايبعد أكثر من نصف ساعة بالقطار.

كيف له أن يجاري هذا الحكواتي السندباد(*)، الذي لايعرف حداً، وهو يقف على سطح السفينة وسط البحار القصية والمحيطات متحدياً العواصف والغرق وأسماك القرش، تتقاذفه الرياح الأربع، ومعه نساء أكثر مما يعرف ما سيفعله بهن ومعظمهن متلهبات خليعات وقحبات؟

عمص شيكو باشيكو عينيه الصغيرتين: لم يسبق له أن رأى صفاقة كهذه، وحتى روميو داس دوريس، محترف شهادة الزور في المحاكم (والدفع مقدماً) والسكير العجوز الفاسق، لم يكن ليثير هذا القدر من الشك. ليس لدى القبطان أي إحساس بالذوق (قال قبطان قالْ يا رجْلي)، يحشر نفسه في أي مكان ويبدأ الكلام حاشياً حكاياته بأسماء طنانة معقدة لموانئ ومناطق جغرافية واصطلاحات ملاحية. لقد كان يبيع حكاياته الملفقة بأغلى الأسعار. وجِحاش بريبري هؤلاء يسيل لعابهم عليها، حفنة من البلهاء. لم يبق إلا أن يبوسوا طيز القبطان (قبطان بعينْ خنزير)، الحمقى!

لكنه لم يكن من النوع الذي يعصب عينيه ليتغافل. واجبه الآن هو فضح هذا الدجال، الكشف عن هذا الأفّاق. آه، لو أنه فقط كان يعرف جغرافيا، كان سيلقي عند قدميه ببعض أسماء التيارات البحرية وبعض خطوط الطول والعرض، يخلط بين أسماء مرافئ التوقف، ويجبره، بسرعة، على النزول عن منصة البحرية ليلقيه على الشاطئ، «سأرسل في طلب بعض الكتب من باهيا!».

منذ أن رجع وهو يعلك مرارة حقد دفين، ولقد أثر الأمر على كبده، فاكتسى شحوبه الطبيعي بمسحة صفراوية. إن شكل فاسكو موسكوسو دو أراغان، وغلايينه وأدواته الملاحية وخرائطه وسفنه

(*) في النص هي منشوزين (اسم علم)، والاسم لجندي ألماني قاتل مع الروس ضد الأتراك في القرن الثاني عشر، ثم اشتهر كراوية لحكايات غريبة عن حياته كجندي وصياد ورياضي، ثم اختار رودولف إيريخ راسب اسم منشوزين كراوية لحكايات تعتمد على قصص معروفة تم طبعها في لندن 1785. المعروف هو البارون منشوزين، وصار الاسم دالاً على كل صاحب مغامرات يروي الحكايات المطولة عنها.

المؤطرة ومنظاره وتلسكوبه وقبعته ذات الأبهة، هذه الأشياء كانت تسيطر على بريبري من طرفها إلى طرفها، من المحطة إلى الشاطئ، دون أن تترك أي مجال لشخص آخر أن يكون ذا مكانة أو شهرة، أو أي مجال لأن يكون هناك بطل آخر. ولذلك فإن شيكو باشيكو، وهو ينفخ سيكارته القشّية المصنوعة من التبع المصمغ، (كيف يمكن لسيكارة قشية برائحتها القوية أن تجاري الغليون المرشوم والتبغ المعطر؟) راح يجتر ضغائنه وخططه الانتقامية.

وطوال الوقت كان يقول لنفسه إن الأمر واضح وضوح أنفك في وجهك! لا لأولئك الذين يرفضون أن ينظروا، أو أولئك الشياطين المساكين بأفواههم الفاغرة الذين إحدى أقدامهم في القبر ويتطلعون إلى الاجتماع الأخير للشمل. مثل ذلك الأحمق زكوينها كرفيلو الغارق في الإعجاب والذي صار بحاراً من الدرجة الثانية وهو يلحق بالنصاب كأنه حاجبه ليحمل له المنظار في ذلك الاحتفال الاستعراضي المخصص لتحري الخليج بحثاً عن السفن الوافدة من أعلى الجرف، والناس يجتمعون ليتفرجوا وكأن مرفأ باهيا قد صار تحت إشراف أهالي بريبري وإدارتهم. وفاسكو وهو ينزل يعلن «إنها باخرة هولندية. رسو مثالي...».

أو أن يبلغ بثقة: «سفينة شحن من بنما. ربما كانت محملة بالمهربات».

ويتبادلون نظرات متفهمة وعارفة وهم يحسون أنفسهم منخرطين في مشاريع جريئة وكل منهم يكتسب شيئاً من مسحة المهرب وخاصة زكوينها كرفيلو. وتمتم شيكو باشيكو، وقد صار أكثر اصفراراً وطعم الحسد المر في فمه ممتزج بأسنانه المنخورة، «يا لهم من حفنة مهرجين». ويتطلع إلى الوجه الباسم المتودد للقبطان (قبطان! يا للعنة!) وإلى شكل أمين المستودع الذي له أيضاً فيقتنع أكثر من ذي قبل بأن هذا الشخص إن كان قد سبق له أن ذهب إلى البحر فعلى متن سفينة شحن غير نظامية تمشي بمحاذاة الساحل، ومعرفته لاتتجاوز مرافئ إلهيوس وأراكوجو وبلمونت.

وراح ينثر شكوكه وكأن الأمر لايعني له شيئاً، لكنهم فركوا أنفه بالشهادة الموقّعة والمختومة والظاهرة لكل إنسان في إطارها المذهب وسط الصالون. صحيح، الشهادة شيء لايمكن لأحد أن ينكره، ولكن ماذا تعني أكثر من قيادة واحد من تلك المراكب الخفيفة على خط باهيا والتي عليها يقوم المسافرون في رحلتهم القصيرة من كارافيلاس إلى السلفادور بإفراغ ما في أحشائهم؟ وربما حتى ليس ذلك، من يدري... لعل القبطان (قبطان يا طيزي!) لم يذهب أبعد من نهر سان فرانسيسكو على أحد المراكب البخارية ومن جوازيرو إلى بيرابورا، ومن بيرابورا إلى جوازيرُ وطوال حياته. الحمقى وحدهم يمكن أن ينبلفوا بسحنة هذا البائع الجوال، هذا البياع بالتقسيط؛ ولكن ليس هو، ليس شيكو باشيكو المتعوّد على مماحكة المحامين المخادعين وملعّبي المحاكم والأوغاد من كل صنف ولون. أما هذه الحكايات عن المرافئ في آسيا والجزر في المحيط الهندي والنساء في سيلان والبحارة اليونانيين - فإن فاسكو إما أن يكون قد قرأها في مكان ما أو سمع عنها أو ببساطة اخترعها. مركب بخاري في نهر سان فرانسيسكو هو الحد الأقصى الذي يسمح له به شيكو باشيكو.

لقد خسر جولته الأولى أمام الشهادة. ولكن عزيمته لم تفتر، ففي النهاية هو الحديد الذي مر في كور عشر سنوات في القضاء. وفيما كان ينتظر الكتب، طلب من ابنه أن يبحث له عن التفاصيل التي يمكن أن تثير الشكوك وتكسب له الحلفاء (ولقد قرر أن يقضي بقية حياته وهو يدرس الجغرافيا إذا لزم الأمر) لكي يعثر على نقاط ضعف العدو.

أخذ بعين الاعتبار أولاً خيبة إميليو فاغوندس. فحين كان في مديرية الزراعة كان اسم إيميليو فاغوندس قد ظهر في الصحف بفضل مهارته في الشطرنج، بل إنه اشترك في التصفية في ريو وفاز بالمرتبة الرابعة ولم يكن هذا بالنصر القليل. أما الآن وبعد التقاعد فلم يكن يشكو إلا من شيء واحد في بريبري: عدم وجود لاعب

شطرنج جيد، لم يتجاوز أحد الداما والنرد والدومينو. ولقد عول كثيراً على مجيء القبطان (قبطان، خراء) ولكن بلا جدوى. فالرجل لايكاد يميز بين الرخ (القلعة) وبين الفيل، وبين الفرس والملك. فكان على إيميليو أن يتابع اللعب بالمراسلة مع آخرين في المدينة، وأن يحل المسائل الشطرنجية المنشورة في صفحات خاصة من المجلات والصحف، خيبة أمل عظيمة.

وقد تحدث سراً، ذات يوم، إلى شيكو باشيكو: «كنت قد ظننت أن جوَّاب بحار مثله لابدَّ أن يعرف كيف يلعب الشطرنج».

وللمرة الأولى في حياته يستنفر مفتش الجمارك السابق حماسه للتعامل مع تعقيدات الشطرنج. فحتى ذلك الحين كان يراه أكثر اللُّعب إملالاً وإرهاقاً، وكان يرى إميليو فاغوندس مجذوباً، ولكن في الحقيقة يُستغرب أن يكون جواب بحار عديم الاهتمام بلعبة مفيدة جداً لقتل الوقت. فمن أجل الساعات الطويلة من الإبحار الهادئ ليس هناك ما هو أفضل لقضاء الوقت. واختار أن يلقي بقفاز رقعة الشطرنج على سطح السفينة في أكثر اللحظات توتراً، حين كان القبطان (قبطان يا خصيتي) يحاول تجنب اصطدام مروع بين سفينته وجبل جليدي هائل عائم في بحر الشمال ذات ليلة ضبابية باردة. كان الضباب كثيفاً حتى لتستطيع أن تقطعه بالسكين مثل الجبنة؛ وكان الركاب المسافرون مذعورين حين ظهرت بشكل مفاجئ كتلة الجليد البيضاء خارج انحناءة الخليج، جبل عائم...

ـ هل يمكن أن تخبرني بهذا الأمر يا سيد فاسكو...؟

ـ القبطان فاسكو موسكوسو دو أراغان تحت أمرك.

كان يصر على استخدام اللقب لأنه، كما قال، لايملك أية ثروة أو جاه إلا شهادة القبطان. وبجهد كبير استطاع شيكو باشيكو أن يسيطر على نفسه وأن يمنحه اللقب: «هل هناك مانع، يا قبطان، من أن تجيبني على أمر لا أستطيع منع نفسي من التساؤل حوله؟ كيف يحدث أنك، وأنت رجل البحر، ولديك هذا الوقت كله، لاتلعب الشطرنج؟ سمعت أنها اللعبة المفضلة في السفن».

ـ لقد سمعت معلومات خاطئة يا صديقي العزيز، إن لعبة رجل البحر هي النرد والورق، لعب الحظ. لعبة بوكر متقنة مثلاً. لقد قضيت ليالي كاملة لم أنم فيها وحتى بزوغ الشمس على طاولة البوكر...».

ثم تابع، بعد أن أخذ نقطة الانطلاق من هذا الكلام، ودون أن يحيد قيد شعرة: «في ذلك الحين كانت سفينتنا بعيداً عن راسمات، وهي جزيرة تشبه بريبري. وكل ما كان معنا في قارب النجاة، قليل من بسكويت السفينة، وقليل من الماء ومجموعة من ورق اللعب. وحتى في ذلك الوقت، والخطر يحيط بنا من كل جانب، استمتعنا بلعبة بوكر جميلة. كنا خمسة، واحد يمسك قبضة الدفة، والأربعة الآخرون يلعبون، لعبنا عن حصصنا من البسكويت وجرعات الماء المخصصة لنا. كان الأمر طريفاً، يومان وليلتان...».

إن شيكو باشيكو بارع في البوكر. «بوكر؟ يا سلام، يمكن أن نرتب لعبة. منذ زمن طويل وأنا أود أن ألعب. مرّيكو مقامر مزمن».

ـ لست لاعباً مزمناً. لكنني أحب أن ألعب دورة أو دورتين...

ـ ليمنهوس أيضاً ـ هذا إذا لم نذكر أوغستو راموس.

ما أدرانا أن قصة لعب البوكر هذه ليست واحدة من ادعاءات فاسكو الاستعراضية؟! فإذا كان لايعرف المبادئ فكيف سيقامر؟ ثم كيف سيبلف؟

ـ نستطيع أن ندبر لعبة الآن.

قال فاسكو مراوغاً: «آسف، ليس الآن، يجب أن أنهي قصتي»، وعاد إلى حكايته التي قوطعت.

وأصر شيكو باشيكو: دع النهاية إلى مابعد.

وذكّره روي بسوا: كان في أكثر أجزائها إثارة.

واعترف زكوينها: لقد شعرت بقشعريرة باردة في ظهري وأنا أستمع.

وتطلع شيكو باشيكو باحتقار إلى المجموعة المحيطة بفاسكو. الحمقى! ألا يستطيعون أن يروا أنهم يُسْتَغْفَلون؟! إن بوده لو يراهن على أن هذا الدعي لايعرف حتى عدد الأوراق التي تعطى لكل لاعب ولاقيمة الكنت أو الثلاثة(*). وابتسم سلفاً من أجل ما يتوقع. وكان صوت القبطان يرن جهورياً وهو يسترسل في القصة المثيرة. كان جبل الجليد على وشك أن يصطدم بالسفينة وكان الركاب يزعقون، وفقد البحارة صوابهم عندما قام (القبطان) بانتزاع عجلة القيادة من يدي مدير الدفة...

- حالما تنتهي سأدعو أوغستو راموس... يمكننا أن نلعب عندك في البيت أليس كذلك يا مرّيكو؟

- أنا لاألعب إلا إذا كان الرهان قليلاً، لايزيد عن النيكل، فمرّيكو مضطر لأخذ الخسارة بعين الاعتبار لأنه يقدم العون لكنّةٍ مترملة مع أولادها في باهيا.

حادَ جبل الجليد قيد شعرة عن السفينة، وانطلق شيكو لجلب أوغستو راموس وورق اللعب.. يد فاسكو القوية تمسك الدفة بثبات وهو يتطلع ملياً بنشوة النصر إلى جبل الجليد وهو يبتعد ببطء تحت دفع التيارات القطبية.

لم تكن هناك أزمة ورق لعب، فكل شخص، تقريباً، يعمل فتوحاً في ساعات ما بعد الظهر الطويلة قبل التجمع لتبادل الأحاديث في الساحة. مجموعات من ورق اللعب السميك المتشحم من كثرة الإمساك والتداول.

- هيا بنا، دعنا نذهب... قال شيكو باشيكو يستحثه وقد نفد صبره.

(*) الكنت: خمس أوراق متتالية في البوكر، والثلاثة: ثلاث ورقات من النوع ذاته (ثلاث عشرات مثلاً).

وحذر ليمنهوس: «المراقبون يلتزمون الصمت والهدوء». لأن الجميع قد تحلقوا بانتظار اللعبة.

ـ سبق لي أن سمعت هذه القصة عن جبل الجليد.

ـ ألا تذكرون غرق «تايتانيك»؟ لقد اصطدمت بواحد منها. إنها جبال جليدية خطرة جداً.

تقدم فاسكو، باسماً، وأمسك بالورق. ونَوَّر وجه باشيكو عندما رأى القبطان (قبطان، ضاجعوه) يمسك بالورق المتسخ ويلقيه على الطاولة وهو يهز رأسه.

ـ ليس بهذا الورق. مستحيل.

ـ لاتدقق كثيراً يا سيدي. لابأس بهذا الورق من أجل لعبة بسيطة بمبالغ زهيدة. هيا. اجلسوا. وسحب شيكو باشيكو كرسياً.

كان زكوينها كرفيلو مايزال يرى جبل الجليد. «كنت ألقيت بنفسي في الماء لو أنني رأيت شيئاً كهذا يقترب مني».

ـ لا. لن ألعب بهذا الورق. ليست لعبة ممتعة.

ـ أم لعلك لاتعرف كيف هو لعب البوكر؟ أعلن شيكو باشيكو بانتصار.

تطلع فاسكو موسكوسو دو أراغان إليه مندهشاً. «ولم لا أعرف؟».

ـ ما أدراني؟

استدار فاسكو وابتعد مسرعاً. وهتف شيكو: هذا الزبون لم يسبق له أن جلس ليلعب البوكر في حياته. من سمع من قبل عن اللعب في قارب نجاة؟ لابد أنه يظننا حمقى وبلهاء. كذبة في ظهر الأخرى.

ـ كذبة؟

ـ كفاك يا ليمنهوس. أليس في رأسك عينان؟ يكفي أن تبين له أنك لست ابن البارحة وعندها سيسارع إلى طي قرونه. ألم تر الآن

ما حدث في مسألة لعبة البوكر؟ لعب عن بسكويت وعن جرعات ماء... جلبت له الورق واللاعبين فتملص... لمجرد أن الورق عتيق قليلاً. يا له من عذر سخيف! دعوني أر بحاراً، مهما كان تافهاً، لايعرف لعب البوكر.

نزل زكوينها عن جبل الجليد وهو مايزال يرتجف وتقدم للدفاع عن معبودة: من قال لك إنه لايعرف؟ هل قال لك ذلك؟

ـ هذا أنت. تتملق هذا المغفل.

ـ أتملق. اللعنة! أنا على الأقل لست حسوداً.

ـ ومن الحسود؟ وحسود لماذا؟

ـ هدئوا أعصابكم يا جماعة. قاطعهما مرّيكو. «ما الذي يحدث هنا؟ صديقان قديمان يتجادلان حول لاشيء».

ـ لا أسمح بإلقاء الشك على كلام رجل شريف.

ـ ما أشك فيه هو لعبه للبوكر.

وأشار روي بسوا: الحقيقة أنه قد لاذ بالفرار.

لكن فاسكو كان قد عاد ومعه ورقان وعلبة فيش. ورق أنيق وجديد ولامع وصورة عابرة محيطات على ظهره والدخان الأزرق يتصاعد من مدخنتها. هذا هو ورق اللعب بجد! وانتقل الورق من يد إلى يد.

ولم تكن هزيمة شيكو باشيكو بعد ظهر ذلك اليوم وقفاً على التفاصيل. لاعب بوكر بارع، ولكن عصبي ومتوتر، يحاول أن يبلف دائماً. لن يكون نداً لصلابة فاسكو موسكوسو دو أراغان الذي يثير البهجة حوله ويلعب عن دراية وثقة وبمصطلحات بحرية. يعرف متى يتابع ومتى ينسحب ويعرف تماماً متى يبلف ويتقن، بسرعة، قراءة وجه كل لاعب. شيكو باشيكو يستطيع أن ينكر أي شيء إلا مهارته في البوكر. إنه ضليع.

كان زكوينها كرفيلو يتابع اللعب وهو جالس على كرسي إلى

جانب بطله. لقد مر وقت طويل على اختفاء جبل الجليد، الذي ذاب في البحار الجنوبية. والآن تُثبت يد فاسكو المتزنة وعينه الصافية نفسيهما على طاولة اللعب. وبين حين وآخر يلقي زكوينها نظرة احتقار على مفتش الجمارك السابق المفتري. وعندما «ضرب»(*) فاسكو، ومعه بنتان، شيكو الذي لم يكن يراهن على أكثر من سبعتين لم يستطع زكوينها أن يضب لسانه: «يمكن للحسد أن يكون قاتلاً ياسيد شيكو باشيكو».

بالفعل يمكن. فقد أحس شيكو باشيكو بألم في كبده. وصار عليه أن يشتري فيشاً بقيمة خمس ملريسات

تلك اللعبة المشهورة بالبوكر فتحت المجال لنشوء عادة جديدة في بريبري. مساء كل خميس يجتمع جوزيه باولو العجوز وأوغستو راموس وليمنهوس إضافة إلى الفضوليين الذين لايمكن تحاشيهم في بيت فاسكو من أجل لعبة حامية الوطيس. وبدأ زكوينها كرفيلو يسبر أغوار اللعبة؛ إن من واجب البحار أن يفهم البوكر ويحبه. ورفض شيكو باشيكو أن ينضم إلى فريق اللعب. لن تطأ قدمه بيت القبطان. (قبطان بمقدار ما يمكن أن تكون الشرموطة التي ولدته).

(*) المقصود الضرب في اللعب أي رمي المراهنات.

الاحتفال بعيد القديس يوحنا بالمشروب والحلوى وسمك القرش أو الخزي للحساد

جاء حزيران بزخّاته المعهودة ففاضت الشوارع الرملية. وكُوِّمت كيزان الذرة في المطبخ من أجل الكعكة وحلوى الذرة وكعك الذرة الطازج. إنه شهر الشراهة الذي ينسى فيه الموظفون المتقاعدون ورجال الأعمال المعتزلون حِمْياتهم فيتجرعون الخمور ويلتهمون الطعام اللذيذ. سيدفعون ثمن هذه المبالغة دون شك. سيكون على بعضهم الامتناع عن الملح أو السكر عندما تزداد حالات الروماتيزم والأمراض المزمنة والسكري سوءاً. وفي كثير من البيوت أقيمت الصلوات للقديس أنطونيو لمدة ثلاثة عشر يوماً بكاملها؛ في البدء تلك التي تُرتَّل أمام المذبح المرتجل للقديس جامع الشمل، ثم الرقصات المرافقة للهارمونيكا. وفي الساحة ضربت قبة عليها راية القديس يوحنا، كما هيئت المشاعل من أجل تلك الليلة المقدسة. وفي نهاية الشهر يقوم الأرامل (ذكوراً وإناثاً) بتكريم القديس بطرس، قدّيسهم الشفيع. شهر كامل من الاحتفالات، الأطفال يطلقون المفرقعات النارية، إضافة إلى تكون علاقات حب بفضل الصلوات المقدمة للقديس أنطونيو، والفتيات ينحنين فوق أحواض الماء السحرية ليستشرفن فيها وجوه أزواج المستقبل. وكان مركز راعي عيد القديس بطرس شرفاً يسعى إليه كل سكان بريبري الذكور.

يتم إحياء عيد القديس يوحنا في كل بيت. وحتى في أفقر البيوت تُفتح زجاجة خمر وتُعد كعكة حلوى الذرة مع طعم القمح أو

المنيهوت وكسكس التبيوكه مع الطامال(*) الملفوف بقشور الذرة. لكن عيد القديس بطرس كان يقام في الساحة مع الألعاب المسلية للأطفال الفقراء من أبناء الصيادين وعمال سكة الحديد في ليست لاين وأطفال المدارس الابتدائية. وكان الأب جوستو يأتي من بلاتافورما فيلقي بموعظته في الكنيسة الصغيرة صباحاً ثم يتناول الغداء مع إحدى الشخصيات المرموقة، وبعد الظهر ينضم إلى حفلات المرح. في الليل تضاء المشاعل وتشوى الذرة والبطاطا الحلوة على الجمر ويتطاير الشرر في الجو وتتصاعد البالونات إلى السماء فيتضاعف عدد النجوم التي لاتحصى أصلاً.

وقد استنزفت مسألة رعاية العيد براعة الأب جوستو حتى النهاية. ولاشك أن جُبَّتَه تخفي تحتها سترة دبلوماسي. كان يعرف كيف يتغلب على أكثر المشاعر تمرداً ويهدئ المشاعر الغاضبة، فيشرب القهوة مع واحد ويتناول الغداء مع الثاني والشاي مع الثالث، وجرعة من الخمر مع تذوق حلوى الذرة في عشرات البيوت. ثم يعود إلى بلاتافورما وقد سوى الأمور مع مؤمني بريبري ولكن مع سوء هضم شديد.

في كل عام يكون عدد المتطلعين إلى الرعاية كبيراً. وجميعهم كانوا يشعرون أن لهم الحق في رئاسة احتفالات ما بعد الظهر التي يتبارى فيها الأولاد في سباق الأكياس وفي التقاط البيضة بالملعقة وتسلق عمود مشحم لنيل خمس ملريسات في أعلاه. صحيح أن في المسألة بعض المصاريف ولكن هذه أمور لاتذكر إذا ما قورنت بشرف الجلوس إلى جانب الأب جوستو في الساحة، والاستماع إلى خطاب مدوٍّ يلقيه أحد التلاميذ وقد كتبه أحد الأساتذة وحفظه الخطيب عن ظهر قلب تحت التهديد ومع الجهد الجهيد والتلويح بالمقرعة.

(*) الطامال: طعام مكسيكي معد من دقيق الذرة مع اللحم المفروم والفلفل الأحمر ـ المورد.

بدءاً من نيسان يبدأ الأب جوستو بتلقي التلميحات والرسائل والزيارات في بيته الكهنوتي في بلاتافورما يؤديها المرشحون وأقرباؤهم. تضاء الشموع في الكنيسة بل قد يبلغ الأمر ببعضهم أن يطلبوا إلقاء موعظة.

أكبر السكان سناً، كلهم تقريباً. سبق لهم أن كُرِّموا بتسنم مرتبة الشرف العليا السنوية في بريبري. جوزيه باولو العجوز اختير ثلاث مرات، والآن لم يعد حتى بين المعدودين بعد أن تحاشى كافة النفقات التي لاضرورة لها. أدريانو ميرا وأوغستو راموس وروي بسوا كلهم صاروا مشرفين. حتى ليمنهوس؛ الحديث العهد نسبياً بالمجيء، والذي أحيل إلى التقاعد في سن الخامسة والأربعين بسبب صحته نال هذا الشرف. وشيكو باشيكو أيضاً. قبل أربع سنوات ترأس احتفالات القديس يوحنا مع الأبهة والوقار. فلماذا، في سنة وصول القبطان هذه، لايقرر السعي للحصول على المركز المشتهى لنفسه؟ إن كان هناك من له الحق فيه فهو زكوينها كرفيلو، الذي يعيش هناك منذ خمس سنوات، والذي حتى الآن مايزال الكاهن يتجاهله. غير أن زكوينها نفسه هو الذي اقترح على قداسته اسم فاسكو موسكوسو دو أراغان. فهو يرى أن لامجال للسؤال عمن يجب أن يكون راعي عيد القديس يوحنا هذا العام. فمن أبسط قواعد العدل اختيار البحار العظيم الذي رسخ مكانة بريبري بحضوره إليها. ووافق الأب جوستو. فقد كان يسعى لإقامة أواصر الود مع السكان الجدد ويسعى لكسب ثقتهم وصداقتهم. وكان يبدو أن هذا الاختيار لن يثير أي اعتراض؛ فأكثر المواطنين أهمية، من أمثال مرّيكو العجوز، وأدريانو ميرا وإيميليو فاغوندس، كانوا موافقين. هذا إذا لم نذكر العناصر الأقل أهمية الذين كانوا يعبدون القبطان الذي لديه الاستعداد لمساعدتهم كلما وقعوا في ضائقة من خلال قروض صغيرة أو تقديم مشروب لهم. وكان يقول إن هذه الأمور من العادات المتبعة أيام البحر، للتعامل مع البحارة ومشكلاتهم وحفلاتهم الصغيرة. كان يجب أن يساعد زملاءه وأن يقدم لهم

النصح ويستمع إلى أسرارهم. وهذه المرة كان الأب جوستو يظن أن لاأحد سوف تتأذى مشاعره. ولن تثور أية غيرة من خلال اختيار موافَق عليه بهذا الإجماع.

لكنه كان على خطأ. فحين وصلت الأنباء إلى بريبري ثارت ثائرة شيكو باشيكو. فلقد سبق أن أبلغ الكاهن قبل شهر بأنه قد رشح نفسه وأرسل له ديكاً وزجاجة من خمر جوروبيبا، ماركة أسد الشمال وعسلاً صافياً. ودون سابق إنذار تلقى هذه الطعنة في الظهر وغُدِر به بشكل مخزٍ. كأنه لايكفيه التسويف في قضيته وخيبات أمله في بريبري حتى تأتي الكنيسة فتنسف ترشيحه وتقف في صف هذا الدعي الأفاق. وتملكت شيكو باشيكو نوبة مفاجئة من العداء لرجال الدين وبدأ يتعاطف بشكل حار مع الماسونية، وصار يطلق على رجال الدين بشكل عام، وعلى الأب جوستو بشكل خاص، كل شتيمة تقع على لسانه ونبش حتى أسماء عشيقاته وأبنائه غير الشرعيين.

ولو أن الخيار قد وقع على أي شخص آخر لتحمل الإهانة في صمت. وكان من الممكن له حتى أن يقبل بزكوينها كرفيلو على الرغم من أنه لم يرشح نفسه إلا ليبعد «تابع» فاسكو من الحصول على الشرف المرجو. يريد أن يمنع انتصار لاعق الأحذية. وكانت النتيجة هزيمة شنيعة له هو نفسه وأشنع هزيمة تعرض لها في حياته. وحقيقة الأمر أنه، منذ لعبة البوكر، ظل في حالة بدا معها وكأنه قد نسي قضيته المعلقة في محاكم باهيا، وكأن أكبر عدو له في العالم هو القبطان فاسكو موسكوسو دو أراغان.

منذ بعد ظهر ذلك اليوم المرتبط بجبل الجليد وبورق اللعب الجديد تخلى عن التلميحات وتوجه إلى الاتهامات المباشرة. صار يتنقل من شخص إلى آخر وهو يحلل قصص فاسكو، مبرزاً تناقضات مفترضة ولافتاً الانتباه إلى تفاصيل هي في رأيه زائفة وكاذبة.

ولايمكن القول إنه قد نجح في محاولته لتشويه سمعة خصمه أو نسفها، ولكن لاننكر أن إصراره قد نجح في زرع بذرة من الشك

في عقول الناس، أو نوع من عدم الثقة المبهم حول ما إذا كان القبطان فعلاً على هذه الدرجة من الجسارة وأن مغامراته كانت على هذه الدرجة من الخطورة، ومليئة بالأخطار وحوادث العشق. أيمكن لهذا القدر من الأمور غير العادية أن تحدث لإنسان واحد، وأن تكون حياة واحدة غنيةً بهذا القدر بينما حياتهم كلها فقيرة ورتيبة؟

ووصل الأمر بأدريانو ميرا، وهو الرياضي العجوز غير الموقر، أن يغامر بنكتة عبّرت عن قلة ذوقه، حين كان القبطان يروي إحدى أهم مآثره وأكثرها إثارة، وهي تلك الحكاية عن التسعة عشر بحاراً الذين التهمتهم أسماك القرش في البحر الأحمر، وقد نجا فاسكو بفضل العناية الإلهية واستخدامه البارع للسكين التي شق بها بطون ثلاثة قروش مفترسة، أي نعم ثلاثة.

- خففها قليلاً يا قبطان. اثنان من أسماك القرش يكفي ويزيد.

تطلع إليه فاسكو بعينيه الصافيتين كعيني الطفل: ما الذي قلته يا صديقي؟

ارتبك أدريانو، فقد كان صوت القبطان هادئاً وتطليعته رائقة. ولكن لأنه كان قبل قليل يتحدث مع شيكو باشيكو فقد بذل جهده وتابع ملاحظته البارعة: «أكثر من القرشين يا قبطان...».

- وما الذي تعرفه أنت عن القرش يا سيدي؟ هل سبق لك أن أبحرت إلى البحر الأحمر؟ ملاحظتك لا أساس لها. أؤكد لك ذلك. ليس هناك مكان في العالم يمكنك أن تجد فيه أسماك القرش بهذه الكثرة.

لايمكن أن يكون كذاباً. فهو حتى لم يلحظ السخرية والشك في النكتة ولا نبرة المزاح. ولو أنه كان نصاباً، كما يدعي شيكو باشيكو، لانزعج ورد عليه بغضب. لقد خجل أدريانو ميرا من نفسه:

- معك حق يا قبطان، يجب أن لايتكلم المرء عما لايعرف.

- لايتكلم ولايتحمل مسؤولية....

لأنه لم يكن يعرف «الجميلة»، سفينة الشحن المصرية التي تحمل شحنة من الإسمنت، عندما قبل تسلم قيادتها في تلك السفرة البطيئة والمملة من السويس إلى عدن، ولم يدرك خطأه إلا بعد فوات الأوان؛ فقد كانت السفينة في حالة يرثى لها وحتى الاتصالات الداخلية فيها كانت معطلة. وكان طاقم البحارة فيها مجموعة من الأشخاص ذوي المظهر المشبوه والوجوه التي تبعث الرعب في نفسك، ولحسن الحظ كان معه جيوفاني المخلص، البحار الذي بسببه تعالق مع ملاكي السفن الأوروبيين بعد سنوات. وحين غرقت «الجميلة» بسبب ثغرة فيها لم ينج إلا وهو وجيوفاني اللذان التقطتهما سفينة نروجية بعد مجزرة الرجال والقرش. مايزال حتى الآن يحتفظ بسكينة السعد تلك وسيريهم إياها ذات مساء حين يأتون لمشاركته الشراب.

ولم تتعدَّ حملة شيكو باشيكو العنيفة هذه الشكوك العابرة والهواجس السريعة. وصار على أدريانو ميرا أن يحمل معه عظماً إذا ما التقى به مرة ثانية.

- أنت وكلامك... الرجل كذاب. الرجل كذاب... هذا كل ما تستطيع أن تقوله. حاولت أن ألقطه وأشرشحه. لقد أراني القبطان حتى السكين التي قتل القرش بها.

- يا الله كم أنتم مغفلون.

وراح يتنازع مع هذا وذاك، ويزيد من قسوته ولذعه وفمه دافق بالكلمات البذيئة شاملاً باحتقاره ونقمته سكان بريبري كلهم، الوجهاء وزوجاتهم، كلهم مستمعون مستغرقون ببلاهة لمغامرات القبطان.

اختيار فاسكو راعياً لمهرجان القديس يوحنا، بدلاً منه هو، كان القشة التي قصمت ظهر البعير. فحتى بعد الإعلان عن الأمر حاول أن يمارس الضغط على الكاهن بتذكيره بعطاياه السابقة وملمحاً إلى احتمال عطايا إضافية عندما يكسب قضيته ضد الدولة. وبعد ذلك شن الهجوم على قداسته فنعته بالخليع الفاسق وبالمتقلب

الأهواء، الأمر الذي كان مبالغة واضحة. فكل ما كان الأب جوستو يحاول أن يفعله هو أن يسود السلام بين رعيته. وحتى أكثر الألسنة خبثاً لم تكن تستطيع أن تتكلم عن النساء في حياته، باستثناء الفتاة التي تعتني ببيته وكانت ذات جمال عذب ولطيف؛ أشبه ما تكون بصورة القديس.

لكن شيكو باشيكو الذي كان ذات يوم المواطن المرموق في بريبري، والذي كان محترماً مثل مرّيكو العجوز تقريباً، ويفتقده الجميع حين لايكون موجوداً، لم يستطع تحمل إهانة كبيرة بهذا القدر وجحوداً بهذا الحجم. لم يستطع تحمل رؤية النصّاب بوجهه الأبله، وجه أمين مستودع، جنباً إلى جنب مع الكاهن العاق (الذي لو كانت لديه ذرة من الكرامة لأعاد على الأقل الديك وزجاجة الخمر) يترأسان عيد القديس يوحنا. قرر أن يرحل. ولكن، لأنه لايريد أن يمنح الراحة لعدوه، اختلق قصة تقول إن قضيته قد استوت وصارت على وشك أن تحسم. وحتى هذا الخبر، الذي كان يمكن أن يكون في ما مضى مثيراً، لم يستطع أن يحرك الركود الذي يحيط به الآن وذلك كله بسبب واحد كذاب أشر يرتدي سترة بحار مضحكة. كانت المحطة خالية حين سافر تحت المطر الغزير فبدا مثل هارب وهو يتلفع بغضبه القاصر.

حيث دوندوكا غير صادقة بالنسبة للراوي

لابد لي من الاعتراف بأن الحملة الحاقدة المتولدة عن الحسد والحقد والتي شنها شيكو باشيكو ضد القبطان قد استطاعت أن تهز قليلاً إعجابي الذي كان مطلقاً وغير مشروط بشخصية البطل الأخاذة. فبعد الفحص، وعلى ضوء النقد القاسي لمفتش الجمارك السابق، بدتِ بعض مغامرات القبطان بالفعل مضخمة قليلاً. ولست أقول هذا لكي أؤثر على رأي أحد. فأنا أقوم بدور المؤرخ المحايد. وإذا كنت أبرز الموضوع فلأنه أدهشني إلى حد ما أن أرى موظفي الحكومة المتقاعدين ورجال الأعمال المعتزلين لايولون أية أهمية تذكر لتعليقات شيكو باشيكو وملاحظاته حتى بدوا وكأنهم يشكلون جبهة متماسكة مع القبطان.

وفي استقصاء كذلك الذي أقوم به (من أجل تقطيع الوقت وأيضاً مع فكرة ضمه إلى المحتوى التاريخي - الأدبي الذي هو تحت رعاية الأرشيف العام) والذي يهدف إلى محاولة إعادة بناء الحقيقة لابد من الكشف عن بعض التفاصيل إن لم يكن للأخذ والرد العاميين فمن أجل أن يأخذها بعين الاعتبار على الأقل ذوو النفوذ المؤهلون للحكم عليها.

ولهذا السبب استشرت فضيلة الدكتور ألبرتو سكويرا، والذي تعادل أهميته في بريبري الآن أهمية القبطان فاسكو موسكوسو دو أراغان في الماضي. والقاضي رجل واسع العلم. فليس هناك فرع من فروع المعرفة الإنسانية لايثير اهتمامه، من القانون إلى الفلسفة ومن الاقتصاد إلى المشكلات المستعصية في السلوك الجنسي. حتى

أنه يعرف شيئاً عن الطب لا بل أستطيع القول إنه يعرف الكثير، فهو نفسه الذي اعتنى بدوندوكا ببراعة ومثابرة عندما تعرضت لنوبات الرشح القاسية والمتكررة. ولقد أتيحت لي فرصة رؤيته (ففي ما بعد وكبرهان آخر على الثقة والتقدير فتح لي، بعد الظهر، باب «بيته البعيد عن البيت» والذي لم أكن أدخله إلا ليلاً وخلسة) وهو يشمر كميه ليغسل قدمي دوندوكا في طست ماء ساخن ثم يدلكهما وينشفهما بمنشفة. وفضيلته يقول إن هذا أفضل علاج للرشح والزكام. وهو علاج فعال للمريض وللطبيب المعني بالموضوع كما يبدو لي. فبحجة غسل قدمي دوندوكا ارتفعت كفا القاضي الجريئتان إلى ركبتيها وإلى المناطق المجاورة وجعلها تتسطح على الفراش وهي تضحك غبطة دون خجل وهو يغمز لي غمزة تواطؤ. وكان دائماً يهمهم بكلام حلو وكلمات عذبة «قطتي الصغيرة المدللة متوعكة...».

لقد كان مشهداً مؤثراً أن أرى هذا الرجل المقدَّر، فخر قضاء باهيا، يقرفص إلى جانب طست تنكي ليغسل قدمي الفتاة الخلاسية المسكينة وينشّفهما ويقبلهما، وهي الفتاة التي لم تكن ذكية جداً ولم تكن تملك فلساً تبارك نفسها به. إنه دليل آخر على عواطفه النبيلة أغتنم هذه الفرصة لتقديمه.

حين استشرته حول شكوكي قال لي إنه لم يفاجأ بكون جمهور القبطان سذجاً سرعي التصديق؛ لأنهم قد ووجهوا بقرائن محددة على أقواله: الشهادة المبروزة ووسام المسيح - الكبير الأهمية - والبوصلة والتلسكوب. كيف لهم أن يتشككوا أو أن يصدقوا افتراءات شيكو باشيكو الذي يقف في طليعة النمامين الذين مازالوا يجتاحون ضاحيتنا الهادئة وهم يثرثرون عن أبناء بلدهم ويطعنون في شرف جيرانهم؟

ولقد استاء فضيلته، مؤخراً، استياءً كبيراً بسبب كلمة وصلت إلى مسامعه عن نقاش دار حول شغله. ولا أعرف من الذي نقل له أصداء ذلك الحوار، كما أنني لا أريد الخوض في الأسماء،

فمجتمعنا الصغير مليء بزارعي الشقاق وناقلي الكلام. وإضافة إلى ذلك فإنني مدين بالشكر لهذا الأفّاك بالذات ولإفكه؛ لأنه نتيجة لهذه القصة زادت مكانتي عند فضيلته. وبسبب ذلك أنا مدين أيضاً حتى بدعوته لي لمرافقته إلى بيت دوندوكا كدليل أكيد على الصداقة وحتى الإلفة والعشرة، ونحن نعرف أن الرجل المتزوج لايتردد في أخذ أحد معارفه إلى بيته وتقديمه إلى زوجته ولكن ما هو غير مألوف هو أن يأخذه إلى بيت عشيقته وإلى حضرتها. أعز الأصدقاء، فقط، والذين هم مثل الأخوة، يستحقون ثقة كهذه.

وكان ذلك لأنني دافعت عنه عندما أخذ أوتونيل مندونكا، أحد لاعقي حذاء تيليماكو دوريا، يتشدق حول أن الدكتور سكويرا قد تقاعد بعد أن رفض طلبه لمنصب القاضي في محكمة الاستئناف للمرة الثالثة. وأن رئيس الحكومة قال في آخر مرة شغر فيها هذا المنصب إنه لو كان عليه أن يختار بين جرذ بواليع وبين فضيلته لقام بتعيين الجرذ ـ فالجرذ سرقته أقل ورائحته أقل. تصور!

بغضب دافعت دفاعاً عنيفاً عن شرف سيدي المنتهك. لقد كانت لدي حسابات قديمة مع هذا الأوتونيل مندونكا. وكنت أنتظر الفرصة لتسويتها. كان مايزال شاباً وكان قد احتال علي حيلة قذرة عندما كنت وإياه نحاول الفوز بعاهرة ظهرت في بريبري أيام العيد من حيث لايعلم إلا الله. وكانت ذكرى ذلك (المانو(*)) المتبرج تملأني بالغضب والبلاغة معاً. سكبت احتقاري مع بعض النعوت القاسية على رأس ذلك الأبله وكسبت موافقة المستمعين وتراجع أوتونيل نفسه، وقد خاف من نجاحي، وقال إنه معجب بالقاضي وإنه لايفعل أكثر من ترديد القصص التي تقال في باهيا... كما ترون ليس مفترياً وحسب بل هو جبان أيضاً.

ولكن نعود إلى حديث القبطان ـ وهو السبب الوحيد لهذه الاستطرادات مع ذاكرتي ـ طرحت الموضوع أمام تيليماكو دوريا، الشاعر المجدد. وكانت علاقتنا قد تحسنت بعد أن مرت بمرحلة

(*) بطل رواية مانوليسكو لأبي بريفوست الفرنسي.

توتر. صار يبحث عني مصحوباً بالابتسامات والدماثة ليحييني مجاملاً على أنشودة كتبتها - من أبيات سداسية التفعيلات بطول مناسب والحمد لله - ونشرتها في مجلة صغيرة صاحبها صديق لي وهو شاب موهوب ومقدام. هناك من يسمونه المنهوك ويتهمونه بالحصول على المال من المستعمرة الأسبانية للأشغال الشاقة ومن نشر المقالات اللاذعة ضد رجال الأعمال الذين يرفضون نشر إعلاناتهم في صحيفته. وأعتقد أن هذا مجرد كيدٍ وافتراء أفضّل أن لاأعيره اهتماماً. فتيليماكو أحب الأنشودة فعلاً وكان مسرفاً في إطرائه. قارنني ببيتون دوفيلار وأرتور دوسال. ولقد تأثرت بتقديره العفوي لمواهبي الشعرية، حتى أنني عانقته. ليس سيئاً هذا الشخص. مجرد صاخب قليلاً ولسانه لاذع أحياناً. ولكن أليس من الممكن أن تكونِ هذه القسوة ناجمة عن متاعبه المالية؟ إنه يتلقى مخصصاً ضئيلاً لايكاد يكفيه للعيش، ولامجال للشك في أن لديه موهبة. ولولا أنه أخذ كثيراً بالمستقبلية لكتب شعراً جيداً.

شرحت له اهتمامي بالموقف الذي أخذه أهالي بريبري في الجولة الأولى من النزاع بين القبطان وشيكو باشيكو.

لم يتفق تيليماكو مع رأي فضيلته - «ما الذي يفهمه هذا الحيوان عن السلوك البشري؟» - وحسب رأيه لم تكن القرائن المادية والمحددة - الشهادة والخرائط والكرونومتر- هي السبب الجوهري لتأييد القبطان. ليس الأمر بسيطاً وسهلاً. الناس لايقيمون اعتباراً للدلائل المادية. إن سبب انحيازهم للقبطان، وتصديقهم لشيكو باشيكو ولسانه السليط، هو الحاجة التي يحسونها جميعهم، أولئك المتقاعدون المتواضعون الخانعون، إلى نصيبهم من المغامرة وإلى جرعتهم من البطولة. مهما كان الإنسان في الحضيض ومهما كانت حياته تافهة، ففي أعماقه ومضة، وأحياناً مجرد شرارة، لكنها قابلة للتحول إلى لهيب إذا جاءت الفرصة المؤاتية. وهذا ما يجعل من الضروري الهرب من العادية، من رتابة الأيام الكئيبة التافهة والمتشابهة، ولو على كلمات حكايات مسموعة أو كتاب مقروء. في مغامرات القبطان وفي حياته الجسورة المليئة بالأخطار كانوا

يواجهون الأخطار التي لم يعرفوها من قبل، والمشاجرات والمعارك التي لم يشاركوا فيها من قبل، وأحداث العشق البهية والفاسقة التي، ويا للأسف، لم يستمتعوا بها من قبل.

ما الذي يستطيع شيكو باشيكو أن يقدمه لهم؟ تفاهات قضية ضد الدولة؟ هذه قليلة الشأن. لو كانت قضية جنائية أو فيها زوجة زانية، وعشيق وغد وطلقات وطعنات ومحلفون قساة ونائب عام ومحامي دفاع وغيرة وكراهية وحب لكانت أمامه فرصة. أما هذه الدعوى حول التعويض فلا شيء إذا ما قورنت بما يحتاجون إليه وبافتقادهم لحياة أعمق وذات معنى أكبر. القبطان هو المانح السخي للعظمة الإنسانية. وهذا هو سر نجاحه.

ولابد لي من الاعتراف بأن هذا كله قد بدا لي معقداً ومتشابكاً وفيه شيء من التبجح. تيليماكو دوريا هكذا. ولكنه في أعماقه ليس سيئاً. قدم لي تحيات مجاملة أخرى واقترض مني مئتي كروزيرو على أن يعيدها بعد يومين ثم ذهب.

وأخيراً طرحت السؤال على دوندوكا وأنا معها في الفراش الدافئ الذي كنت أحل فيه ليلاً محل فضيلته. صحيح أنني لا أملك براعاته الثقافية اللطيفة لكن لدي ميزات جسدية محددة، ضحكت الفاجرة ضحكتها المتملقة وقالت: «صحيح أن القبطان كبير في السن لكن له جاذبيته. أحب صوته وعينيه الجميلتين وشعره. كم سيكون جميلاً لو أنني أستلقي وأستمع إلى مغامراته. ليست هناك امرأة لاتحب رجلاً كهذا».

ـ الاستماع إليه فقط... أم...؟

ضحكت دوندوكا ضحكة قائلة: «من يدري؟ ربما...».

الداعرة! كأنه لايكفي القاضي. شدتني من شعري ووضعت فمها على فمي وهي تقول: «احك لي حكاية من حكاياته، حكاية فيها امرأة وبحر من كل طرف. هيا يا حلو...».

أقسم أنها كانت تفكر في القبطان... القحبة!!

كيف أطلقت احتفالات الثاني من تموز العاصفة أو عودة اليائس لإتّهام الشباب

وبغتة، في واحد من تلك الأيام الشتوية الجميلة، بسمائه الصافية الخالية من الغيوم وبحره الساكن وحيث الطبيعة على وئام مع الإنسان، انفجرت العاصفة. لم يكن قد مر الكثير على احتفالات الثاني من تموز، وكانت قد تمت هذا العام ببهاء خاص في بريبري. في السابق كان الاحتفال بعطلة باهيا الوطنية يتم بتجميع في المدرسة الابتدائية وخطاب من المعلم وترانيم ينشدها الأطفال بأصوات حادة ناشزة. وباستثناء ذلك كان يوماً باهتاً يستذكر فيه كل شخص أعياداً أخرى سابقة للثاني من تموز في المدينة واستعراضات المجموعات التي ترتدي ملابس الهنود، والاحتفالات في ساحة سي وفي كامبو غراند، والألعاب النارية.

لكن في هذا العام تسلم مسؤولية الاحتفال القبطان الذي صار السلطة التي لاتُنازع في الشؤون المدنية. لقد ثوَّر عيد القديس يوحنا بتعليق قطعة جديدة من فئة العشرين ميلريز - لايصدق! - في رأس السارية المشحَّمة، مضاعفاً عدد مسابقات الأطفال مع جوائز للفائزين، إضافة إلى تمويل مأدبة للفقراء في بيت أزمير الدينا؛ وهي خياطة غريبة الأطوار تحب الغناء والرقص وعقد الزيجات وحلها؛ نوع من المرأة المغوية للعمال والصيادين ولها سجل طويل حافل بالمعارك والاستعراضات بالسكاكين والتهديدات بالموت. تدفق مشروب الروم بسخاء، وظل عزف الهارمونيكا والغيتار إلى ساعة متأخرة من الليل، وكان الصخب يصم الأسماع عندما ظهر

القبطان في الساعة الحادية عشرة وهو يرتدي بزته الرسمية مصحوباً بزكوينها كرفيلو (الذي صار الآن يدخن الغليون أيضاً) ليرى كيف يسير الاحتفال.

لقد جاءه الثاني من تموز وهو بلباسه الرسمي منذ الصباح الباكر؛ وروحه، أيضاً؛ مشبعة بالأريج الوطني. كيف عرف أن كاكوبودر كان أيام شبابه جندياً من الطراز الأول؟ لا أحد يعرف. ربما من خلال عادته في التحدث مع الجميع بلا استثناء والاستماع بصبر لأسرارهم وذكرياتهم ومناقشة مشكلاتهم. كانت النتيجة أن استيقظ أهالي بريبري في فجر الثاني من تموز على صوت البوق العسكري. كان ذلك كاكوبودر في الساحة يعزف بوق الاستيقاظ بكل الحماس الذي يمتلكه امرؤ يستعيد سنوات شبابه الضائعة؛ فيما كان القبطان يرفع علمي البرازيل وباهيا على العمود المشحم الذي حول إلى سارية علم. ربما مرت بعض النغمات الناشزة لأن ذاكرة كاكوبودر الموسيقية قد صدئت قليلاً، ولكن من يهتم بتفاصيل تافهة كهذه؟ نهض الموظفون ورجال الأعمال المعتزلون من أسرتهم نصف نائمين. ما هذا بحق الشيطان؟ ما الذي يجري؟ أعطوا آذانهم. كان البوق يمزق صمت الصباح. وتذكروا شمس الثاني من تموز التي، كما يؤكد النشيد المعروف، «هي في ذلك اليوم برازيلية وتشع أكثر مما كانت من قبل».

وتساءل السكان الخائفون: هل يمكن أن يكون للأمر علاقة بالقوات المسلحة؟ ربما هي ثورة، فالصحف كانت مليئة بالشائعات. هذا هو الأمر. ثورة بلا شك. فبعد قليل هز القصف بريبري من جذورها. صواريخ تنفجر في الجو، صليات قذائف بإشراف القبطان الذي كان يعطي أوامره لميزاييل، حمال المحطة، «واحد وعشرون، يكفي!».

ظهرت الوجوه المثقلة بالنوم على النوافذ، ونزل الأولاد يركضون إلى الساحة، التي تجمع فيها الصيادون وعمال ليست لاين. كان القبطان يلقي عليهم خطاباً لأول مرة في ذلك اليوم

المشهود. وخلال فترة وجيزة كان جوزيه باولو العجوز وأدريانو وإيميليو فاغوندس وروي بسوا وغيرهم قد وصلوا وهم بالبيجامات. وكان زكوينها كرفيلو الواقف باستعداد قرب السارية يرتدي وشاحاً يظهر الألوان الوطنية لطية صدر قميصه.

في الساعة العاشرة حدث الاحتفال المعهود في المدرسة ولكن بضخامة أكبر من قصدة كاسترو ألفيس الخطابية: «ترنيمة للثاني من تموز» مع خطاب آخر من القبطان، كلام فصيح مع استعارات عظيمة، برفقة لاباتو وماريا كويتيرا وبريكوتيا وجاء القبطان فاسكو موسكوسو دو أراغان من ميادين كابريتو وبيراجا ومن معارك ايتاباريكا وكاشوميرا ليدخلوا إلى مدينة سلفادور من طريق لابينها وسولداد وانحنوا متأثرين فوق جثمان جوانا أنجيليكا الواقعة على باب الدير من أجل اللواتي سقطن في لابا، وطردوا المستعمرين البرتغاليين إلى الأبد. تعاظم القبطان، وهو يشع بالنقمة على الظالمين اللوزيتانيين، ويحي ذكرى أبناء باهيا الشجعان محرري أرض الآباء. ففي الثاني من تموز تحقق الاستقلال فعلاً، وحققت دماء أبناء باهيا دعوة ابيرانغا إلى حمل السلاح(*).

وبعد الأناشيد قاد الحمالين والمعلمين والتلاميذ وزكوينها كرفيلو وبقية الأهالي في مسيرة إلى الساحة عبر الشارع الرئيسي وصوته الجهوري يصدر الأوامر العسكرية: «إلى الأمام... سر!»، «إلى اليمين سر!»، «استعداد، قف!»، وكانت أزرار سترته تتلامع تحت الشمس، والغبار الفضي الناجم عن زخة خفيفة يرافق المشتركين في المسيرة.

(*) أعلن استقلال البرازيل في 7 أيلول 1822 ، ولكن القوات البرتغالية في باهيا رفضت الاعتراف به، فأرسل الإمبراطور دون بدرو قوات برازيلية إلى المدينة بقيادة الجنرال الفرنسي لاباتو. وصلت القوات في تشرين الأول وشكلت كتائب المتطوعين البرازيليين الشهيرة - وكانت البطلة الوطنية ماريا كويتيرا بينهم - في 8 تشرين الثاني هزم البرتغاليون في بيراجا وكامبريتو، ثم دخلت القوات البرازيلية المدينة في 2 تموز 1823 .

في الساحة، الأطفال وزكوينها والحمالان (كاكوبودر كان الآن يقف وقفة غير ثابتة لأنه بدأ الشراب قبل الضوء) وقفوا وأدوا التحية وأقسم الجميع يمين الولاء للعلم. في نهاية فصل العصر ألقى القبطان بضع كلمات أخرى على الذين تجمعوا لمشاهدة إنزال العلم. وقد تشوه هذا الاحتفال الأخير إلى حد ما بحدث مؤسف: ففي ذلك الحين كان كاكوبودر عملياً في حالة غيبوبة ولم يعد قادراً على نفخ نغمة واحدة في البوق. وحل محله تلميذ مع ترومبيت ولكن الأمر اختلف. غير أن هذا لم يخفف من بهاء الحفل فقد عوضت عنه الألعاب النارية والأسهم الملتهبة والشموع الرومانية، وظل ميزاييل صاحياً إلى حد ما.

«نعم، يا سيدي، نعم» علق مرّيكو العجوز بعد انتهاء الحفل: «القبطان جاء إلى هنا ليعيش ولذا فإننا نستطيع إقامة احتفال لائق في الثاني من تموز... يا له من إنسان!!».

تعززت سمعة القبطان فعلاً، وبرزت، إذا صح القول، مثل تمثال قائم على قاعدة من الحب والإعجاب من قبل أبناء بلدة بريبري، محددة وملهمة. لم يسبق لشخص قبله أن لاقى هذا التقدير وصار محط الإعجاب والاحترام. واستطاعت أخبار الاحتفال بهذا الثاني من تموز أن تحمل شهرته إلى الحدود الخارجية البعيدة لضواحي خط ليست برازيليرا. ولم يعد يحدث أي تفصيل في تلك الضواحي كلها دون استشارة القبطان.

ثم، بغتة، وبعد بهاء الثاني من تموز كله، وفي يوم صحو مهيأ للمتعة الهادئة، انفجرت العاصفة. وصل شيكو باشيكو إلى المحطة صاخباً وسعيداً ومستعجلاً:

«لقد كسب قضيته» ظن روي بسوا عندما رآه فرحاً.

لم يكد يضع قدمه على رصيف المحطة حتى بدأ بالتبجح أمام روي، ومدير المحطة، والموظفين وعمال صيانة الخط الحديدي وكاكوبودر وميزاييل:

«ألم أقل لكم؟ ألم أحذركم؟ حذرت كل واحد منكم. لا أحد في الدنيا يستطيع أن يسحب الصوف على عيني... دجال. هذه حقيقته. لم يسبق له أن داس سفينة أبداً».

وراح يتنقل من بيت إلى بيت طالباً كل إنسان، كلاً بدوره، حتى زكوينها كرفيلو تلقى منه زيارة، ولأنه منتصر وعلى حق فقد استطاع أن يكون سخياً. كان يحمل دفتراً أسود صغيراً في جيبه، يرجع إليه بين حين وآخر. وراح يعيد قصته الساخرة ممزوجة بالقهقهات والإهانات للقبطان: «النصاب ابن الشرموطة...».

كان هناك من صدق كل كلمة قالها وبدأوا ينظرون إلى القبطان باحتقار ويضحكون حين يمر بهم. وآخرون اعتبروا أن الطرفين يبالغان؛ ليس فاسكو ذلك البطل الذي صنعه لنفسه، وليست حكاية شيكو باشيكو صحيحة كما يدعي، ولكن ظلت هناك اقلية هي المجموعة الثالثة التي لم تصدق كلمة واحدة في حكاية مفتش الجمارك السابق وظلت دون قيد أو شرط في صف ابن البحر الذي لايرقى إليه الشك. أدريانو ميرا كان من الفئة الأولى، وزكوينها كرفيلو من الفئة الأخيرة، وفي مكان ما بينهما جوزيه باولو العجوز يحاول التوفيق بينهما.

كان التوفيق صعباً، بل ربما كان مستحيلاً، فاختلاف الرأي العنيف وصل حداً من القسوة لم تعرفه بريبري من قبل. استثير الناس ورفضوا التزحزح عن مواقفهم قيد شعرة. ولم يعد هناك كلام بين الأصدقاء القدامى. ووصل الأمر بين شيكو باشيكو وزكوينها كرفيلو إلى حدود الضرب. انقسمت الضاحية، وسلامها السابق، الذي احتفي به حتى في صحف العاصمة، صار في خبر كان. وراحت الانفعالات، كالدوامات، تجوب أنحاء بريبري.

وظل شيكو باشيكو، ودفتره في يده، يجول وهو يعيد سرد اكتشافاته، أو قصته المروعة. إنها قصة تعود إلى بداية القرن، إلى الأيام التي كان فيها جوزيه مارسيلينو حاكماً لباهيا.

الحدث الثاني

إعادة صياغة كاملة وأمينة لحكاية شيكو باشيكو وتقديم صورة موثوقة عن عادات مدينة سلفادور دا باهيا وحياتها في بداية القرن، مع الأعضاء البارزين في الحكومة، ورجال الأعمال الأغنياء، والآنسات المتغطرسات، والمومسات ذوات القلوب الذهبية.

مزينة بالمجوهرات، الخواتم في أصابعها، والعقود حول عنقها، وقوس اللآلئ على رأسها، والحلق في أذنيها، وذيل فستانها الليلي ينسحب وراءها، وصدرها المترع يبرز من صداريتها، وشفتاها منفرجتان عن ابتسامة... تقدمت كارول مسرعة حين رأتهم في أعلى الدرج: «وأخيراً... ظننت أنكم لن تأتوا الليلة».

حملت سنواتها الست والخمسين المقضية بإتقان، واللحم الذي خسرت عليه معركتها بعظمة. تراخى اللحم مع تقدم العمر، والمدخرات استثمرت بحكمة في أسهم وملكيات عقارية. عمر زاه، مزيج من العمل والأحزان، أربعون سنة في المباغي، في البدء نزيلة، ثم مديرة ماخور فيما بعد، منذ ذلك اليوم البعيد الذي هربت فيه مع بائع جوال كان يمر في غارانهونس وأخذها بثرثرته وأساليبه المدنية، واعداً إياها بالعالم مسيجاً لها. بعد أسبوع تركها منبوذة في ريسيف، فتاة في السادسة عشرة من عمرها، دون أي مال، ودون أن تعرف أحداً، وساذجة تماماً. راحت تنتقل من جسر إلى جسر وهي تتطلع إلى مياه النهر وكأنها تبحث فيها عن مخرج.

في العصريات الهادئة، وهي متمددة على كرسيها الهزاز الذي كان أشبه بالعرش في غرفة الطعام، وصندوق مجوهراتها على فخذيها الريانين، تسترجع كارول ذكرى تلك الليلة المشؤومة: كارولينا الصغيرة، مغتصبة ومهجورة، ورم في حلقها وارتجاف في ركبتيها، ضائعة بين شوارع المدينة ورعبها ومياه كابيباريب تغويها. كانت تترك الخواتم المفصّصة بالجواهر وعقود اللؤلؤ

الأصيل والدبابيس والقلائد والأساور والزمرد والياقوت تنزلق من بين أصابعها وهي تتذكر تلك الليلة التي كان يحتلها فيها تعب العالم وخوفه كله. فيما بعد صارت كارول. وصارت قادرة على الابتسام لذكرى تلك الساعات الانتحارية والبائع الجوال. كان يبدو لها مثل أمير في الحكايات الخرافية حين يظهر في غارانهونس بعلبه التي تحتوي على العينات وحديثه الجميل في الوقت الذي لم يكن فيه إلا شيطاناً فقيراً دون مال أو فتنة. الأمراء هم أولئك الرجال الذين يصعدون الدرج الآن في بنسيون مونت كارلو في بارشا دو تياترو أبها وأغلى بيت للتسلية في مدينة باهيا، الملكية الوحيدة والخاصة بكارولينا دو سيلفا ميديروس، المشهورة بالسم كارول ذات اللسان الذهبي.

الرجال الخمسة، وكلهم يرتدون الملابس البيضاء وقبعات قش رائعة وجزمات وشوارب معقوفة يحملون العصي الأنيقة، هائجون مائجون يحيطون بها في مظاهرة من المعانقات والقبل والمداعبات والممازحات والكياسات.

«تحية لملكتنا وسيدتنا» قال رجل طويل القامة في الأربعين محتفظاً بشبابه، ذو بشرة سمراء وشعر قصير وهو ينحني على يدها.

«ساعة مباركة يا كولونيل، تفضل، البيت بيتك».

وانحنى أمامها سيد جذاب قوي، شديد الشقرة ذو عينين زرقاوين ساخرتين، انحناءة كبيرة: «هاأنذا عند قدميك يا سيدة قلبي».

- لاتكذب يا قبطان، أنا أعرف من هي سيدة قلبك.

- «أكثر جمالاً مما سبق»، قال شخص ثالث وهو يقبل يدها المغطاة بالخواتم والبارعة في المداعبات.

على أية حال، إنها هي التي تعلمت أن تحييه ثم تعانقه: «أهلاً بك يا دكتور جيرونيمو، أنا خادمتك المتواضعة المطيعة».

ثم التفتت إلى شاب خداه مثل خدي البنات، وهو ولد جميل صامت: «الملازم ينتظر بفارغ الصبر».

وفي النهاية عانقت بصداقة حقيقية آخر شخص في المجموعة بأنفه المعقوف وجدائله الرومانسية وحزن خاص في عينيه المعبرتين: «سيد أراغان... أراغانزينهو، أي مشهد لعينين متقرحتين!».

صارت عينا أراغانزينهو أكثر حزناً، على الرغم من الحنان الأكيد في صوت كارول وتحيتها الحارة. لاحظت ذلك ولأنها تعرف السبب همست في أذن الشاب: «تابع! وستكسب. أنا أعرف ماذا أقول». ثم رفعت صوتها: «إنني أسمع الأسرار والتنهدات».

وقال الكولونيل ضاحكاً: «ما من أحد يستطيع أن يفعل شيئاً بوجود أراغان صاحبنا، لا الكتافيات تنفع ولا الألقاب».

وله أيضاً وَجَّه النادل الحديث بصوت منغم وحركات أنثوية: «احتفظت لك بزاوية المائدة يا سيد أراغان. مكانك المعهود».

مشوا نحو المائدة ورافقتهم كارول كدليل على الاحتفاء البالغ. وتحركت النسوة على الموائد الأخرى، مستعدات للتخلي عن زبائنهن المصادفين الآن عند أول إشارة من المدام أو أحد القادمين الجدد. وألقى الملازم بذراعيه حول شقراء صغيرة كانت وحدها تختبئ وراء الأوركسترا.

وأجال أراغان بعينيه في أنحاء القاعة حتى التقت نظرته بنظرة دوروثي، هي ذي هناك. كفاها بين كفي روبرتو الذي يشدها نحو صدره البدين في ضمة كانت زائدة عن الحد حتى بالنسبة للآخرين المتواجدين حوله. وكانت فنطيسته الخنزيرية تتمرغ في مؤخرة عنقها. واستقرت عينا دوروثي القلقتان وشبه المستنجدتين على عيني أراغان فارتعشت بسمة ضعيفة على شفتيها. وهبت حرارة الربيع في صدر أراغان. هذا الدكتور روبرتو فيغاليما، الدعي، الأحمق، المتبطل ابن والده الغني، لايستحق جمال دوروثي الرقيق

الحزين، وهاتين العينين الخائفتين وهذه الحاجة للحب التي تضطرم في خديها كالحمى.

مظاهر التقدير كلها التي قدمتها كارول لم تكن مصادفة ولامجانية. فهؤلاء السادة الخمسة الجالسون على المائدة يطلبون الشراب هم الذين يشرفون محلها ويحمونه. إنهم صفوة باهيا، والشبان الدلّوعون المطلوبون والمرغوبون بين مرتادي المقاهي وطاولات القمار والمباغي وبيوت المواعيد الغرامية. وكانوا يشكلون مركز دائرة كبيرة مبذرة مؤلفة من أفضل أهالي المدينة. ولكن هؤلاء الخمسة كانوا معاً دائماً. يلتقون كل يوم قبيل المساء للعب البلياردو وشرب البيرة أو في جلسات البوكر التي كانت تستمر إلى ساعة متأخرة من الليل، أو لتناول العشاء في الكباريهات.

«هؤلاء الخمسة يملكون الولاية» كما كان الناس يقولون عندما يرونهم يدخلون مبنى المجلس التشريعي أو مكتباً حكومياً أو باراً أو بنسيون مونت كارلو. ولم يكن هذا الكلام بعيداً عن الحقيقة.

همست كارول شيئاً ما في أذن العقيد ثم أشارت إلى سمراء طويلة أخاذة.

- وصلت اليوم من ريسيف... من غير هذا العالم.

وسألها ذو العينين الزرقاوين وكان يبدو أشبه بالأميركيين الشماليين: «إنك لاتهتمين إلا بالجيش، فماذا بشأن البحرية؟».

- عندي شيء خاص لك يا قبطان. طلبك تماماً، مقمَّرة.

وانطلقت من المائدة قهقهة، وجاءت المرأة ذات البشرة الداكنة، امرأة فاتنة. وعزفت الأوركسترا التانغو الأرجنتيني، ونهض روبرتو ليرقص مع دوروثي، قضى عشر سنوات في الجامعة دون أن يتعلم الطب (وتذهب الأقاويل إلى أنه نال شهادته في النهاية بحكم الأقدمية) ولكن بالتأكيد تعلم الفالس والتانغو والماكسيكسي. وكان راقصاً من الطراز الأول على الرغم من بدانته. يرتدي ملابس جميلة وهو يقول دوروثي في رقصة التانغو. ووجدت دوروثي

الفرصة لتلهب صدر أراغان بنظراتها الطويلة وابتساماتها الخائفة. جلب النادل المشروبات ودارت النسوة حول المائدة على أمل أن يتلقين الدعوة. وجلست مدكو السمراء الصغيرة في حضن القبطان الأشقر وراحت تدغدغه تحت الذقن. كانت كارول في عزها، فخورة بنزلها وفرقتها الموسيقية وفتياتها اللواتي انتقتهن بنفسها وخدمها المحترمين ووفرة المشروب لديها وأسعارها الباهظة وزبائنها من الطبقة الأعلى... وخاصة هؤلاء الخمسة.

العقيد بدرو دو ألنكار، من ريو، أرمل بلا أولاد، تحت إمرته كتيبة رماة البنادق التاسعة عشرة والمتمركزة في المدينة، والقبطان جورج دياس نادرو مدير المرفأ، كان أبوه فرنسياً وأمه من ميناس جيوسي، مهووس بالبوكر وبالنساء الزنجيات الجميلات والمغامرات المسلية. يقضي وقته في التنكيت على أصدقائه، ولكنه كان من أكثر الرفقاء إخلاصاً عندما تطرح فيش اللعب. وهو الذي صمّم وأطّر وعلَق يافطة بنسيون مونت كارلو التي جاء فيها: «كباريه ومأوى البوهيميين». والدكتور جيرونيمو دو بافيا البالغ من العمر ثلاثين عاماً محامٍ بلا زبائن وصحافي مغمور في ريو، جُلب إلى باهيا من قبل المحافظ، الذي كان أحد أقربائه، لكي يكتب له خطاباته. كان رئيس المجلس الاستشاري ويتمتع بامتيازات كبيرة، وكان يخطط للدخول في مجال السياسة ويصل إلى المجلس التشريعي الفيدرالي في الانتخابات القادمة، والملازم ليديو مارينهو معاون المحافظ وابن الكولونيل أمريكو مارينهو، الإقطاعي في مرتفعات سان فرانسيسكو وعضو مجلس شيوخ الولاية، وهو العريس الذي تحلم به كافة بنات المدينة اللواتي صرن في سن الزواج. كن يراقبنه من وراء ستائر النوافذ، ويتنهدن إذا مر ببذلته الرسمية الأنيقة. وكن يحلمن بالرقص معه في الحفلات الراقصة والمناسبات الطارئة. مشاكس ورومانتيكي. كما أن ليديو كان معبود نساء بيوت الترفيه التي تقوم فيها مغامراته.

وأخيراً السيد فاسكو موسكوسو دو أراغان، أو أراغانزينهو،

مدير شركة موسكوسو أند كومباني ليمتد، أحد أثرى أثرياء المدينة، تاجر جملة للحوم البقر المقددة، وسمك القد، والخمور والزبدة والجبنة البرتغالية والبطاطا والمنتجات المشابهة في كافة المناطق المحيطة بباهيا والجنوب والمناطق النائية حتى سيرغيب وألاغوس، فيمون جيشاً من الباعة الجوالين. وكان فاسكو موسكوسو دو أراغان يعتبر أكبر الأثرياء في أجواء تجارة باهيا، وشركته هي الأمتن والأكثر رسوخاً.

أهدرت الخمرة بسخاء على المائدة. فهؤلاء الزبائن لايهتمون بالنفقات. لم يكن ينقصهم المركز أو المال. وكارول، أيضاً، حين تكون معهم يتملكها إحساس بالسطوة وكأنها تنتمي إلى الدوائر الحكومية وعالم التجارة، تتصرف كما تشاء في مركز الولاية وفي البنوك، ولها أيضاً ضلع في السياسة. أو ليس الدكتور جيرونيمو، على الرغم من شبابه، المنجذب إلى نساء مثلها ناضجات وخبيرات ولاحمات، من المترددين على سريرها الحصيف؟ وحين كان جورج يغيظه، كان رئيس المجلس الاستشاري يجيبه: «أنا لست كلباً لكي أقرض العظام، لا أحب الفاكهة الفجة، كارول لها مفاتنها السرية...».

مفاتنها السرية! الحكمة المستقاة من خبرتها الواسعة، وامتيازها. أو لم تحصل قبل فترة على تعيين في مكتب الطباعة الحكومية لأحد أبناء إخوتها، ابن أختها الصغرى في غارانهونس والتي لايفعل زوجها شيئاً إلا توجيه الإهانات لابنة حميه الساقطة؟ كلمة واحدة في أذن جيرونيمو في ليلة محمومة وتم الأمر. لديها جنود رفعوا إلى عرفاء، ولها من تحميهم، أبناء الفقراء وأبناؤها بالمعمودية دبرتهم في أكاديمية التدريب البحري. وتستطيع الاعتماد على شيكات أراغانزينهو كلما احتاجت أن تقترض مالاً من البنك لاستثمارها في أي مجال آخر. ومن أجل حفلات الرقص في المجلس الاستشاري حيث تجتمع صفوة مجتمع باهيا كانت كارول هي التي تعد قائمة الطعام وتقدم الشراب. ويتم استئجار خدم

بنسيون مونت كارلو لخدمة الضيوف من السادة النجباء والسيدات الفاضلات. في السر كانت تلقي بالأوامر وتلغيها؛ وحتى كبار السياسيين كانوا يلجؤون إليها طلباً للدعم. كارولينا الصغيرة ذاتها التي جاءت من غارانهونس، والتي كانت على وشك الانتحار ذات ليلة عن جسور ريسيف، هي ذاتها التي تستعرض مجوهراتها في بيتها في بارث دو تياترو في سلفادور دا باهيا، هي ذاتها الآن تبتسم للسادة الخمسة المتحلقين على المائدة.

عن شركة موسكوسو أند كومباني ليمتد، فصل تجاري مع نبرة من الحزن

أسس الشركة الجد موسكوسو، جد فاسكو من أمه، ثم ازدهرت بسرعة وبرزت. كان جوزيه موسكوسو برتغالياً لديه غريزة خاصة تجاه التجارة مع مبادئ راسخة. كلمته سند مضمون. عاش خمسين عاماً مكرساً نفسه تماماً لشركته. يكدح مثل أصغر موظفيه «ضارباً المثل»، غير مهتم بالراحة أو التسلية، معتدلاً في طعامه ولباسه وعشقه. له ابنة واحدة مع زوجته. وحين ترمل كان يشبع رغباته القليلة مع طباخته الملونة (غير البيضاء).

وخلفه فاسكو في رئاسة الشركة التي كانت خلال تلك السنوات الخمسين قد تطورت من مكتب متواضع إلى مبنى يشمل ثلاثة أبنية عند سفح لاديرا دا مونتانها. الطابق الأعلى للموظفين وغرف أفضل للزبائن الممتازين من الداخل، الذين كانوا يفدون إلى العاصمة بعمل. وكانوا يأكلون في المبنى ذاته؛ فلم يكن هناك جدول عمل أسبوعي؛ لا أيام أحد ولا عطل.

فقد فاسكو والده حين كان في الثالثة من عمره، وسرعان ما تبعته الأم، التي لم تكن تستطيع العيش من غير ذلك الزوج العاطفي عديم الوفاء. قام الجد بتربية فاسكو وأدخله عالم التجارة منذ أن كان في العاشرة، تماماً بعد انتهاء المرحلة الابتدائية. وبدأ من القاع بمسح الغرف والمستودعات ثم تحميل البضائع مثل أي حمال آخر. وكان ينام مع الموظفين الآخرين في الطابق الثالث ويتناول طعامه

معهم صباحاً ومساءً على المائدة الأبوية التي يجلس على رأسها موسكوسو العجوز. ومثلهم أيضاً كانت أول امرأة يعرفها هي الطباخة الملونة، المرأة ذاتها التي كان جده يستخدمها. وكانت تلك الليالي التي يقضيها مع روزا السوداء في غرفتها الخانقة التي لانوافذ لها هي متعته الوحيدة. ولم يكن جده يتيح له أية امتيازات، إلا تقبيل يده بعد مباركة الصباح.

وخلال حياة موسكوسو العجوز كان يراقب حفيده ويهز رأسه خيبة، إذ لم يظهر على الولد أي ميل أو موهبة بالنسبة للتجارة. كان عديم الاهتمام، غائب الذهن ودون أدنى إحساس بالمسؤولية. أُرسل وهو شاب إلى جكوي وسيرجيب كبائع جوال وكانت النتيجة مخيبة. وتحققت أسوأ مخاوف موسكوسو العجوز ورافائيل ميننديز، الموظف الأول في الشركة والذي هو مثال للكفاءة.

كانت علاقة فاسكو مع الشركة المشهورة للبائعين الجوالين، وهو العمل المطلوب جداً في تلك الأيام، قصيرة لكنها باهرة. كان تعامله يقوم على ما يحب وما لايحب. يمدد الديون لأصحاب المخزن الذين هم على حافة الإفلاس، والذين كان يتحاشى مؤسساتهم الباعة الآخرون. ولم يكن يستطيع أن يجمع فاتورة. فكان يقدم تعابير غامضة جداً. وفي مدينة استانشيا في سيرجيب، المنطقة التي يمكن الطواف بها في يوم واحد، قضى أسبوعاً إذ سحرته شوارعها المظللة وحيوية المدينة والسباحة في نهر بياوتنغا والفتيات الجميلات في النوافذ أو على البيانو وإطلالات أوتاليا الواهنة، وصاحبة النزل التي كانت مغرمة بالباعة الجوالين الجدد. لم يسبق لواحد من باعة جوزيه موسكوسو أن قام بجولة بطيئة بهذا المقدار أو عاد بنتائج وخيمة كهذه. وكان عليهم أن يرسلوا بائعاً خبيراً إلى تلك المنطقة على الأقل من أجل إنقاذ سمعة الشركة التي تأثرت كثيراً بهذا الغر الذي بدا عليه وكأنه سيثوّر الشغل. إلا أن فاسكو جعل سمعة الشركة وسمعته هو راسخة وفي

أعلى المراتب في كل مبغى يمكن العثور عليه في المدن التي زارها. لقد عمل دورة كاملة في موضوع النساء فعوض سنوات الحرمان في المخزن عند سفح لادييرا دا مونتانها حيث كانت مبادئ موسكوسو العجوز الصارمة تفرض ساعات عمل مستحيلة وتقلل إمكانيات الفسق حتى الاكتفاء بمفاتن روزا السوداء والتي على الرغم من كل شيء كانت مطلوبة بشدة وممنوعة بشدة.

هز موسكوسو العجوز رأسه بحزن وأعاده إلى المكتب حيث استمر، بشكل أو بآخر، عديم الفائدة، ولم يعد يلزم إلا لمرافقة الزبائن الشماليين الذين كانوا يلزمون المخزن خلال زيارتهم للمدينة. في هذا الأمر لم يكن هناك أفضل منه، بطبائعه العظيمة وأحاديثه اللطيفة، لقد كان المرافق الأمثل لليلة واحدة في المدينة. إن «ليلة في المدينة» تحمل معنى مبطناً، ولكن إذا كان موسكوسو العجوز، بساعته الكبيرة المتدلية بين أصابعه، غير قادر على تطبيق برنامج مُقَرٍّ على زبائنه - «النوم في الثامنة. ولا دقيقة تأخير» - فإنه كان يطبقه على حفيده بصرامة لم يخفف منها كون الزغب فوق شفة الولد الشهوانية قد بدأ يتحول إلى شاربين. هذا بغض النظر عن أن العلاوة المخصصة لفاسكو من أجل مصاريفه كانت محدودة بأجرة المواصلات.

كان موسكوسو العجوز يمارس قدراً من الضغط حتى على الزبائن في ما يتعلق بالساعات وبالمبالغ التي تنفق على الحياة الماجنة والنساء؛ فيكرر القول باستمرار: كم تقلل الثقة، في رأيه، بالرجال ذوي العادات غير المنضبطة والذين يترددون على البارات والمباغي. «أية ثقة يمكن أن يوليها الإنسان لرجل منصرف إلى السكر والعاهرات؟» وكان السؤال يقيد أجنحة المخططات المعدة منذ أشهر من قبل رجال الأعمال الشماليين الذين يترقبون زيارتهم إلى العاصمة لكي يشبعوا رغبات أجسادهم. ولكن على الرغم من ذلك كان الزبائن يذهبون، وفاسكو، الذي يستغل كل فرصة متاحة،

يعمل على تعطيل الزيارات المقررة إلى المواقع التاريخية ويستبدلها بالجو المنعش لبيوت اللهو التي كان من الواضح أن الوريث الشاب قد بدأ يؤسس علاقات وطيدة فيها.

وكان موسكوسو العجوز، بنظارته المعلقة على أنفه وسترته السوداء المصنوعة من جلد الألباكا، وهو ينكب على مصنف رسائل الشركة يرقب حفيده الجالس بلا حراك أمام الرسالة التي بدأها وعيناه تشردان عبر النافذة وهو يحلم. وكانت نظرته الخائبة تلتقي بتحديقة رافائيل مينديز القاسية في نقدها. وكان العجوز يهز رأسه والموظف الكبير يتطلع إليه بإشفاق. وحقيقة الأمر هي أن جوزيه موسكوسو كان يحب شركته أكثر مما يحب أسرته التي هي الآن، زيادة على ذلك كله، قد تقلصت حتى تمثلت في هذا الحفيد الكسول الأحمق مثل أبيه، هذا الثرثار، هذا الأراغان الملفق، والذي كون سمعة راسخة في محلها على أنه كذاب والذي لعب بعقل ابنته الوحيدة وعاش على حسابه خمس سنوات بأكملها. لا بل إنه قد كلفه مبلغاً لابأس به بعد موته؛ لأن أرملته المعتوهة طالبت بجنازة من الدرجة الأولى وقبر من الرخام لـ «قرينها الحبيب». وفي رأي الحمي المرتاح الآن كانت سبعة أقدام من الأرض المستوية تكريماً كافياً لذلك الصهر التافه المعروف بين أصدقائه بأراغان ذي اللسان الطري بسبب الكذبات الكبيرة والكثيرة التي كان يكذبها. وكان موسكوسو العجوز يحس بأنه لم يسبق لإنسان يوازيه كلبنة وصفاقة أن سار على وجه الأرض. فالتلميحات والاقتراحات كانت تتناثر منه مثلما يتناثر الماء عن بطة. وبعد شهر عسل، بدا وكأنه لن ينتهي، ضحك في وجه العجوز حينما طلب منه هذا أن يذهب للعمل في مكتب الشركة. ماذا يظنه حموه؟ هكذا سأل بين المتسلي والمستاء. أيظنه أبله، شيطاناً صغيراً لا يصلح إلا للامتهان في مكتب تجاري، وهو يسلم البقالة وسمك القد والبطاطا؟ لمن يظن نفسه قد زوج ابنته؟ من الواضح أنه لم ينتبه لمواهبه وقدراته وصلاته ومخططاته. من الأفضل لحميه المبجل أن يطرد من ذهنه فكرة ربطه بوظيفة. إن

مستقبله مضمون، وإذا كان حتى الآن لم يذهب إلى عمله فذلك بسبب حيرته المتمثلة في الاختيار بين خمسة أو ستة احتمالات، كل منها أفضل من الآخر، يطرحها عليه أصدقاؤه الذين هم من أهل الحظوة. إن السيد موسكوسو نفسه سيستفيد من صداقات صهره الذي سيؤمن للشركة عقوداً حكومية وخاصة تدر مالاً كأنك تلمه من الطريق. ماذا يقول السيد موسكوسو، مثلاً، في عقد لتموين الشرطة العسكرية بلحم البقر المجفف والسمك القد لمدة عام كامل؟ ما على أراغان إلا أن يهمس بكلمة واحدة في أذن ضابط الإمداد حتى يتم الأمر. ويستطيع السيد موسكوسو أن يعتمد على العقد كأنه مال مودع في البنك. وسيأخذ المبلغ كله لأنه، وهو الصهر والصديق، لن يأخذ أية عمولة.

طوال سنوات زواجه الخمس ظل في حالة التردد ذاتها، غير قادر على حسم رأيه حول أي من الفرص الخمس أو الست العظيمة إضافة إلى العروض الجديدة من أصدقائه الذين كانوا فاحشي الثراء. كما أنه لم يؤمن أي عقد مع الحكومة لصالح الشركة، دائماً كان سيتابع الموضوع غداً. إلا أنه ظل عنيداً في مسألة رفضه للوظيفة كمستخدم عند حميه معتبراً أن تكرار العرض إهانة وإساءة. وكان ذا صلابة في الرأي جعلته لايضع قدمه أبداً في ذلك المبنى المؤلف من ثلاثة طوابق واكتفى بمعرفته بالنظر إذا ما تصادف أن مر في لادييرا دا مونتانها.

وعندما مات بشكل مفاجئ - ما من أحد كان يتصور أنه يشكو من قلبه - هجم الدائنون بسندات مستحقة، أو قروض متخلفة، وأوراق تثبت الدين بخط اليد - خط جديد يضاف إلى ما سبق - ولكن جوزيه موسكوسو الذي كان هو الآخر ذا شخصية لايستهان بها رفض أن يفعل شيئاً تجاهها. ويمكن القول إن أراغان ذا اللسان الطري قد حزنت عليه زوجته ومعها سكيرو الحانات من أصدقائه ودائنوه العديدون الذين ذهلوا باللامبالاة المطلقة التي أبداها حمو الفقيد.

لم تستطع الأرملة تحمل فقدان قرينها الحبيب فدفنت بعد أشهر قليلة في القبر الرخامي ذاته. لم تشك لحظة واحدة في زوجها طوال حياتها معه ولا بمواهبه أو إخلاصه أو حبه العميق. ومن وجهة نظر ما، كان أراغان ذو اللسان الطري زوجاً ممتازاً، كان يقضي بعد الظهر دائماً مع زوجته، يدللها ويلاطفها بمظاهر كبيرة من المحبة مع ممارسة الجنس معها باستمرار وبمهارة. ولكن بعد العشاء كان يصبح حراً طوال الليل متحملاً وطأة الشرح لزوجته بأن هناك قضايا سياسية وتجارية كبيرة لابد له من متابعتها. كان يعود إلى البيت عند الفجر تفوح منه روائح الروم والنساء ومعه سيكاره الذي لايتغير وابتسامته الراضية التي لاتتغير. وحتى ولادة الابن، التي ربطته بزوجته أكثر، لم تنجح في تعديل نظام عاداته غير المنتظمة حسب رأي موسكوسو العجوز. كان يستيقظ ظهراً، يأكل ويشرب كأنه لورد، يكرس بعد الظهر لزوجته وابنه تاركاً الليل للبارات ودور اللهو، ومن أجل الاندفاع في اللهو مع أصدقائه. ويعتبر حموه أن فيه فضيلة واحدة هي أنه لم يُرَ سكراناً أبداً. كان تحمله للمشروب مذهلاً.

تطلع موسكوسو العجوز، وهو منحن على مكتبه، إلى حفيده فرأى فيه الصهر ذا الذكرى البغيضة. أي خير من جلبه إلى التجارة وهو في العاشرة وتدريبه على حمل المسؤولية؟ عينا أبيه الحالمتان ذاتهما، والابتسامة الراضية ذاتها، واللامبالاة المطلقة ذاتها تجاه المشاكل الناجمة عن إدارة المشروع - باختصار: فاجعة. إن عليه أن يتخذ إجراءات، ويجب أن تكون صارمة، إن كان لايريد أن يرى الشركة القوية ذات السمعة الممتازة، شغل عمره، تتحطم على يدي حفيده.

ولذلك، عندما شعر أن الموت لم يعد بعيداً عنه، حوّل ما كان شغلاً خاصاً إلى شركة جاعلاً من بعض أقدم موظفيه وأقدرهم حاملي أسهم. وصار الموظف الأكبر، رافائيل مينينديز الإسباني، مديراً. وبناء على وصية موسكوسو العجوز صارت إدارة الشغل

كلها ومستقبله بين يديه. وتلقى فاسكو سندات جده التي تخصه بقسط كبير من الأرباح - باختصار ثروة معتبرة دون مسؤوليات.

وهكذا جد نفسه متحرراً من الواجبات والساعات المحددة والالتزامات ومع وفرة من المال. ترك القرارات كلها لمييننديز. مرة واحدة اختلف معه وفرض رأيه وكان ذلك حين قرر الإسباني طرد ديوفاني العجوز وهو حمال واكب الشركة منذ نشأتها. طوال أربعين عاماً وهو يحمل على رأسه حملاً بعد الآخر، من المخزن إلى العربات، بلا يوم واحد للاستراحة، ودون كلمة تذمر أو شكوى. يشتغل حارساً في الليل، وينام على البالات في المخزن. يفتح الباب للزبائن الذين يعودون متأخرين، أولئك الذين يغامرون بتجاوز برنامج موسكوسو العجوز. كان فاسكو يحس نحوه بالامتنان. فجيوفاني الزنجي كان يشتغل عنه منذ الأيام الأولى التي جاء فيها إلى العمل وهو في العاشرة، وكان يحكي له الحكايات في الليل، فقد كان في شبابه بحاراً، وصار يحدثه عن البحار والمرافئ. ولكونه قد ولد رقيقاً باسم جوان، فقد هرب إلى حرية البحر حيث حوله بحارة سفينة إيطالية إلى جيوفاني. كان الوحيد الذي يظهر العطف على الولد الذي يحتجز في الحجرة العلوية القاتمة حيث روائح التوابل القوية تجعل الرأس يدور. لقد شاخ مع الشركة. وصار الآن في السبعين. ولم يعد قوياً كما كان ولا قادراً على الشغل فقرر مييننديز أن يطرده ويستأجر حمالاً آخر.

وحتى بعد وفاة جده، وبعد منصبه الجديد كرئيس اسمي للشركة، ظل فاسكو يحمل شيئاً من الضغينة لمييننديز. كان هذا الإسباني واحداً من أولئك الأشخاص المتملقين ذوي الوجهين، يتزلف لمن هم أعلى منه ويتشدد على من هم تحت إمرته أو الذين هم أدنى منه مرتبة وأهمية. أدار العمل بيد حديدية وسار كل شيء على ما يرام. ولكن الموظفين كانوا يشكون من أن الأمور أسوأ حتى مما كانت عليه أيام موسكوسو العجوز. كان فاسكو يخاف نظرة الإسباني الباردة والناقدة، من طريقة كلامه، دون أن يرفع صوته

ودون أن ينفعل، ولكن بثقة لاتتزعزع. وحين كان ولداً ثم صار شاباً في المكتب لم يكن ميننديز يوبخه كما كان يفعل مع الآخرين. ولكنه يعرف تمام المعرفة أن كل خطأ يرتكبه وكل تجاوز لقوانين المؤسسة كان يصل إلى علم جده، بما في ذلك المرات التي كان يهرب فيها ليلاً ويغطي عليه الزنجي جيوفاني. الآن ينحني ميننديز أمامه ويتذلل مظهراً له التقدير والاحترام اللذين كانا وقفاً على موسكوسو العجوز. إلا أنه حاول أن لايتراجع عن قراره حين جاءه فاسكو، غاضباً وحانقاً، لمناقشته في مسألة طرد جيوفاني. فقد جاءه جيوفاني في الليلة السابقة وأخبره بما حدث: دفع له ميننديز علاوة صغيرة وطرده دون أي تفسير.

وجد فاسكو مع أصدقائه في أحد البارات وأخبره بما جرى وعيناه المتعبتان تطرقان لتحبسا الدموع وصوته يرتعش: «أكلت الشركة لحمي وتريد الآن أن ترمي بالعظام...».

وأكد له فاسكو: «هذا لن يحدث».

وعبر له الزنجي عن امتنانه مصحوباً بنصيحة صغيرة: «هذا الغرينغو ليس جيداً، يا سيد أراغانزينهو. خذ حذرك منه وإلا أضرّ بك».

في اليوم التالي ظهر فاسكو في المكتب مبكراً ومتألقاً وهذا نادر الحدوث. أرسل في طلب ميننديز. وكان جافاً وجاداً فبدأ الموظفون يتهامسون. ومن مكتب موسكوسو العجوز، الذي صار فاسكو يستخدمه الآن، علا صوت رئيس الشركة الغاضب. وكان صوت ميننديز خافتاً؛ لم تكن تفلت صرخة أو كلمة عالية من شفتيه المحكمتين الصارمتين حتى حين كان يهين موظفاً مخطئاً بأشد العبارات قسوة.

لم يكن سهلاً على فاسكو أن يحقق ما يريد. رفع صوته. قال إنه عمل لا إنساني أن يطرد جيوفاني العجوز، وإنه ليس من حقهم أن يحولوه إلى متسول في آخر عمره بعد أن كرس عمره كله للعمل

ولخدمة الشركة. وابتسم مينينديز ابتسامته الباردة، وهز رأسه موافقاً؛ لكنه أصر على موقفه: من حيث المبدأ... حين يعجز عامل عن القيام بعمله فالحل الوحيد هو التخلص منه واستئجار غيره. هذه هي قواعد اللعبة. وهو لم يفعل شيئاً أكثر من تطبيقها. فإذا عامل قضية جيوفاني بشكل استثنائي واستمر في دفع مرتبه له فإن بقية العمال والموظفين سيطالبون بمعاملة مماثلة. وهل في وسع السيد فاسكو (الآن يضع مينينديز دائماً هذا التعبير المحترم قبل اسم الرئيس الجديد للشركة بينما طوال أكثر من عشرين سنة لم يكن يخاطبه إلا باسم أراغانزينهو) أن يتصور إلى أين يمكن أن تؤدي بهم سياسة من هذا النوع؟ لا. لا. إنه لايستطيع أن يتصرف على غير هذا النحو.

ولم يكن فاسكو معنياً بالمبادئ أو بالسياسة. كل ما كان يعرفه هو أنه من القسوة والفظاظة الشنيعة أن يطرد جيوفاني. وغسل مينينديز يديه من الموضوع: السيد فاسكو هو رئيس الشركة وما يقرره سيُنَفَّذ. إلا أن عليه أن يفكر مرتين قبل خرق قاعدة ستؤثر على كل جانب من جوانب العمل. إنه يعرّض أساس وجود الشركة للخطر، ودون أن يضع في اعتباره أنه، هو فاسكو، لن يكون المتضرر الوحيد من ذلك بل سيتضرر المساهمون كلهم. إنه لايتحدث عن نفسه. ما يفعله هو أن يدافع عن مبدأ وليس عن المبلغ التافه.

فقد فاسكو أعصابه وبدأ يصرخ. في نهاية الأمر إن خمسين بالمئة من الأسهم تعود له هو، وهو يستطيع أن يبت في المسألة بنفسه. وبملق أكبر وافق الإسباني. ولما رأى أي غضب يتملك فاسكو اقترح ترتيباً يراعي كل شيء، لقد فصل جيوفاني وسيستمر الأمر كذلك. ولكن هما، هما الاثنان فاسكو ومينينديز، سيضمنان له معيشته فيعطيانه كل شهر مبلغاً يغطي به نفقاته. وكان هذا الاقتراح بداية مفاوضات طويلة. فالزنجي العجوز لن يحتمل فكرة مغادرة المخزن والانتقال إلى أي مكان آخر حتى إلى بيت فاسكو. وفي النهاية توصلا إلى اتفاق: سيستمر جيوفاني بصفته حارساً ليلياً،

بنصف مرتبه السابق، وفاسكو سيدفع النصف الثاني من جيبه الخاص. وحين شكره الزنجي كرر تحذيره: «انتبه من هذا الإسباني يا معلم. إنه منيك وضيع».

كان ميننديز يمثل لفاسكو التحرر من كل مسؤولية. وكان يذهب إلى المكتب ليريح ضميره. يتبادل بضع كلمات مع الإسباني فيستمع دون اهتمام لملاحظات على العمل ثم يذهب لرؤية جيوفاني في المخزن. لم يكن يطيل المكوث. دائماً لديه موعد مع أحد أصدقائه العديدين من المجموعة التي هو منها الآن، أو في واحد من تلك البيوتات التي تنتظره فيها امرأة جديدة، فتح جديد آخر.

ولأنه عازب كان يقع في الغرام عند أول هزة قبعة. كريم، مسرف، يكاد يكون مبذراً في ما يتعلق بالمال، سرعان ما يسحب الشيك في البارات والكباريهات. له شعبيته الواسعة عند النساء، وحين تتقبل واحدة منهن غزله يندفع إلى أقصى الحدود فينزل في بيتها ويغرقها بالهدايا. وآخر شأن عاطفي له كان مع دوروثي، الفتاة التي أنزلها في نزل كارول الدكتور روبرتو فيفاليما، الطبيب الثري الذي لايمارس الطب، والشهير في حلقات البغاء بغيرته الشديدة ووحشيته. ويمكن القول إنه كان على عكس فاسكو. فالنساء كن يتجنّبنه على الرغم من أمواله. فلأقل هفوة يمكن أن يضرب البنت. وهناك من يقلن إن هوسه بجلد رفيقات فراشه كان نوعاً من المرض. أعاد دوروثي من الريف بعد رحلة إلى فيرا دوسانت آنا، وأبقاها سجينة فعلية وهو يهددها كل لحظة. فتأسفت كارول لموافقتها على الإبقاء عليها في بنسيون مونت كارلو. ولم تكن تستطيع الرفض. فروبرتو زبون دائم، ومنفق متلاف. وأسرته مرموقة. ولكنها مع ذلك ندمت. فدوروثي المسكينة كانت مقيَّدة أكثر من راهبة في دير. وكان روبرتو يأتي في أوقات لايكون متوقعاً فيها ويجب أن لايأتي فيها ليهدد الفتاة المسكينة بالجلد. وفي الليل في قاعة الرقص يحتجز دوروثي معه ليقيم استعراضاً من التانغو والماكسيكسي، وهو جاهز لخوض معركة عند أول نظرة أو

ابتسامة يلقيها أحد الزبائن على الفتاة المسكينة. وكارول التي كانت موضع ثقة الجميع كانت تعرف أن فاسكو مهتم بها. وتعرف أيضاً أن دوروثي مولعة به. وخلال الشهور التي قضتها الفتاة في بنسيون مونت كارلو تعلمت الكثير. لم تعد ابنة المزارع البسيطة التي اكتشفها الدكتور في فيرا. والشيء الوحيد الذي تريده الآن هو الفرار من قبضة راعيها العنيف وإلقاء نفسها بين ذراعي التاجر الطيب الكريم.

إلى هذه العاطفة المعقدة والمرهقة عزت كارول وجيرونيمو التعبير الحزين في عيني فاسكو. وكان مدير المرفأ يظن أن هناك سبباً آخر - عذراء فتية، أو علاقة غرامية مع زوجة من الزوجات، أو حالة من الجنون لن يكون علاجها إلا دوروثي، العلاج الذي لايخطئ. وخالفهم العقيد الرأي وحلل الأمر على أنه حزن عميق لايشفى يعود إلى الماضي البعيد. ولم تكن لدى الملازم ليديو مارينهو آراء مسبقة بل قرر الأمر كحقيقة: هذا الشهواني الوحشي فاسكو، على الرغم من مرحه الشديد، واقع تحت وطأة وسواس المرض. ربما كان كبده. لكن هذا لايشكل مشكلة كبيرة لرجل معه هذا المال كله. واتفق الجميع على نقطة واحدة: يجب العثور على سبب هذا الحزن الخفي الذي يعتمل في صدر فاسكو موسكوسو دو أراغان.

متحدث بارع، ورفيق لطيف المعشر، غني وشاب، صحته كالثور، فلماذا إذن يعطي الانطباع بأنه يخفي حزناً دفيناً وجرحاً لايشفى؟ قلق عليه أصدقاؤه، وخاصة القبطان جورج دياس نادرو، الذي كان مرحاً بطبيعته ويعتبر الحزن والألم تحدياً شخصياً لطبيعته.

مدير المرفأ ونساؤه الزنجيات والخلاسيات ومادلينا بونتس مندس، الآنسة المغرورة

كان جورج دياس نادرو، مدير المرفأ، يحب أن يرى وجوهاً فرحة من حوله وشفاهاً تفتر عن ابتسامات. هذا هو جوه. فهو لايستطيع تحمل المكتئبين. وهذا ما يفسر عدم محبته لبيته حيث زوجته صورة نموذجية للحزن والتقوى. فهي منصرفة إلى الكنيسة والعمل الصالح وللمرضى والمتألمين واليتامى والأرامل، تبلغ قمة سعادتها في أسبوع عيد الفصح مع مشاهد الآلام - اللقاء بين المسيح وأمه، والصلب - وغسل أقدام الفقراء والشموع والصور المكللة بالسواد والصوت الجنائزي للسقاطات التي تحل محل الجلجلة المرحة للأجراس.

كيف حدث أن تزوج ملازم البحرية الخلي هذا فتاة تختلف في مزاجها عنه إلى هذا الحد؟

في البداية حين عرف غراسينها وأحبها في نادي البحرية في ريو لم يكن فيها أي شيء مأساوي. كانت كتلة من المرح الفتيّ؛ وكانت ترى نكات الملازم مدهشة - وهو شعور لم يكن كبار ضباط البحرية يشاركونها فيه دائماً. لكن موت ابنها ذي العشرة أشهر من العمر هو الذي جلب هذا الكره للحياة وهذا التنكر لمباهج هذه الدنيا الخادعة. مرض الطفل، الذي تعبده أمه، بشكل مفاجئ وارتفعت درجة حرارته دون مسبب واضح حتى أنهم لم يستدعوا الطبيب. وتوفي الطفل فيما كانت غراسينها وزوجها يشاركان في حفلة على

متن سفينة حربية. كانت ترقص مع جورج عندما وصلها النبأ. فأحسّت أنها مسؤولة عن موت الطفل. ولبست الحداد طيلة حياتها الباقية وهجرت كافة أنواع المتع والمباهج وتحولت إلى السماء، حيث الطفل هناك حتماً، وإلى الكنيسة على أمل أن يسامحها الله وأن تعود إلى الالتقاء بطفلها بعد الموت الذي صارت تصلي لتطلبه كل يوم. واشتمل رفضها لأشياء هذه الدنيا على رفضها لزوجها على الأقل في ما يتعلق بالتواصل الجسدي. أما جورج فقد جرحه موت الطفل جرحاً عميقاً. كان يناديه «البحار الولد» وكان يحلم له بمستقبل باهر. لكنه لم يغرق في أحزانه كما فعلت زوجته، حاول إقناعها بأنهما يجب أن يرزقا بأطفال آخرين ليملأوا الفراغ الذي خلفه «البحار الولد» لكنها نفرت منه بقرف. ورجته باكية أن لايعود إلى مبادرتها من أجل خطيئة كهذه. هذه الأمور انتهت بالنسبة لها إلى الأبد. وطالبت لنفسها بغرفة مستقلة عن غرفته. ونصحته، أيضاً، أن يهجر مباهج هذه الدنيا، وأن يرجع إلى الله وأن يأمل أن الله بواسع رحمته سوف يغفر له خطايا ماضيه، وتدلى حنك جورج، فقد هُزم، كان يتفهم قنوط زوجته ويشاركها إياه. لكنه كان يظن أن ذلك لن يطول أكثر من شهرين أو ثلاثة أشهر. غير أنها انغلقت على نفسها نهائياً داخل أحزانها وتحولت إلى شبح يتجول في البيت، وشفتاها الذابلتان تتمتمان بالأدعية والصلوات. سترت جمالها، الذي كان في بدء تفتحه، بملابس سوداء ودموع لاتنضب. كانت تدخل غرفة الطفل وتحولها إلى معبد لتقديم النذور. وقضى جورج وقتاً وهو يبذل قصارى جهده ليحطم حواجز الحزن واليأس ولكن دون فائدة. أمن الانتقال إلى مدينة أخرى لكن غراسينها استمرت لامبالية تجاه كل شيء لايتعلق بذكرى ابنها وبالحياة الأخرى. ولهذا غسل يديه منها وبدأ يعيش حياته على هواه.

صار يقضي أقل ما يمكن من الوقت في البيت. وراح يشغل نفسه بمشكلات إدارة المرفأ وأكاديمية التدريب البحري إضافة إلى الحديقة الصغيرة التي تحيط بالبيت وتواجه بحر باهيا. بعد ساعات

يخلع سترته الرسمية ويرتدي ملابس مدنية ويخرج لكي يرى جيرونيمو في مبنى المجلس التشريعي والعقيد في مقر قيادة الكتيبة التاسعة عشرة أو يذهب مباشرة إلى بريس حيث يعيش فاسكو موسكوسو دو أراغان في المنزل الذي ورثه عن جده والذي قضى فيه طفولته. يخرجان للعب البلياردو ويتراهنان على من سيدفع ثمن المشروب ويتعشّيان معاً وبعدها يأتي وقت النساء أو البوكر.

بدأت صداقة فاسكو مع هذه الشلة من المتميزين قبل ذلك ومن خلال القبطان جورج في أحد الكباريهات. كان جورج بالملابس المدنية بعينيه الزرقاوين وشعره الأشقر يبدو مثل زائر غريب، وما كان لأحد أن يظن أنه قبطان في البحرية البرازيلية. وكان فاسكو يجلس وحده على طاولة منتقاة بعناية قرب المسرح الذي ستقدم عليه ثريا، الراقصة التي تقوم بجولة في المدينة، نمرتها بعد قليل. كان قد سمع عنها وعن رقصها من صديقه جوهان السويدي، زبون التبغ وجبال النخيل والكاكاو، الذي لديه مكتب وسط المدينة واسم كنية من المستحيل لفظه أو كتابته. على الطاولة المجاورة له جلس مدير المرفأ الذي ظنه فاسكو أوروبياً. ومرت فترة وهو يحاول أن يسلّي نفسه بتخمين جنسيته: إيطالي؟ فرنسي؟ ألماني؟ هولندي؟ وكأنما لم يكن يكفي شعره القمحي وعيناه الزرقاوان، فإن اصطحاب هذا الشخص لخلاسية سوداء شهية أكد أن هذا الشخص (غرينغو). وقلب فاسكو الموضوع في ذهنه. غريب أمر هذه الجاذبية التي تملكها الزنجيات والخلاسيات للأجانب. إن رؤية فتاة قاتمة البشرة تجعلهم يفقدون توازنهم. بينما هو، البرازيلي خليط الدم، فيجن بالشقراوات. ما سبب هذا الاختلاف في الأذواق؟ ولكن قبل أن يستطيع التوصل إلى جواب دخل ثلاثة أشخاص متجهمين إلى الكباريه. وفيما كانوا يمرون بطاولته دفعوا كرسيه دفعة عنيفة. كان واضحاً أن هذا كله جزء من مخطط؛ كان واضحاً من تصرفهم العنيف. وأدرك فاسكو بسرعة أن هدفهم هو ضرب الغرينغو وأخذ الفتاة منه. ولكن تبين أن الغريب لم يكن خصماً سهلاً. وما بدا على

أنه سيكون مجزرة تحول إلى معركة دموية خاضها الأوروبي وهو يقف ويوجه الضربات العنيفة. ولم يستطع فاسكو أن يسيطر على نفسه، كانت الزجاجات والكراسي تتطاير في الجو. ووجد أن مسألة ثلاثة ضد واحد وضع مغلوط فتدخل في العراك وفي صف الغريب، وأطلقت المرأة صرخة. كان أحد المشاكسين قد وجه لها صفعتين قويتين. فاسكو قوي وقد نشأ على حمل البالات كما أن جيوفاني علمه كيف يقاتل على طريقة كوبريرا.

كان العراك عنيفاً وضارياً. وانتهى إلى طرد المتطفلين. وقد شارك فيه أيضاً صاحب الكباريه الذي يعرف من هو جورج. وساعده أيضاً الخدم فسيطروا على الثلاثة. وعرف من هم فيما بعد. أحدهم كان عشيق الخلاسية، والآخران صديقان له. وقد جاؤوا للانتقام لهذه الخيانة التي كان الأول ضحيتها ولمداواة الألم الذي لايحتمل والناجم عن القرنين اللذين رُكِّبا له. ورفض جورج، بعد تحقيق النصر، أن يطلب البوليس كما اقترح فاسكو. وبدت الخلاسية، بشفتها المجروحة، متأثرة بتفاني عشيقها، وتطور مشاعره بحيث يصل إلى حد تنظيم هجوم وتنفيذه على مدير المرفأ المسؤول عن البحارة ورجال البحر. ونجحت هذه المأثرة في استرجاعها. فتركت المنتصرين في الكباريه لتلبي نداء العاشق وتذهب في أعقاب البطل المهزوم.

قبل فاسكو دعوة جورج للجلوس على مائدته وتبادلا بطاقتي التعريف. وتألق وجه رجل الأعمال حين عرف من هو هذا الذي قدم له المساعدة في تلك اللحظة العصيبة. «يا قبطان. هذا من دواعي سروري. هل سيصدق السيد أنني ظننته أجنبياً؟».

- كان أبي فرنسياً. ولكن أنا من فيلاريكا في ميناس.

- لي الشرف. أنا في خدمة السيد.

- انسَ لي مسألة السيد هذه. نحن صديقان.

وأنهيا الليلة متآخيين وبصحبة ثريا. وظهر جوهان وانضم

إليهما فحيوا الراقصة، بنت العربي المقيم في سان باولو، وفتحوا لها الشبمانيا وأخذوها مع اثنتين غيرها إلى فندق بعيد كان القبطان يتردد إليه. وفي اليوم التالي قُدم فاسكو إلى العقيد وإلى الملازم والدكتور جيرونيمو. ولم يمض وقت طويل حتى طلب منه جيرونيمو قرضاً لتتم المصادقة على الصداقة وعلى قبول فاسكو في الشلة المتميزة.

وفي المجتمع الراقي أيضاً، بدأ يتلقى الدعوات إلى احتفالات في مجلس المستشارين وإلى حفلات الاستقبال والرقص وإلى مشاهدة مسيرات الثاني من تموز والسابع من أيلول من المنصة الرسمية جنباً إلى جنب مع المحافظ وكبار المسؤولين وكبار الضباط. ولقد أحبه جيرونيمو كثيراً، فكان يطالب بتواجده دائماً. وأكثر من ذلك فالأربعة يقدرونه كثيراً كما كان يقدره الآخرون - الرواد والنقباء والقضاة ورجال مجلس الأمة وموظفو المجلس الاستشاري - الذين كانوا ينضمون إلى الشلة بين حين وآخر للتسلية بالحديث أو بلعبة بوكر أو في حفلة سمر. وفتحت له قاعات استقبال أخرى، الصديق الحميم لسكرتير المحافظ، ومعاونه، وقائد الكتيبة ومدير المرفأ. وتخلى فاسكو عن رفقته السابقة من رجال الأعمال والتجار التافهين ذوي العقول الضيقة. جوهان وحده، الذي أحبه جورج كثيراً، ظل يتمتع بصحبة فاسكو. وكان بين حين وآخر ينقلب. وهو الذي مازال مولعاً بثريا، ويعود إلى الحديث عنها وعن ضرورة إبعادها عن الكباريه. إنها كتلة من الإثارة كامرأة، وكرة من النار في السرير، لكنها أسوأ راقصة سبق لجوهان أن رآها ترقص أمام الآخرين. وكان قد رأى الكثير قبل أن يستقر به المقام في باهيا.

لدى فاسكو موسكوسو دو أراغان كل ما يحتاج إليه الرجل لكي يكون سعيداً. مال ومكانة اجتماعية وصحة وأصدقاء جيدون ووفرة من النساء وحظ في الورق ودون أية متاعب تقلقه. فلماذا،

إذن، بحق الشيطان هذه المسحة من الأسى التي تغيم فوق عينيه وتقطع ضحكته المرحة؟

القبطان جورج دياس نادرو يحب أن يرى الوجوه السعيدة من حوله. فقرر أن يتحرى عن سر هذا الحزن الغامض وأن يكشف العلاج له في الوقت ذاته. خطر له أنه مرض الحب، أو الغيرة، أو الجرح الذي يمكن أن يشفى مع الزمن بعلاقة جديدة: دوروثي مثلاً. ففي الآونة الأخيرة صار فاسكو يبدي اهتمامه بصبية من بنات المجتمع التقى بها في حفلة في منزل المحافظ، وهي ابنة قاضٍ، استعراضية مترفعة اسمها مادلينا بونتس مندس. وقلق جورج: كيف يمكن لفتاة متصنعة مغرورة جامدة مثل العصا، على وجهها تعبير كأنها، دائماً، تشم رائحة كريهة، أن تملك هذا التأثير على رجل حساس ليست النساء عليه بالشيء الجديد، وأن تجرده من الاستمتاع بالحياة؟ شيء لايصدق. ولكن كلما عاش المرء أكثر ازداد اقتناعاً بأن العالم مليء بما لايصدق.

«هذه المادلينا تبعث على الرغبة في التقيؤ». قال مدير المرفأ للعقيد «ما هذه المرأة المقرفة...».

واستقر أمله في معالجة فاسكو على دوروثي، على العينين المتألقتين، والشفتين الشهيتين، المرأة المتعطشة للحب («إنك ترى ذلك بمجرد النظر إليها») التي تحتاج إلى رجل يمتطيها عبر حقول الليل ويجمح بها حتى حدود الفجر دون نوم أو تعب.

«هذه امرأة تستحق الاهتمام... أما أن تنشغل بتافهة متعجرفة لاتفكر إلا في نفسها فتلك لعبة شخص مغفل».

وكان رأي جورج المدروس أن على فاسكو أن يحزم أمره بشأن دوروثي. وناقش المسألة مطولاً مع كارول.

حول الواقع والخيال في ما يتعلق بالألقاب والمناصب

نعم، إن لمادلينا بونتس مندس وأنفها المتشامخ علاقة كبيرة بحزن فاسكو موسكوسو دو أراغان الغامض، ولكنها لم تكن أوجاع الحب، أو منافسٍ ناجح أو عاطفة مرفوضة كما تصور القبطان نادرو. ولو أن التاجر كان يسعى لاهتمامات زواجية محددة بالآنسة النكدة، فإن استعراضيتها وهزالها ما كانا ليسمحا لقلبه أن يضيّع خفقة واحدة، ولم يسبق له أن أغمض عينيه ليستحضر صورتها العارية، وكان يكرس المزيد من الوقت والاحترام لوالدها المصاب بالربو، القاضي، وأمها سليلة البارونات؛ أكثر مما يكرسه للابنة المتغطرسة.

وأية فكرة حول الزواج، إن خطرت له، كان يمكن أن تخطر كجزء من مخطط يهدف إلى الانخراط الكلي في جمعية الأربعمئة الباهيّة، المعقل الاجتماعي الحصين مع ألقابهم وشعارات النبالة التي لديهم. ولكن إن كان هذا قد مر في ذهنه فعلاً متأثراً قليلاً، ربما، برفقته الجديدة وبأضواء منزل المحافظ وبعلاقته بالمحافظ وبأناقة زوجات أعضاء المجلس الاستشاري الموقرين، إلا أن ذلك لم يصل إلى حد وضع خطة محددة. كان الأمر غامضاً ولم يدم طويلاً، مجرد فكرة عابرة، وكدر موجع.

لعله فكر في زواج متميز يربط اسمه المحترم والعاميّ، الذي تفوح منه روائح سمك القد ولحم العجول المجفف، باسم عائلة

مرموقة، ذات عراقة محلية، يعبق بتملك للعبد ثم حط بها الزمن قليلاً في هذه الدنيا بسبب إلغاء الاسترقاق. ولأنه حسَّاب غر فقد ركز عينيه على مادلينا بونتس مندس التي تستطيع أن تباهي باروناً من جهة الشغل على المغزل، ورسائل من بدرو الثاني في أرشيف جدها من أبيها، المشرع المثقف العريق في الأمجاد والبائس من متاع الدنيا. وشن فاسكو حملته بمواكبة الرقص مع الأبوين ومغازلة البنت.

وفي رقصة فالس حاسمة جاءت الخيبة، طلب مادلينا للرقص، وفيما هما يتحدثان حول هذا الموضوع أو ذاك وصلا إلى موضوع خطبة متعلقة بفتاة أخرى وزواجها. وأبلغته مادلينا أن شرطها الوحيد على كل من سيأخذها - هي كتلة العظام - إلى الكنيسة أن يكون له لقب أو منصب. إنها لاتصر على لقب من مرتبة النبلاء، بالطبع، كونت أو ماركيز أو بارون سيكون ممتازاً؛ على الرغم من أن هذا قد صار صعباً في ظل الجمهورية، منذ تلك الخيانة المؤسية للإمبراطور المسكين، صديق جدها الذي كان يراسله ونوهت بالألقاب الشائعة، شهادة دكتور، مرتبة ضابط في الجيش أو في البحرية. إنها لن تتزوج أي شخص لا على التعيين؛ هي حفيدة بارون، وابنة قاضٍ، لتصبح زوجة لا أهمية لها لمجرد السيد فلان. تريد أن تكون مدام (سنيورا) لدكتور أو مدام لقبطان أو مدام لقائد. المال لايعني الكثير لها، ولكنها تهتم فعلياً بالاسم والأسرة، وهذا ما تصر عليه.

وغلط فاسكو في خطوة (في الرقص) وشحب لونه وارتعش في أعماقه. كان قد جر الحديث إلى هذا الموضوع وفي ذهنه أن يطرح نفسه بين أنعامها، ولكن عصا المكنسة المغرورة ألقت في وجهه حقيقة أنه لاشيء، أحد هؤلاء السادة الذين أشارت إليهم بنبرة احتقار مطلق. ولم يصل إلى النقطة التي يقدم فيها نفسه. خجل وارتبك، وارتبط لسانه وراح يتحرك بصمت حتى نهاية الرقصة، وتزايد إحباطه.

كان مرد إحباطه إلى سبب واحد: حقيقة أنه لايمتلك لقباً يسبق اسمه. لم لايتقدم ويأخذ دوروثي من روبرتو الذي لافضل له عليها إلا بالمال الذي ينفقه عليها؟ يستطيع فاسكو أن يؤمن لها مالاً أكثر بكثير، ووسائل راحة أكثر، وبيتاً خاصاً بها؛ إضافة إلى حياة رغدة، فيها حفلات ونزهات وليال مرحة وشمبانيا. هذا إذا لم نذكر هول اضطرارها لتحمل خنزير مثل روبرتو يمرغ بوزه في رقبتها ويشدها إليه ويتمرغ معها في الفراش. كان فاسكو يتنهد حسرة على دوروثي وقلبه يخفق بحزن من أجلها. وفي الليل كان يفكر فيها ويتصورها عارية بنهديها البارزين وفخذيها المتماسكين وردفيها المدورين وبطنها المخملية. لِمَ لَمْ يختطفها من بين ذراعي روبرتو؟ نعم، إنه الخوف من روبرتو. ليس الخوف الجسدي، إنه لايخاف من حوض شحم الخنزير هذا. والرجل الذي يضرب امرأة هو دائماً جبان غير قادر على مواجهة رجل آخر. وفي نهاية الأمر من ذا الذي يستطيع أن يغامر بالوقوف في مواجهة فاسكو موسكوسو دو أراغان، صديق جيرونيمو، بنفوذه في البوليس، وبالعساكر والشرطة الذين هم تحت إمرته إذا ما أراد؟ لايحتاج إلا إلى كلمة واحدة للعقيد أو للقائد.

إنه نوع آخر من الخوف، يتولد من احترام التاجر للشهادة الجامعية، لدبلومه وخاتمه الزجاجي وأطروحته. إن فاسكو لن يستطيع أبداً أن يتجاوز الهوة التي تفصله عن هذه الأشياء، وهو يحس بالامتهان أمامها فهو ليس نداً.

هذا هو السبب الحقيقي لمسحة الحزن، للألم الذي يقضم سعادته، ويؤرق أصدقاءه. ففي رأي فاسكو إن أولئك الذين لهم ألقاب أو مناصب يشكلون فئة مستقلة، كائنات متفوقة تسمو على الفانين الآخرين.

لم تمر لحظة لم يحس فيها فاسكو بدونيته. حين كان يدخل بنسيون مونت كارلو، كانت كارول تحييه برقة باسم أراغانزينهو، بعد أن تحيي الأربعة الآخرين بألقاب: العقيد، والدكتور، والقبطان،

والملازم. وحين يتم العثور على امرأة جديدة وتُضم إلى الشلة على مائدة في الكباريه أو في ردهة بيت من بيوت الترفيه، بعد أن تعرف مراكز الآخرين، تسأله عن لقبه أو تقترح أن تحاول التخمين: «دعني أفكر... السيد رائد في الجيش، أستطيع أن أقسم على ذلك».

وفي منصة مراقبة المحافظ، حين يقوم حاكم الولاية بتقديمهم إلى صاحب مقام رفيع وبعد أن تجري المقاطع الرنانة لألقاب الآخرين على لسانه ويجيء دوره: «السيد فاسكو موسكوسو دو أراغان، أحد رجال أعمالنا المهمين».

طوال اليوم يظل فاسكو يسمع الإضافة الكريهة اللاحقة باسمه، فتهينه مثل صفعة على وجهه، مثل إهانة متعمدة، وكان يحسها مخزية حتى أعماق الروح ويحس بنفسه وهو يحمّر فيطرق برأسه وتتبدد متعته بالحفلة، يتعكر يومه؛ ما فائدة كل المال الذي جمعه، واستلطاف هذا العدد من الناس له، وصداقة ذوي النفوذ، طالما أنه ليس واحداً منهم، طالما أن هناك ما يفصله ويحفر هوة بينه وبينهم؟ إن هناك من يحسد فاسكو ويراه أحد المحظوظين إذ لديه كل ما يحتاج إليه لكي يكون سعيداً. وهذا ليس صحيحاً، كان ينقصه اللقب الذي يجب أن يحل محل هذا «السيد» المجهول المبتذل الذي يجعله واحداً من العامة، من الرعاع، من الجماهير.

وفي صمت بيت عزوبيته، وبعد ليالي البهجة في المدينة، كم كان يفكر في الموضوع ووجهه السمح يكمد. ما الذي لايدفعه لقاء لقب، حتى لقب طبيب أسنان أو صيدلاني الذي سيتيح له أن يلبس خاتم التخرج المميز ويضع كلمة «دكتور» قبل اسمه؟

حتى أنه فكر في شراء منصب في الحرس الوطني، من ذلك النوع الذي كان خلال الأيام الأولى من عمر الجمهورية يباع بالآلاف إلى مربيّ الماشية في أطراف البلاد لقاء دريهمات قليلة. وزعت مناصب كثيرة جداً في أطراف البلاد حتى أن كلمة «عقيد» صارت ملازمة للمزارع الغني وفقدت مدلولها العسكري وقيمتها العملية.

وأكثر من ذلك فإن المراتب العسكرية العليا لم تعد تظهر في هذه الأيام، وحتى التحية العسكرية، بل إنهم لم يعودوا مسامحين بارتداء الملابس الرسمية. هذا لن يفعل شيئاً وسيكون مضحكاً.

وكان يحلم، لأن الأحلام مجانية، بلقب بابوي، لكن هذا لم يتجاوز حدود التخيل، وكونه نوعاً من العزاء المؤقت، يتحطم على الأرض عند أول نفس من أنفاس الواقع القاسية. إن لقب «كونت» الذي يُنال من الفاتيكان سيكلفه ثروة، أكبر من طاقته بكثير. كل ما يملكه غير كاف لذلك. ففي باهيا كلها لايوجد إلا نبيل بابوي واحد، واحد من الماغالهاس، وهو عضوٌ مساهم في شركة تعتبر شركة موسكوسو أند كومباني ليمتد بالمقارنة معها مخزناً في الأرياف. هذا الماغالهاس بنى كنيسة على نفقته الخاصة وأرسل إلى البابا صورة للمسيح من الذهب الخالص، وكان يدفع للقساوسة وللإخوة الكهنوتيين، ودفع مئتي كونتوس لكي يصبح كونتاً وذهب إلى روما. ولكن كل ما حصل عليه كان لقب «قائد». فالمسألة ليست مجرد مسألة مال، يجب أن يكون المرء قد أدى خدمات جلى للكنيسة، وأقام الدليل على تقواه والصلة الوثيقة مع الأديرة. وهذه بالطبع ليست من مؤهلات فاسكو موسكوسو دو أراغان البارزة، فاسمه مجهول حتى في بيت الأسقف.

كان فاسكو، وهو مستلق في سريره، أحياناً مع امرأة متعبة مكتفية تتنفس بعمق إلى جانبه، يلعن ذكرى جده البرتغالي العجوز ضيّق الأفق الذي كان المال هو كل شيء في الدنيا بالنسبة له. بدلاً من وضعه في المخزن في لاديبيرا دا مونتتانها وهو لايزال طفلاً لكي يمسح البلاط ويلبي الطلبات ويحمل الرزم، لِمَ لمْ يرسله إلى المدرسة ثم إلى الجامعة، إلى كلية الطب أو الحقوق، فيضمن له بذلك مركزاً اجتماعياً أفضل؟ لا، لا شيء من ذلك، كل ما كان موسكوسو العجوز يفكر فيه هو التجارة وتدريب حفيده لكي يحل محله ذات يوم.

يطرد صورة جده الذي ليس عنده منه أية ذكرى لطيفة تستحق

الاحتفاظ بها، ويطلق لخياله العنان فيرتاح قليلاً ولفترة وجيزة وتزداد سعادته وهو يضع الألقاب المرجوة والمستحيلة التحقق أمام اسمه.

«الدكتور فاسكو موسكو دو أراغان» هكذا كان يرى نفسه في قاعة المحكمة في ثوب المحاماة وهو يخاطب المحلفين ويشير بإصبعه إلى النائب العام في همسة جانبية أو في لحظة الدفاع وهو يحكي بصوت راعد حكاية المتهم، الضحية وليس المجرم، الواقع تحت رحمة القدر. إنه رجل طيب تعيّب يؤدي واجباته، أب متفانٍ وزوج محب ومتعلق بزوجته، وذلك الشيء الطائش الأحمق (الزوجة) ركب له مجموعة من القرون... لا، ليس هذا بالتعبير الملائم أمام المحلفين. ذلك الشيء الطائش الأحمق (الزوجة) متجاهلة حب زوجها لها وأطفالها الأبرياء وكرامة بيتها مرغت اسم زوجها الشريف في سرير الخيانة... هذا هو التعبير المطلوب. أعجبه، حتى هو تأثر به، اسمه يزداد شهرة بين أكبر المحامين في الولاية، يُذكر في الأحاديث ويُمتدح إلى أقصى الحدود: «أية موهبة! وأية فصاحة! يُذيب القلوب المكونة من حجر. يستطيع أن يجعل أي قاضٍ يأكل من يده».

وبعد أن يُخرج القاتل يرى نفسه بقميصه ذي الأكمام في غرفة العمليات يلبس قفازين مطاطيين، وقناع من الشاش على وجهه، إنه الدكتور فاسكو موسكوسو دو أراغان، الذي تلقى تدريباته في مستشفيات باريس وفيينا، الجراح الشهير (رفض الاهتمام بأي فرع آخر من فروع الطب) يفتح بيديه الدقيقتين الهادئتين بطن المحافظ تحت النظرات القلقة الحادة لأقاربه، وجيرونيمو والسياسيين والطلاب والممرضات. المرض المفاجئ، القلق العام، خطر الموت إذا لم تجر العملية فوراً. ولكن عملية من هذا النوع (لم يكن فاسكو يعرف بدقة، لم يقم بالعملية، وأي عضو أو جزء من الأحشاء هو المتأذي، وأي أجزاء البطن الحكومية يجب أن يفتح ثم يخيط. ولكن هذه تفاصيل أقل أهمية) الذي لم يسبق تجريبه في باهيا، كانت تملأ

الأطباء بالرهبة لمجرد التفكير بالمسؤولية المترتبة عليها. لقد رفض البروفسور المشهور في كلية الطب أن يأخذها على عاتقه. ولكن حياة المحافظ، في الوقت ذاته، في خطر، وشؤون الولاية تتعرض للإهمال، والوضع السياسي في حالة هيجان والمعارضة تفرك يديها آملة. وتأتي استغاثة جيرونيمو معتمدة على صداقته ومهارته، الجو المتوتر في غرفة العمليات، البسمة على شفتي الطبيب، براعته، ثقته، رباطة جأشه، سعة معلوماته... يستخرج من البطن الهامة... ما الذي سيستخرجه؟ حجراً كبيراً، كان يسمع عن الحصى في الكلى: ألم قاتل لا شفاء منه. الطلاب لايستطيعون تمالك أنفسهم فينفجرون في الهتاف والتهليل، ويأتي أعضاء الهيئة التدريسية لتهنئته.

هل ينجو من السجن، إنقاذ حياة المحافظ، ثم ينقل نشاطاته إلى مجال الهندسة. الدكتور فاسكو موسكوسو دو أراغان المهندس المدني، الذي قام بدراسات تخصصية متقدمة في ألمانيا. اجتاز المناطق الشمالية القاحلة ليحقق التقدم في مجال القضبان الفولاذية للسكك الحديدية. تحت الشمس اللاهبة، وسط الغابات الغامضة، على رأس ورشات العمل. العرق يتصبب على جبينه المفكر - عراقيل عديدة يجب تذليلها. والتثبيط والإجهاد. وهذا الجبل، شيء مفاجئ في هذه المنطقة السهلية. أراض مجدية قاحلة تعيق طريق التقدم! النفق، إبداع خالد، أحد أطول الأنفاق في العالم، مذكور في كتب الجغرافيا. يوم الافتتاح، سائق القاطرة يتنازل له عن مكانه. كان من الملائم أن المهندس العظيم، الرجل الذي قهر الصحراء والجبال والنهر، يجب أن يقود القاطرة الأولى المكللة بالزهور. جاءت دوروثي، بغتة صارت زوجة وزير المواصلات الكريه، حمار متنكر، يتطلع من طرف أنفه إلى رجل الأعمال أراغانزينهو، صديق جيرونيمو والملازم ليديو مارينهو، بالكاد يمد له إصبعين في تحية رسمية باردة؛ جاءت دوروثي بجمال يحبس الأنفاس، وحين كسرت زجاجة الشمبانيا على المحرك التقت عيناها بعيني المهندس محط

التكريم فتسربت ومضة غزل خفر بينه وبين الزوجة غير المتوقعة للوزير.

الرائد فاسكو موسكوسو دو أراغان، من سلاح الفرسان، فالفرسان هو السلاح الأكثر مجداً في الجيش، يركب جواده أمام عناصره، بصوته الآمر، وطلته الأرستقراطية، ومظهره العسكري، وصدره مغطى بالأوسمة، وبما أنه لم يكن من الممكن تجنب الحرب، فالجيوش الأرجنتينية قامت غدراً بالهجوم على حدود ريو غراندي دوسول، وتحول استعراضات السابع من أيلول إلى حشد للقوات باتجاه الجنوب في طريق الواجب، والمجد والموت، سكان المدينة كلهم احتشدوا في الشوارع، النساء يبكين وهن يودعن الجنود بعناقهن، والفتيات ينثرن الزهور على الطريق، وعلى جواده ذي الوجه البيض وسيفه اللامع في يده، وبعينيه المتوقدتين كان فاسكو موسكوسو دو أراغان الصورة المجسدة للحرب والنصر. ستكون مهمته في الميدان سريعة، عمل باسل تلو الآخر؛ ترقية بعد الأخرى حتى الوصول إلى رتبة جنرال بعد أشهر قليلة وعدة معارك، ثم الموت بعظمة في نهاية الحرب. وحين دخل بونس آيرس وسط عاصفة من الطلقات والقذائف أصابته رصاصة طائشة في صدره، حتى في هذه الحالة لم يسقط عن جواده ذي الوجه الأبيض، انحنى وهو على السرج، وصدره ممزق، وإرادته التي لاتليق تحمله إلى قصر الحكومة، ويصير اسمه أسطورة يعرفها كل تلميذ مدرسة.

ولكن بما أن الحرب تدور براً وبحراً، وفي البحر خاصة فإن السفينة التي تعمل تحت إمرة الأميرال فاسكو موسكوسو دو أراغان، الأصغر في هذه الرتبة في الأسطول كله (لقد بدأ رائداً بحرياً عند بدء الأعمال القتالية) اخترق حصار الأسطول الأرجنتيني، ووحده قام بقصف بوينس آيرس فيسكت بطاريات مدفعية المدينة المعادية ثم يدخل المرفأ على متن طراده حاملاً علم الجمهورية البرازيلية الفتية. ومن منصة الربان، وهو يتكئ على مدفع، أصدر الأميرال أوامره: «كلٌ إلى موقعه، الجميع مستعد للموت من أجل البرازيل»،

للعبارة رنين تشاؤمي، من الأفضل تغييرها إلى: «كلٌّ إلى موقعه، الجميع مستعدون لتقديم حياتهم من أجل انتصار البرازيل!»، هذه أفضل وأكثر إيحاء. يحمل منظاره ويتفحص المواقع الأرجنتينية، وبصوت قوي يعطي أوامره: «نار!» والمدفع يقذف الموت على المدينة المتعجرفة. وبمناورات سريعة وجريئة جرأة لاتصدق يقوم بإغراق السفن في المرفأ واحدة بعد الأخرى. يدك الحصون، ويدمر المواقع الدفاعية ووسط الدخان ولهيب النيران، في برج القيادة لسفينته، يدخل الأميرال فاسكو موسكوسو دو أراغان المرفأ المفتوح حرباً فينهي الحرب.

تحركت المرأة، وفتحت عينيها الناعستين فتعرفت على الغرفة والسرير. لحسن الحظ إن الاختيار قد وقع عليها في الليلة السابقة؛ يجب أن تظهر امتنانها، ربما تعلق بها إلى حد ما. مدت ذراعيها، وبصوت خجول وناعم بفعل النوم: «سيد أراغانزينهو...».

أدى هذا إلى تبديد الحلم، الحلم الذي هو حرية الإنسان، ذلك الذي لايمكن أن يُروض أو يُكبح أو يُسرق، آخر ملكية ذات قيمة لديه. هذه الكلمات دحرجت الأميرال فاسكو موسكوسو دو أراغان من برج القيادة في السفينة.

حيث الراوية الجنّي يعود إلى الظهور محاولاً أن يمرر علينا كتاباً

اسمحوا لي أن أفسر قصة مغامرات القبطان، حسب رواية شيكو باشيكو، التي قدر لها أن تصل إلى نتائج هامة بهذا المقدار في بريبري، على أساس التجربة الشخصية، وأوضح أن مسألة الألقاب والمناصب هذه ليست نكتة. فحتى اليوم، وبعد أن تغيرت الدنيا، أن تكون دكتوراً أو ضابطاً شيء؛ وأن تكون شيطاناً مسكيناً دون شهادة شيء آخر تماماً. فاللحالة الأولى الامتيازات والاستثناءات وللثانية المعنى الحرفي القاسي للقانون، حاملو الشهادات لهم الحق حتى في سجن خاص؛ عداك عن الضباط، المخصصين بكازينو ملحق بمساكنهم كمسألة رسمية مجردة.

اليوم هناك من يسخرون من الأطباء ويضحكون من المحامين متبنين موقفاً بأن خاتم التخرج ليس دليلاً على التفوق. لا بل إنني قرأت مقالة في صحيفةٍ تورد كافة أنواع الحجج للإثبات، أولاً وثانياً وثالثاً، بأن كافة الأمراض التي تعاني منها البرازيل سببها خريجو الجامعات. وقد يكون الأمر هكذا فعلاً؛ فأنا نفسي أظن ذلك. لكنني لا أناقش المسألة، لأنني أحترم حرية الرأي. غير أنني أستطيع أن أقسم بأن كاتب الرسالة يحمل درجة دكتوراه في شيء ما، أو أنه ضابط عامل وإلا من أين له الشجاعة ليؤكد تأكيدات كهذه؟ وأن تضع رأسك برأس دكتور جنون حقيقي، وأنا نفسي برهان على ذلك.

وهذا ما يجعلني أوافق القبطان (إلى أن تتأكد رواية شيكو باشيكو تماماً سأظل أستخدم اللقب، فالمؤرخ لايستطيع أن يقفز إلى النتائج)، وإحباطه أكثر من مبرَّر على ما يبدو لي. فعلى الرغم من كونه غنياً ومرتاحاً لابد أنه قد تعرض للمهانة أو الإغاظة لعدم وجود «دكتور» أو «رائد» قبل اسمه، ولأنه لم يذهب إلى جامعة، حتى لو انحشر فيها بصعوبة، كما حدث لذلك المتسكع أوتونيل مندونكا، صديق تيليماكو دوريا الذي دافعت ضد افتراءاته على القاضي الدكتور ألبرتو سكويرا. هل تصدق أن مندونكا الأمي خريج حقوق؟ لقد قضى سنوات الجامعة متسكعاً في منطقة الضوء الأحمر (المواخير) ودافعاً الناس من الخلف في منطقة سيفيليز أكاو في رواتشيلي. ولايذكر الأساتذة أن وقعت عيونهم عليه، وهذا، بالمصادفة، أمر لايخسر فيه الأساتذة الموقرون شيئاً. غير أنه، مع إعادة الصفوف وتقديم الامتحانات مرة بعد أخرى، للتقدم بصعوبة شديدة وبطء شديد؛ حصل على شهادته واشتغل بها وتوصل إلى عمل سياسي بالخديعة (أحد تلك الأعمال التي يجب أن لاتفعل فيها شيئاً) وراح يتسكع في رواتشيلي لتشويه سمعة الآخرين. ولم تتعد خدمته للدولة ساعة في اليوم، ولكن حتى هذا كان يعتبره كثيراً وادعى أنه أصيب بمرض في رئته اليمنى. ودون تردد أعطوه إجازة مرضية، مايزال يقضيها حتى اليوم، ويزداد بدانة ووقاحة ويوسّخ بريبري بحضوره.

وانتبِه إلى الفارق: لمجرد أنني لا أحمل شهادة جامعية عانيت الأمرين من أجل تأمين إجازة ستة أشهر من المكتب الذي أعمل فيه. عنَّد الأطباء، ولم يجدوا ما يكفيهم من المدائح لنظري؛ وقالوا إنهم لم يسبق لهم أن فحصوا عيوناً أفضل من عينيّ. وقد أكد لي أحد الأصدقاء أن ادعاء مرض العين لايخيب أبداً، وأن الأطباء، انطلاقاً من التعاطف، يوقّعون على الأوراق دون أسئلة أو فحوصات. التفاهة! إذا كانوا لم يفحصوا عينيه فذلك لمجرد التقدير لشهادته كطبيب أسنان. وعلى الرغم من أن طبيب الأسنان طبيب من الدرجة

الثانية فإنه تظل له امتيازات. ولم أستطع أن أدبر إجازتي إلا بمعرفتي بالمصادفة أن أحد الأطباء ابن أخ أحد أصدقائي، دفعت إليه بعمه، واكتشف الجوكر عندها أن عندي إعتاماً (في عدسة العين) متقدماً يهددني بالعمى الدائم. أعطيت إجازة مرضية لستة أشهر تجددت عندما انتهت، وبهذه الطريقة استطعت أن أكرس نفسي، على حساب الدولة، لتنفيذ عملي في كتاب (نواب رؤساء الجمهورية)، ولا أعرف إن كنتم على علم بنوع عملي. إن كنتم لم تقرأوه فحري بكم أن تفعلوا لأنه، ولنضع التواضع جانباً، لاقى القبول والتقدير.

المهم أن ما حصل لهذا الكتاب دليل آخر على أهمية حمل شهادة جامعية. كتبته من أجل ردم هوة وإزالة ظلم. لقد كتب الكثير عن رؤساء الجمهورية، خاصة أثناء وجودهم في السلطة، طوفان من المدائح. لكن نواب رئيس الجمهورية يتم تجاهلهم تماماً ما لم يصدف أن يتسلموا مقاليد الحكومة. من يستطيع استظهار أسماء نواب رؤساء الجمهورية؟ من يتذكر، مثلاً، اسم نائب رئيس الجمهورية خلال فترة حكم برودونت دو موريس أو هيربس دا فونسيكا؟ أشك أن أحداً يتذكر. هذا وحده يدل كم كان كتابي في وقته.

كما إنني لاقيت التشجيع لأخذ هذه المهمة الشاقة على عاتقي من خلال الدراسات التاريخية التي يشرف عليها معهد (التاريخ والجغرافيا) المتميز والذي لديه جائزة متواضعة مالياً ويطبع على نفقته المادة الفائزة. لقد أغراني هذا الامتياز المشرّف وتدبرت أمر الوقت، بفضل عتام في عيني وبفضل صديقي وبدأت بنواب رؤساء الجمهورية. جمعت كمية كبيرة من المعلومات القيمة، إذا غفرتم لي ادعائي، يجد القارئ فيها الاسم الكامل والوالدين وتاريخ ومكان الوفاة، والمدارس والجامعات التي تعلم فيها، والمناصب التي تسلمها والإنجازات البارزة إضافة إلى حقائق قيّمة عن الزوجات والأولاد، وفي بعض الحالات ذكرت حتى الأحفاد. وتطلب هذا قدراً

كبيراً من الشغل وأصبت برشح قوي بسبب الغبار في مكتبة الولاية.

انتهت الأمور على مايرام، وتقدمت بعملي إلى المسابقة واثقاً من الفوز فيها، ثم تعرضت لصدمة الانخداع حين رأيتها تعطى للمنافس الوحيد الدكتور أبامينونداس توريس لعمل عن سابينادا(*). فحتى في عدد الصفحات المطبوعة على الآلة الكاتبة كان عمله أقل من عملي، أربعون صفحة بائسة؛ نصف عدد صفحاتي تماماً، ولِمَ نال الجائزة بهذا الظلم الفاضح؟ ستعرفون فوراً، لأنني أصبت في كبريائي ذهبت إلى المعهد للتحدث مع المدير. تطلع إلي من تحت نظارته وأجاب: «ومن أنت لتأتي إلى هنا وتتحدث عن الظلم؟ ألا تعرف من هو الدكتور أبامينونداس توريس؟ ألا تعرف أنه واحد من أبرز المحامين عندنا؟ هل لي أن أعرف ما هي الألقاب التي لديك؟».

أترون؟ كان خطئي أنني تنافست مع خريج جامعة. ما هي الألقاب التي لدي؟ لاشيء؛ ما لم تكن معنياً ببعض المقطوعات الشعرية التي نشرت لملء الفراغ في الصحف والمجلات. ابتلعت الإهانة، وحاولت أن أجعل المعهد يدفع، على الأقل، أجور طباعة الكتاب طالما أنهم استبعدوني عن الجائزة، ووجدت موقفهم إيجابياً؛ فلا شك أن المؤرخين الشرفاء كانوا يعانون من أزمة ضمير لكن مدير المطبعة الحكومية، حيث كان يجب أن يطبع الكتابان، كتابي وكتاب الفائز بالجائزة، خدع عجائز المعهد بلباقة، فلم يرسل النسخ الأصلية إلى المطبعة. وبعد بضعة أشهر استقال من منصبه ولم يكن المدير الجديد مستعداً حتى لمناقشة الموضوع. وبهذا فإن كتاب الدكتور أبامينونداس لم ير النور أبداً، ولذا فليس هناك مجال لمقارنته بكتابي؛ الأمر الذي يجعلني أشك بوجود تواطؤ في الأمر كله.

أما «نواب رؤساء الجمهورية» فقد طبعته على نفقتي في مطبعة

(*) قام بثورة في 7 تشرين الثاني 1837 وطالب باستقلال باهيا. قمعت في 16 آذار من العام التالي.

الفنون التخطيطية عند السيد زيتلمان أوليفا الذي طلب مني مبلغاً لايقبله العقل لكنه قبل بالتقسيط، وقدمت له سندات موقعة. لقد أرهقت حتى أمنت الدفعات ولكن الكتاب كان جميلاً يقع في اثنتين وتسعين صفحة من «المعلومات المفيدة» وأستخدم هنا كلمات المؤلف الموسوعي لـ «تاريخ باهيا» الدكتور لويز هنريك دياس تافاريس، الذي كتب لي: «أيها الزميل العزيز، شكراً لك على إرسالك لي كتابك، «نواب رؤساء الجمهورية» والذي هو مجموعة من المعلومات المفيدة»».

وإذا كنت أسجل رسالة المجاملة الواردة من ابن باهيا الشهير بكاملها فمن أجل أن يستطيع قراءتها ذلك الصحافي الأصفر ويلسون لينس، متخفياً وراء الاسم المستعار روبينو براز، حاول هذا الهجّاء أن يهينني بمقال في «تريد» يجعلني فيه أبدو مضحكاً. ولو كان لي لقب جامعي لصار أكثر لطفاً ووداً، ولكان هو، والنقاد كلهم، أطنبوا في مدحي بدلاً من إهانتي.

وكان على هؤلاء النقاد «المنَطْوطين» أن يعرفوا بالإشارة إلى كتابي التي قام بها المؤرخ العظيم في سان باولو، الدكتور سيرجيو بارك دو هولاندا، والذي، حتى، لم أرسل له نسخة من الكتاب لأنني، وأعترف بذلك لم أكن أعرف بوجوده أو بأهميته. في «استادو دو سان باولو» وفي مقال يدور حول «الجمعية المفيدة والقيمة لوحيد القرن الأزرق» يشير إلى «نواب رؤساء الجمهورية» ويصنفه على أنه أحد المراجع التي قدمتها تلك المنظمة المعرفية. ويضيف أنه كتاب «للمتعة والبهجة الحقيقية»، حتى أنه اقترح ترشيحي للجمعية الموقرة التي بدا له أن اسمي المتواضع لايجوز أن يغيب عن قائمة أسماء أعضائها. وكل ما أعرفه عن الجمعية هو ما كتبه عنها الدكتور هولاندا بلغة غامضة ومنتخبة، إلى حدٍّ ما، كما يليق بمؤرخ. واستطعت، على الرغم من ذلك، أن أفهم أنها منظمة ذات مواصفات وأهداف لطيفة أسستها، في كنيسة القديس بطرس التابعة لرهبان

ريسيف، نماذج متميزة في حياتنا الثقافية. ولسوء الحظ لم يأتني أي إشعار آخر لا عن الجمعية ولا عن ترشيحي للعضوية الذي طرحه بكرم، الدكتور سيرجيو دو هولاندا. ولاشك أنهم قد بدأوا التحريات، وحين عرفوا أنني لست دكتوراً ألقوا بي كما يُلقى بالبطاطا الساخنة.

كما استحق الكتاب كلمات إطراء لاحدود لها، ومرضية جداً، من قاضينا المتقاعد الدكتور ألبرتو سكويرا. لقد التقط اثنتين أو ثلاث زلات قواعدية غير هامة وأضاف أن هنات كهذه لا أهمية لها في كتاب وطني وقيم مثل هذا الكتاب. سأقوم بتصحيحها في الطبعة الثانية التي ستظهر قريباً وذلك لأن الخمسمئة نسخة من الطبعة الأولى قد نفدت على الرغم من عدم تعاون باعة الكتب ـ ينقصني امتياز اللقب ـ الذين لم يعرضوا الكتاب على الواجهات وخبأوه على الرفوف، بعته بنفسي لأصدقائي ومعارفي، نسخة هنا ونسخة هناك ومعدِّلاً السعر حسب جيب الشاري.

هذا كله يثبت إلى أبعد الحدود أن أراغان لم يكن يحتاج إلى أسباب أخرى للحزن والقلق. إن اللقب يكسو الاسم، ويعطيه مكانة ويفتح له الأبواب والأذرع ويرسخ الاعتبار. وهذا صحيح إلى درجة أنه حتى الناس العاديون يحسون بالمشكلة. فقبل أيام قليلة أبلغتني دوندوكا (هذه العصفورة الغريدة التي يضيء تغريدها عالم فضيلته وعالم خادمكم المتواضع)، بين القبل، عن تخرجها الوشيك والمستوفي لشروطه، كاملاً باللباس الجامعي. أخفت دراستها لكي تفاجئني، ولقد فاجأتني فعلاً لأن حبيبتنا دوندوكا (حبيبتنا، أعني حبيبتي وحبيبة القاضي) بالكاد تستطيع أن تكتب اسمها وأن تعد على أصابعها الطويلة الناعمة.

«تخرج يا نجم ليل حياتي؟ التخرج في ماذا؟ وفي أية كلية درست؟».

ـ في أكاديمية الخياطة والتفصيل عند دونا إرميلندا في بلادنا

فورما بإشراف الدكتور ومب أوكس. عليك أن تعاملني باحترام لأنني الآن دكتورة...

«باحترام لأنني دكتورة...» أرأيتم؟ هل أنا مخطئ أم مصيب؟ دكتورة في الإبرة والمقص، حبيبتنا الحلوة دوندوكا، لم تكتف بأن تصير دكتورة بل أستاذة مبجلة أيضاً في علم الحب.

اليوم لن تأتي الفكرة إلى القبطان لتغيظه. خلال أربعة أشهر أو ستة، وبإنفاق مبلغ معقول سيصبح دكتوراً في العلاقات العامة أو في الإدارة أو الدعاية.

قبل فترة ليست ببعيدة تعرفت في العاصمة على متحدث لبق، شاب قانع بنفسه فوق ما يتصوره الإنسان، «دكتور في الدعاية» هكذا أبلغني بمنتهى اللطف، دخله مئة وعشرون ألف كروزيرو في الشهر - أعانني الله - تلقى تدريبه في سان باولو ونيويورك، وأقنعني أنه هو الذي وجّه حياتي وعاداتي المستجدة وذوقي من خلال علم الدعاية وفنها، أعجوبة هذا العصر، أرفع حِرف هذه الأيام وهي جذر إنتاج البلد واستهلاكه وتقدمه، وأفضل أنواع الأدب والفن. وفي التحليل الأخير الشعر إعلان. طلب تجاري للشهرة، هوميروس وجوته، دانتي وبايرون، كاسترو ألفيز ودروموند دو أندرا دي ليسوا إلا أجلافاً سذجاً بالمقارنة مع شاعر شاب جوال متخصص في طقطوقات عن الصابون ومعجون الأسنان والبرادات وأدوات المطابخ والمناشف البلاستيكية. وفي الرأي المبالغ لدكتور الدعاية أعظم قصيدة في عصرنا، رائعة العصر، ايفرست العبقرية الشعرية، كتبها ذلك الاختصاصي الذي زاد في مبيعات التحميلات الشرجية المريحة. قصيدة سامية بسبب إيحائها وشكلها الفني المتكامل وقوة العاطفة التي ترسلها؛ لقد ارتفعت مبيعات التحاميل بنسبة 178% بفضل الميوز (الملهمة) الحديثة.

لو كان الأمر هذه الأيام لاستطاع أن يصبح دكتوراً في الدعاية ولو باتباع دورة بالمراسلة.

خطف دوروثي وقاض بالملابس الداخلية

لقد تم خطف دوروثي بتخطيط القوات المسلحة، العقيد بدرو دو ألنكار والقبطان جورج دياس نادرو، وبالتعاون الفعال من قبل الولاية ممثّلة، في المؤامرة، برئيس المجلس الاستشاري ومعاون المحافظ. وكانت كارول هي القائد العام للعملية المعقدة. وما من أحد من الاستراتيجيين البارزين الذين خلدهم التاريخ كان يمكن أن يتفوق عليها في كمال التنظيم، والمعرفة اللوجستكية (السوقية: سوق الجنود وتوزيعهم) والدراسة المعمقة والمتأنية لكافة التفاصيل واختيار الرجال اللازمين لتنفيذ كل مرحلة من مراحل المهمة السرية والصعبة. وعلى الرغم من أن الفكرة ولدت عند القبطان جورج فإن كارول، بما لايقبل الشك، هي التي كانت مسؤولة عن نجاحها الكامل. نخب النتائج وكارول شربوا الشمبانيا بمرح وسخاء يسجلهما التاريخ في مجالات الكباريهات وبيوت الترفيه في سلفادور دا باهيا؛ وذلك لأن القبطان جورج، نظراً للنتائج الباهرة التي تحققت في خطف دوروثي، أراد أن يوسّع المخطط مستفيداً من خبرتهم وحماسهم لتقديم واغتصاب السابينيات مجدداً على المسرح تلك الليلة.

لاديبرا دا مونتانها رقم 96 كان مركز كاستيلو دو سابينا، وهو بيت مخصص للنساء الأجنبيات: فرنسيات وبولونيات وألمانيات وروسيات غامضات ومصرية واحدة، بعضهن ولدن في الحدود الشاسعة للبرازيل لكن الأخريات ألقين مراسيهن في مرفأ سابينا بعد عمل طويل بدأ في موانئ أوروبا مع وقفات في الأرجنتين

والأورغواي. وبينهن تتميز واحدة، ليس بسبب جمالها بل بسبب معرفتها العالية المتخصصة بمهنتها وهي مدام لولو الشهيرة، الفرنسية بلا منازع، ذات الثلاثين عاماً من الخبرة، شهيرة ومطلوبة إلى درجة أن لديها دائماً قائمة من الزبائن المنتظرين دورهم. ومهما زادت سرعتها في العمل يظل هناك دائماً من يكون عليهم الانتظار إلى اليوم التالي، ويحكون عن عقيد من الريف البعيد، صاحب مربي ماشية قرب طريق أمارغوسا، جاء إلى باهيا خصيصاً من أجل مقابلة وجاهية مع تلك الغانية المغوية والمطلوبة، وفي ذهنه أن لايقضي إلا يومين في العاصمة. فكان عليه أن يقضي أسبوعاً لأن وقت الباريسية المشهورة، التي ساهمت أكثر من أي شخص آخر في باهيا في ترسيخ تأثير ثقافة فرنسا الخالدة وحضارتها على العادات البرازيلية، كان مليئاً تماماً ومحجوزاً بأكمله. قضى مربي الماشية أسبوعاً وأنفق كونتو، الذي كان في ذلك الحين ثروة، على السفر والفندق والطعام والنفقات الأخرى. ولكنه، وكما قال هو نفسه، حين استقل القارب عائداً إلى بلده: «لقد كان السعر رخيصاً، يستحق الأمر أسبوعاً آخر وكونتو آخر». شهادة كهذه تجعل المزيد من الإطراء لكفاءات مدام لولو ولكاستيلو دو سابينا لا حاجة له.

ما اقترحه مدير المرفأ لم يكن أقل من غزو يقوم به مختطفو دوروثي المتطوعون والشجعان، من كاستيلو دو سابينا، الحصن المحمي من الفضول الشعبي بنوافذ كتيمة مغلقة، والذي لايُفتح بابه إلا للزبائن والأصدقاء والمعارف أو الأشخاص الذين يحملون توصيات خاصة. بعد التقرب والمعركة والنصر، سيتم نقل الحريم، ويشمل ذلك المدام لولو، إلى بنسيون مونت كارلو حيث تسلَّم المجموعة الأجنبية الكادحة إلى كارول لكي تستخدمها كأسرى حرب. وكارول تستحق ذلك وأكثر منه، قال ذلك القبطان جورج وهو يرفع كأسه تحية لقلب المضيفة المبجلة وحماسها، بينما هي تبتسم راضية على كرسيها الهزاز.

ولم يستطع الأصدقاء إلا بشيء من الصعوبة إقناع القبطان

جورج بالتخلي عن مخططاته العسكرية، إلا أنهم لم يستطيعوا منعه من غسل قدمي كارول بالشمبانيا تعبيراً عن التقدير الأمثل.

وفيما كان الأصدقاء يحتفلون بنجاح الاختطاف، على هذه الصورة، في بيت صغير منعزل في ضواحي أمارالينا، تم استئجاره قبل بضعة أيام، وهو بيت يُهَوَّى بنسائم البحر ويضاء بالبدر الكامل الذي هيأه خصيصاً الملازم الرومانتيكي ليديو مارينهو؛ كان فاسكو موسكو دو أراغان، وهو يصغي إلى تكسر الأمواج على الصخور ويتنشق الرائحة المثيرة للشهوة التي تفوح من الجَزْر البحري، يحتضن جسد دوروثي الغض مثل عاشق نافد الصبر في ليلة عرسه. الفرّوج اللذيذ، وفخذ الخنزير الإنكليزي، وخاصرة الخروف الباردة، والتفاح والإجاص، وعنب مالاغا، هذا كله لم يمسسه أحد منهما، اكتفيا بترطيب شفاههما بالشمبانيا. كان هناك ظمأ وجوع مختلفان يعتمل فيهما، من طول الوقوف، لا يحتملان أي تأجيل، ولايطفئهما الخبز والخمر. إنه الظمأ للقبلات والمداعبات، والجوع إلى الاستسلام والامتلاك، للعيش والموت كل منهما بين ذراعي الآخر.

وفي الوقت ذاته كان الدكتور روبرتو فيغاليما، وراء سبعة أقفال في بيت أهله في نازاري، يتساءل عن سبب هذا الحادث المروع؛ هؤلاء الرجال المقنّعون الذين اقتحموا بنسيون مونت كارلو في وضح النهار وهم مدججون بالسلاح ويطلقون السباب والشتائم والتهديدات ليقتلعوه من فراش دوروثي. لقد رأى وجه الموت في ذلك اليوم ولايزال يحس الرعشة في قلبه حتى الآن؛

حدث الأمر في ساعة القيلولة الهادئة بعد الظهر حين كان الصمت والهدوء يخيمان على المنزل. كانت النساء قد خرجن إلى الشوارع يتسوقن ويتمشّين أو إلى السينما لأنه كان يوم الخميس، يوم الحفلة النهارية، الخدم لايصلون حتى الخامسة، وكارول نفسها كثيراً ما تغتنم فرصة الاستراحة لكي تذهب إلى البنك أو

لتزور المستأجرين فتجمع إيجار بيوتها. دوروثي وحدها لم تكن تخرج. فالمشيات والتسليات ممنوعة عليها إلا بصحبة روبرتو. ولهذا السبب أحس بالالتزام في أن يأتي في مثل هذا الوقت من كل يوم. وكان يستلقي مع دوروثي في السرير ليأخذ لقاء أمواله، أحياناً كان يصطحبها إلى العشاء في الخارج لكي يشربا ويرقصا ويعودان في ساعة متأخرة. ولم يكن يتركها حتى الفجر ليعود إلى بيت أبويه اللذين يعيش معهما. هكذا كان يتدبر المرأة التي يحتفظ بها؛ عنان مشدود ووقت مملوء.

في ذلك النهار ظلت كارول في المنزل، تستريح على كرسيها الهزاز في الردهة. وكانت إحدى الفتيات، الداعرة التي اسمها ميمي والتي لم تبلغ العشرين بعد، مشغولة في إحدى الغرف. كان هذا يوم القاضي روفينو، الزبون العجوز في السبعينات من عمره. كان يأتي دائماً وبالتحديد كل خميس في الثالثة بعد الظهر. ويمكن سماع تنفيخه على الدرج في الوقت الذي تدق فيه ساعة الكوكو. كان يدفع جيداً لكنه كان يطلب فتيات صغيرات مثل ميمي، إلى حد ما في عمر حفيدته. وكان يحمل علبة من الكعك والسكاكر ويقبّل يد كارول.

لم يكد القاضي يغلق الباب وراءه، ولم يكن قد انتهى بعد من خلع ملابسه - كان بالتحديد يفك رباط حذائه لكي يستطيع خلع ملابسه الداخلية - عندما جمده ضجيج الاقتحام.

- ما هذا الضجيج؟

لم تكن ميمي تعرف. كانت عارية في السرير تقضم الكعك والسكاكر. وانطلقت صرخة مروعة من البهو. وكانت صرخة كارول وهي تطلب النجدة، وقفزت ميمي من السرير وفتحت الباب والقاضي وراءها دون أن ينتبه للحالة التي هو فيها؛ فردة حذاء مخلوعة والأخرى ملبوسة، صدره ذو العظام البارزة عار، وساقاه المترنحتان في سرواله الداخلي الطويل.

كانت كارول جالسة على الكرسي الهزاز وفي فمها كِعام(*) يمنعها من الصراخ وقد وقف قربها أحد المقنّعين وفي يده مسدس. وكانت تنطلق من غرفة دوروثي أصوات مبهمة. وفيما ظل المسدس موجهاً إلى صدر كارول التفت المقنّع إلى ميمي والقاضي المذعور: «أنتما الاثنان، إهدآ، لاتتحركا».

وشكا العجوز: أنا لم أفعل شيئاً، دعني أذهب، ابني عضو في مجلس الأمة... بحق الله.

ـ لاتخطِ خطوة واحدة وإلا خردقتك.

ـ يا إلهي، أية ورطة أوقعت نفسي فيها، ماذا سيقول الناس حين يسمعون؟... بحق الله دعني أذهب.

وعبر الباب المفتوح لغرفة دوروثي جاء صوت روبرتو راجياً: لاتقتلني، لم أفعل لها شيئاً، ولست الأول، تستطيع أن تخبرك بنفسها، حين وقعت عليها كانت معطوبة أصلاً، اسألها.

وذلك لأن روبرتو اعتبر الخاطفين أقارب غاضبين لدوروثي، أبناء أرياف قادمين من فيرا دو سانت آنا لغسل شرف الفتاة بالدم: دم مغويها، ولابد أنهم يظنون أنه هو الذي ضللها ووضع قدمها على طريق الزلل. كان يحاول أن يوضح أنه قد صادفها وقد فقدت عذريتها وكانت توشك على الموت جوعاً عند ناصية الشارع. أطل عليه عناصر العصابة بأسلحتهم وألزموه الصمت، وجلب أحدهم لفة حبال، ولأنه خبير في عقد الحبال سرعان ما كانت ذراعا روبرتو وساقاه في القيد. وبصوت أجش أمر الآخر دوروثي بارتداء ملابسها وتهيئة حقيبتها. خرجا معها تاركين روبرتو وعيناه تجحظان لتخرجا من رأسه والعرق يتصبب على نقرته بعد أن وجها إليه الإنذار الأخير: «لاتحاول العثور عليها إن كنت تقيم لحياتك وزناً».

(*) ما يوضع في الفم ليكمم ويمنع من الصراخ.

وفي البهو كان الثالث يجلس على كرسي، في مواجهة كارول، وفي مكان مريح يتيح له مراقبتها وهو يأمر ميمي: «تعالي إلى هنا... هنا قربي... لاتخافي».

نكّرها الصوت بصوت آخر، صوت أليف جداً حتى أنها عرفته، لكنها فكرة سخيفة: كيف يمكن أن يكون الملازم ليديو هو هذا المقنع؟ أطاعت الأمر وتقدمت، مرر يده الخالية على لحمها العاري ثم رفعها إلى حضنه، وأحس القاضي أنه سيغمى عليه وانقلبت معدته وسيطرت عليه تشنجات مفاجئة لاتهدأ.

جاء الآخران من غرفة دوروثي وأحدهما يحمل حقيبتها. وأنزل رجل العصابة المتودد ميمي من حضنه (يا للظرف... الملازم ليديو مارينهو يستخدم العطر ذاته!) ثم خرج الغزاة من الغرفة وبنادقهم موجهة نحو القاضي المنهار حتى وصلوا إلى الدرج ثم نزلوه راكضين. وكان القاضي روفينو يقول: «أحتاج إلى حمام...».

وأول ما فعلته كارول حين أخرجت الكعام من فمها هو العناية بالعجوز، ففي مخططها المرسوم بدقة نسيت أنه الخميس الثالث من الشهر، يوم القاضي. أبعدته إلى الحمام بصحبة ميمي مع صابون جديد ومنشفة نظيفة، ثم ذهبت لتطلق سراح روبرتو وتتحدث حديثاً طويلاً مع الدكتور الشاب. سيكون من الأفضل لسلامتهم جميعاً أن لايعود مرة أخرى إلى بنسيون مونت كارلو وأن يتخلى عن دوروثي وينساها، وإلا فإن هؤلاء المتوحشين، الذين لايعلم إلا الله من أين جاؤوا، («إنهم أقرباؤها...»، كان عقل روبرتو قد تشبث بهذه الفكرة) قد يعودون ويقتلونه هناك أو في قاعة الرقص ويخربون عليها شغلها، ويشوهون سمعتها أيضاً حيث إنه لم يسبق أن حدثت فضيحة أو مشاجرة أو جريمة في بيتها.

- سأرحل إلى ريو على أول سفينة.

- وفيما أنت تنتظر يفضل أن لاتخرج من المنزل.

ترك لها روبرتو ما معه من النقود، ولم يكن كثيراً، لكن لابأس.

في النهاية هو المسؤول عن هذا الاقتحام وعن ذعر القاضي - شرشحة مرتبة تلك التي أوقع نفسه فيها هذا المسكين - وعن تشويه سمعة بنسيون مونت كارلو. فحين تنتشر الأنباء من الذي سيغامر بزيارة مكان خطر كهذا؟ ووعد روبرتو أن يرسل لها مبلغاً آخر من المال قبل رحيله، وكل ما طلبه من كارول هو أن تخرج لتتأكد من أن أحداً من المجرمين ليس في انتظاره. وعادت لتؤكد له أن الشاطئ خال فغادر.

كانت كارول ماتزال تضحك في كرسيها الهزاز حين ظهر القاضي خارجاً من الحمام. كان هو الآخر متلهفاً لمغادرة هذا المكان الخطر بأسرع ما يستطيع، ولكن كيف له أن يرحل دون سرواله؟ فإذا لبس بنطلونه على اللحم العاري سيصاب بزكام شديد أو - من يدري؟ ربما ذات الرئة. أعارته كارول سروالاً مربوطاً بسيور من ملابس إحدى الفتيات، وهو سروال رقيق بساقين طويلتين. وضحكت هي وميمي من أعماقهما وهما تريانه بهذه الهيئة، وحتى القاضي ضحك. قَبلَ العرضَ لتناول كأس لكنه رفض البقاء في ذلك العصر - ما الفائدة من البقاء بعد هذا الخوف؟ - لكنه وعد أن يعود في الخميس القادم بعد أن أقنعته كارول بأن فضيحة من هذا النوع لايمكن أن تحدث مرة أخرى، وأوضحت له أن ما جرى كانت نتيجة لعداوة قديمة مع روبرتو الذي منعته من أن يدوس بنسيون مونت كارلو بعد الآن. ووافق القاضي على أن روبرتو بيضة فاسدة. ودفع لميمي من أجل رقتها وحمامها وقبَّل يد كارول ورجاهما الإبقاء على اشتراكه الفاضح في أحداث هذا اليوم سراً.

احتفل الأصدقاء بصخب بهذه الأحداث حتى الفجر. واشترك فيها الأربعة المعروفون إضافة إلى خمسة أو ستة آخرين كان اشتراكهم في عملية الخطف مطلوباً لجعل التصميم أكثر روعة وبما يتلاءم مع القبطان جورج دياس نادرو. من الصعب إقناعه بالتخلي عن فكرة «اغتصاب السابينيات»، كان مدير المرفأ راضياً كل الرضى؛ فقد ظن أنه أنهى، وإلى الأبد، سبب تعبير الحزن الذي كان

يخيم على وجه فاسكو موسكوسو دو أراغان. الآن ودون ذرة من الحزن يستطيع التاجر أن يستمتع بالبركات التي أنزلتها عليه العناية الإلهية ومنحه إياها جده؛ الثروة، العزوبية، الحظ في اللعب، الولع بالنساء، الجاذبية في الأعماق.

- سأبادله بمنصبي لقاء حظه في البوكر. قال القبطان.

- وأنا بحظه مع النساء، تنهد العقيد.

- وأنا مغمض العينين أبادله شهادتي بخمسة أسهم في الشركة. قال جيرونيمو ضاحكاً، وأضاف: وأضع فوقها مقعدي، في المستقبل، في مجلس الأمة.

- مقعدك في المجلس؟ صحيح؟ هتفت كارول مندهشة لأنها كانت تعرف بمطامح الصحافي.

- ما قيمة الألقاب والمناصب، يا كارول العزيزة، إذا قورنت بالمال؟ حين يكون لديك المال تستطيعين أن تحصلي على كل ما تريدين: المناصب والشهادات والمقعد في المجلس، وفي مجلس الشيوخ، وأجمل النساء... بالمال تستطيعين شراء أي شيء ياصغيرتي.

في تلك الأثناء كان فاسكو موسكوسو دو أراغان قد امتلك دوروثي تحت ضوء القمر، وسط عبير البحر، وبين أغاني الأمواج، تهدهدهما الرياح، يموتان في النهدات ويعودان إلى الحياة بتأوهات الحب، وجهها متقد وفمها نهم لايشبع، زهرة من الأرجوان يتعذر حل لغزها. حين تلاشت قواهما ونامت استلقى فاسكو إلى جانبها منهكاً وممتناً، وراح يحلم بعينين مفتوحتين وابتسامة على شفتيه وهو يسمع صفير باخرة. في الليل العاصف أنقذ سفينة من أزمتها القاتلة وجلبها سالمة إلى الميناء تحت المطر الغزير حيث كانت دوروثي تحت خدر الخوف والقلق تنتظر حبيبها القبطان، فاسكو موسكوسو دو أراغان.

كيف، في حفلة صاخبة كبيرة بكى فاسكو على كتف جورج ونتيجة هذه المسارّة

مرت الشهور، وقام روبرتو برحلة إلى ريو، وحين عاد جلب بين أمتعته فتاة هندية من البيرو خانعة وهادئة. وأقام ليديو مارينهو أربع أو خمس صلات جديدة في بيوتات ترفيه الغواصين، واحدة منها مع ميمي التي أفضى لها بسر الاختطاف وعصابة المقنّعين. ومات القاضي روفينو في أحد بيوت البغاء فأثار فضيحة في المدينة. وعلى الرغم من وعوده لكارول لم يعد بعد ذلك، أبداً، إلى بنسيون مونت كارلو خشية وقوع هجوم آخر. لجأ إلى التعامل مع مؤسسات أقل وضوحاً، وما في محل لورا، حيث كان قد اكتشف أرليت التي لم تكمل الخامسة عشرة، الطفلة المسكينة، التي حين سمعت حشرجات الموت في حلق العجوز وهو فوقها بدأت تصرخ بملء صوتها وهي تبكي، وتتابع صراخها حتى أيقظت كل من في الجوار بما في ذلك الحارس المدني الذي كان يقامر في الجوار. هكذا وصلت المسألة إلى مسامع الناس، واجتمع عدد كبير من المتفرجين أمام المبغى في لاديرا دو سان ميغيل عند نقل الجثمان، وأثارت التعليقات الوقحة قهقهات صاخبة؛ واستُدل على ابن الميت وهو عضو في مجلس الأمة. أرليت ولورا أُخذتا إلى مركز البوليس حيث تعرضتا لكافة أنواع الإزعاجات، وكان الوحيد الذي استفاد من الفضيحة هو الحارس المدني. استأنف لعبة ووضع خمسمئة ريس على رقم 7015 ، كمزيج من عمر المتوفى وعمر أرليت. حدس ذكي ومحظوظ، فلعبة الأرقام تتطلب حدة الذهن والمراقبة الدقيقة

لقوى الأقدار، والقدرة على استخلاص الدروس (والتخمين) من الأحداث.

حدثت أمور عديدة؛ بما في ذلك قصة حب فاسكو ودوروثي، الحب الذي ظل عنيفاً وحاراً، طائشاً وطاغياً لفترة من الزمن، إلى درجة وشم اسمها على ذراعه، اسمها الحبيب مع قلب، عمل نُفذ ببراعة من قبل رجل صيني ذي لحية هزيلة جاء إلى باهيا من حيث لايعرف أحد. وبدأت عواطفهما الفائرة تبرد تدريجياً كما يحدث في مجريات الحياة اليومية، وبدأ فاسكو يطيل النظر إلى نساء أخريات وينام في الخارج تارة هنا وتارة هناك على الرغم من أن دوروثي قضت الصيف كله تدفع الحوالات في البيت الصغير في أمارالينا، وكان يأخذها إلى حفلات الرقص وإلى بنسيون مونت كارلو. وحين جاء الشتاء عادت نهائياً إلى البنسيون، ونصحتها كارول، التي تفهم الطبيعة البشرية وهشاشة الهيام والغرام، أن تبتسم للزبائن الآخرين وتشجعهم. وحافظ فاسكو على حقوق الأولوية وبعض المسؤولية عن النفقات، ولكن القصيدة الغنائية انتهت.

ذلك الحزن القديم، الغم الذي يظلل عينيه ويربك ابتسامته استمر وتعمق، وبدأ أصدقاؤه يشكّون بجدية بوجود مرض سري، وأن فاسكو عرضة للموت خلال فترة قصيرة من الزمن، وأنه يحتفظ بالأمر لنفسه. ربما مرض القلب، لايعرفه إلا وهو والطبيب، ألم يمت أبوه بنوبة قلبية وهو مايزال شاباً؟ بالنسبة للعقيد ألنكار، الذي تشبث بهذه الفرضية بانفعال، هذا يفسر أموراً عديدة: عدم زواجه، طريقة بعزقة أمواله، توقه للحياة السريعة كأنه يريد أن يستمتع بأكثر ما يستطيعه من الحياة في الوقت القليل المتبقي له. لابد أن هذا هو السبب.

لكن ميناندرو غويماراس الطبيب المشهور واختصاصي القلب، والذي عرض فاسكو عليه دوروثي عدة مرات بسبب الرشح الدائم الذي كانت تعاني منه، سرعان ما ألغى لهم هذه الفكرة.

«قوي كالثور»، هكذا كان جواب الطبيب لمجموعة الأصدقاء، «قلبه كقلب الحصان، سيموت بالشيخوخة مثل جده، من أين جاءتكم هذه الفكرة الحمقاء؟».

«اللعنة!» قال القبطان جورج دياس نادرو: «سأكتشف ما يتأكّله، وأنا مستعد أن أراهنكم على أي شيء تريدونه».

وتفلسف الطبيب الذي لايعرف بوجود شيء إلا أمراض الجسد: «فاسكو مثلنا، المسألة جزء من تكوينه، لماذا تقلقون من ذلك؟».

ـ لأنني لا أحتمل رؤية الناس حزانى، على الأقل رؤية صديق لي.

كانت هذه بداية «مرحلة الاستقصاء الكبرى» كما سماها جيرونيمو. كلما تواجدوا مع فاسكو يبدأ القبطان جورج سبره، وتحويل الحديث إلى موضوعات متنوعة محاولاً انتزاع الاعترافات منه. استقصى عن طفولة فاسكو، مراهقته، السنوات التي قضاها في المكتب، رحلته كبائع جوال، علاقاته الجنسية الأولى، مخططاته، ولم يكتفِ مدير المرفأ باستجرار فاسكو؛ تحدث مع ميننديز، مع جوهان السويدي الذي كان مايزال مفتوناً بثريا والذي يعيش معها الآن، حتى أنه تحدث مطولاً إلى الزنجي جيوفاني. وكلها كانت اجتماعات بلا طائل. لم يسبق لجورج أن التقى بإنسان يملك هذه المبررات الكثيرة التي تجعله سعيداً سعادة كاملة مطلقة. لماذا، إذن، بحق الشيطان، هذا الحزن كله؟

لكن كل شيء في الدنيا يبان في النهاية حتى أكثر الأسرار صوناً، كل شيء يُعرف وكل لغز لابد سيكشف ذات يوم. كانت ليلة صخب عارم احتفالاً بعيد ميلاد الملازم ليديو مارينهو وخطوبته، لقد تم الإعلان عن خطوبة الملازم على ابنة مزارع من الجنوب بعد ظهر ذلك اليوم في جمعة أصحاب وحدد الزواج في كانون الأول.

بدأوا بالشرب مبكرين، قبل الإعلان الرسمي، واستمروا خلال العشاء الذي أقامه والد الفتاة في منزله في ساحة كامبو الكبرى.

وكان الشراب خمرة برتغالية وشمبانيا فرنسية، وحين وصلوا إلى بنسيون مونت كارلو، مجموعة كبيرة من الأصدقاء والنساء، وجدوا البهو مزيناً بأعلام ورقية شفافة، والبنات في أبهى زينة وعلى أتم الاستعداد، الخدم والأوركسترا كل في مكانه ولايوجد أي زبون. وكبرهان مؤثر على الصداقة أغلقت كارول أبوابها في وجوه الزبائن الآخرين تلك الليلة وحجزت البنسيون كله للحفلة.

زاد عدد المجموعة من أجل هذا الاحتفال الهام، كان هناك ضباط من الكتيبة 19، ومن سلطات المرفأ والشرطة العسكرية وزملاء من المجلس الاستشاري. لقد تنقل القبطان نادرو من مبغى إلى مبغى ومن بيت ترفيه إلى بيت ترفيه ليجمع كل محبي الملازم المعروفين ليفاجئه بهم. وقد رتب أن يكون الجميع في بنسيون مونت كارلو، مع العديد من الآخرين، بمن فيهم مدام لولو التي كان عليها أن تلقي خطاب الترحيب بليديو بأبلغ لغة فرنسية عرفتها بيوتات باريس. جورج وفاسكو تعهدا بالاستعددات للاحتفال، وقد أراداه أن يكون بالغ الأبهة لم يسبق أن أقيم مثيل له. وحين ذهبا إلى عشاء العازب كانا قد سكرا قليلاً؛ القبطان يضحك ضحكاً صاخباً والتاجر معتكر المزاج كما هو حاله دائماً كلما أكثر من الشراب. ففي كل بيت ترفيه زاراه كانا يأخذان كأساً؛ إذ سيبدو من قلة الاحترام للمدام والبنات العاملات لديها أن يرفضا.

كان فعلاً احتفالاً لم يسبق له مثيل، حفلة صاخبة ستتذكر إلى حين، واستعراض سينزل في حوليات المدينة. فعند الفجر كان الرجال بملابسهم الداخلية والنساء بالشلحات يسيرون في عراضة عبر باركا دو تياترو؛ الأمر الذي أفرح زبائن آخر الليل الذين كانوا يمرون هناك بالمصادفة وأمام أبصار الحراس ورجال الشرطة العاجزين عن فعل شيء، والذين سيكونون مجانين لو حاولوا التدخل في هذا الاستعراض البهي. فعلى رأس الموكب كان الدكتور جيرونيمو، ابن أخ المحافظ، حاملاً زجاجة شمبانيا وهو يغني بصوته الأجش.

وفي عز الاحتفال حين كان اللهو والمرح في أوجهما، وبعد أداء رقصة الكانكان غير المحتمشة من قبل مدام لولو، أعلن جورج للعقيد بدرو دو ألنكار، وهو يشير إلى فاسكو الذي كان غمه يتزايد مع كل كأس: «لقد أمسكت بالثور من قرنيه، هذا الحزين سيقول لي ما يؤلمه».

أزاح الخلاسية كلاريس عن ركبتيه وأمسك فاسكو من ذراعه وقاده إلى زاوية خالية من القاعة. «سيد أراغانزينهو.. الآن ودون أي إبطاء ستقول لي ما الذي يعلق في حوصلتك. افتح فمك واقذفه مع سعلة».

ـ أقذف ماذا مع سعلة؟

ـ ما هو ـ امرأة، مرض، ندم على جريمة... أريد أن أعرف سبب هذا الحزن الذي لديك.

تطلع فاسكو إلى صديقه وأحس بمودته واهتمامه الحقيقي. إن مدير المرفأ إنسان جيد.

ـ ما يزعجني هو شيء حين تقف لتفكر فيه تجده هراء. أعرف ذلك. لكنني لا أستطيع التخلص من إزعاجه لي ولذا فإنني أظل أفكر فيه.

ـ «تفكر بماذا؟» تلك كانت لحظة الحقيقة. كان جورج صاحياً تماماً. وصفا ذهنه كأنما بفعل السحر.

ـ لست نداً لكم... أنا لست...

ـ ما الذي لست عليه؟

ـ لست نداً لكم. ألا تفهم؟

ـ لا.

ـ أنظر. أنت مدير المرفأ، ضابط في البحرية، قبطان. بدرو عقيد. جيرونيمو طبيب. ليديو ملازم. وأنا؟ أنا لاشيء. وجه خرائي. سيد فاسكو. سيد أراغانزينهو. دون لقب من أي نوع.

تطلع إلى وجه القبطان وفتح قلبه ثم بث عواطفه الحبيسة: «سيد فاسكو.. سيد أراغا نزينهو... كلما سمعت من يناديني كذلك يحدث شيء ما في داخلي، إحساس بالإهانة».

- بين كل الهراء الأبله لم يخطر لي شيء كهذا. فكرت في كل شيء، حتى في أن تكون قد ارتكبت جريمة. كيف لي أن أعرف؟ ولكن ليس أن تكون متألماً لأنك لاتحمل لقباً... بحق الله...

- ولكن أنت لاتعرف....

- ياله من أمر مضحك! قبل أيام قليلة فقط كنا جميعاً نقول إننا سنقايضك بألقابنا ومناصبنا لكي نحصل على ما تحصل عليه... وهذا ينطبق على كافة أصناف البشر....

- أنت لاتعرف معنى أن تتجول طوال وقتك مع عقداء ونقباء وأطباء وأنت لاشيء.

وانفجر القبطان بغتة بالضحك وكأنه استعاد تأثير الشراب من جديد، وكأن أحزان فاسكو كانت أجمل نكتة. واستمر في الضحك. فانزعج فاسكو: «إن كنت ستضحك علي فلماذا سألتني؟» ونهض على قدميه.

أمسك به القبطان من كمه. «اجلس أيها الأبله الكبير» واستطاع أن يبتلع ضحكته. «تقصد أن تقول لي إنه لو كان لديك لقب لانتهت أحزانك هذه كلها... وهذا الوجه النكد؟».

- كيف لي أن أحصل على لقب وأنا بهذا العمر؟

- سأثّبت لك واحداً.

- أنت؟ سأله فاسكو متشكّكاً وهو يعرف ولع جورج بالتنكيت.

- نعم. أنا. أحزانك انتهت.

- أنظر يا جورج. سأطلب منك معروفاً. امزح في كل شيء تحبه. العب أية حيلة تريدها علي. ولكن ليس في هذا الخصوص. أطلب هذا منك كمعروف.

كان يتحدث برزانة وبانفعال عميق. وهز مدير المرفأ رأسه ثم ركز عينيه الزرقاوين على فاسكو: «لاتجن. هل يخطر لك أنني الشخص الذي ينكت على آلام صديق؟ قلت لك إنني سأرتب لك مسألة اللقب. وتستطيع أن تترك الأمر لي. أنا جاد. اليوم يوم فرح ولهو.، دعنا نشرب. غداً سنتحدث حول هذا الموضوع مرة أخرى. سأهتم لكل شيء».

في اليوم التالي، بعد الظهر بقليل أرسل القبطان بحاراً إلى بيت فاسكو مزوداً برسالة: القبطان ينتظره في مركز قيادة المرفأ. وكان التاجر مايزال نائماً من آثار احتفال الليلة الفائتة. جورج وحده لديه هذه المقاومة التي لاتصدق. يمكن أن ينام عند الفجر ومع ذلك يكون على رأس عمله في الوقت المحدد حليقاً باسماً وكأنه نام اثنتي عشرة ساعة.

تهيأ فاسكو بسرعة. وعادت إلى ذهنه المحادثة التي جرت بينهما وسط ذلك الحفل الذي لاينسى. أي لقب كان ذلك الذي وعده به جورج بجدية؟ مازال خائفاً من أن تكون مزحة. لكن صديقه كان يبدو جاداً. إن لنكاته حدوداً. ولكن في الوقت ذاته لم يكن فاسكو قادراً على أن يخمن ما هو الحل لمشكلته. فالألقاب والمناصب لايتم التقاطها من الشوارع.

حين وصل إلى مقر قيادة المرفأ وجد العقيد بدرو دو ألنكار هناك.

- لم أسمع ما هو أشد حمقاً من قبل يا فاسكو.

وأجاب فاسكو مرتبكاً: ليست المسألة أنني أريد ذلك. إنني أحاول أن لاأفكر في الموضوع لكنني لا أستطيع إبعاده عن ذهني. أريد أن لا أهتم بذلك وأنا فعلاً غير مهتم.

وكرر جورج: سأدبر لك لقباً. ما رأيك بلقب كبير البحارة؟ هل تعرف ما هو كبير البحارة؟

- إنه قبطان سفينة تجارية. أليس كذلك؟

ـ بالضبط. ما رأيك بالقبطان فاسكو موسكو دو أراغان، كبير البحارة؟

ـ ولكن كيف؟ سأل فاسكو وهو يلتفت إلى العقيد. كيف؟

ـ المسألة بسيطة جداً. سيوضح لك جورج كل شيء.

أغمض مدير المرفأ عينيه، وأسند ظهره على كرسيه الدوار ثم بدأ شرحه والبهجة على وجهه. في تلك الأيام لم يكن لقب كبير البحارة، مركز القبطان في سفينة تجارية، يتم الحصول عليه في المدرسة ومن خلال المواظبة على الدروس والامتحانات السنوية. كان يمنح لوكلاء الربان الأساسيين ومدراء الدفة ذوي الخبرة الطويلة ومرشدي المرفأ وضباط البواخر بعد فحوص تنافسية تجري في مقر قيادة المرفأ وأمام لجنة فاحصة مشكلة من ضباط البحرية. ويشتمل الفحص ـ وهو صعب جداً بالمناسبة ـ على تقديم دراسة كانت من طبيعة أطروحات الدكتوراة يثبت فيها المرشح تفوقه بوصف رحلة بحرية بموازاة شاطئ ما مع التفاصيل الجغرافية والتقنية الكاملة منذ الانطلاق من مرفأ محدد حتى الوصول إلى مرفأ محدد آخر. وفي هذه الدراسة يكون على المرشح أن يحل عدداً من المشكلات المتعلقة بعمل البحر: في بحر هادئ، وسط عاصفة، أخطاء ميكانيكية في السفينة، التعرض لخطر الغرق. وبعد قبول الأطروحة يأتي الفحص الشفوي حول موضوعات مختلفة، الإبحار بعد تقدير موقع السفينة دون الاستعانة بآلات الرصد، الأرصاد الجوية، القانون البحري وقانون المياه، قانون الأميرالية، القانون الدولي للبحرية، المحركات البخارية وآلية السفن. وبعد أن ينجح المرشح في هذه الامتحانات يستلم شهادته وبعدها يستطيع الذهاب إلى البحر لقيادة سفينة.

ـ بسيطة. أليس كذلك؟ سأله جورج وهو يمسك بقطعة من الورق أمام عيني فاسكو المذهولتين.

مر فاسكو بنظره على الكلام الجميل والواضح الطباعة. وعرف

أن الفحص في الإبحار الفلكي يشتمل على استخدام آلة السدس(*) وإصلاحها، واستخدام الخرائط ورسمها والمعرفة الكاملة بآلة التوقيت واستخدام البوصلة المغناطيسية ونظريتها وإصلاحها.

لم يحاول حتى أن يعرف ما هي الموضوعات الأخرى. ألقى الورقة على الطاولة. لم يعد لديه أدنى شك. جورج، مرة أخرى، يتسلى عليه.

ـ لقد وعدتني...

ـ بلقب. وأنا عند وعدي.

ـ أنك لن تقوم بأية ألاعيب أو مزحات!

ـ وأية مزحة أمزحها؟ رد القبطان غاضباً.

ـ ألا تسمي هذه مزحة؟ فحص مثل هذا. إضافة إلى أنني لست قبطاناً ولا حتى وكيل ربان ولامرشد سفن في مرفأ. السفينة الوحيدة التي سبق أن وضعت قدمي عليها هي إحدى تلك السفن التي تمخر نهر باراغوسو وأنا ذاهب إلى كاشويرا. وذهبت مرة إلى إيلهيوس على متن ماراهو من سفريات باهيا البحرية البخارية وأنا أطارد تنورة، فتقيأت أحشائي. لم أر في حياتي شيئاً يتقلقل مثلما كانت هذه تتقلقل ولاشممت نتانة مثلها.

ـ أنت على حق. ما نسيت أن أذكره هو أنه ليس من الضروري أن تكون قبطاناً ولا وكيل ربان ولا ضابط مركب لكي تنجح في الامتحان. الأمر متاح لكل إنسان. طبيعي، من حيث المبدأ، أن الذين ينجحون رجال بحر وبالعادة بعد تجربة طويلة. ولكن قبل فترة وجيزة، ومن أجل التأكد فقط، درست الشروط القانونية التي يتم الامتحان في ظلها فوجدت أنها متاحة لكل إنسان. وهذا كل ماأنت في حاجة إليه. وإضافة إلى ذلك لدي مسودة الطلب. وكل ما عليك أن تفعله هو أن تبيّضه وتوقعه.

(*) آلة لقياس ارتفاع الأجرام السماوية من سفينة أو طائرة متحركة ـ المورد.

وقدم له ورقة أخرى، أخذها فاسكو من يده وظل واقفاً.

- طيب. سأقدم الطلب. ولكن كيف سأنجح في الامتحان وأنا لاأعرف شيئاً من هذه التعقيدات كلها. لم أر في حياتي شيئاً معقداً أكثر من ذلك. هذا إذا نسينا الأطروحة. كيف سأستطيع كتابتها؟ أنا لاأحب حتى كتابة رسالة وكم وبخني جدي بسبب ذلك.

- لقد رتبت كل شيء. الأطروحة ووصف الرحلة من بورتو أليغري إلى ريو مع وقفتين في باراناغوا وفلوريانو بوليس قد تمت كتابتهما.

- أنت كتبتهما؟

- لا. أنا لا أصل إلى هذا الحد. لقد كبرت على أشياء كهذه. الملازم ماريو هو الذي يقدم لك هذا المعروف. حين ينتهي الموضوع قدم له هدية إذا أحببت... أي شيء صغير.

- كل ما يريد، إضافة إلى صداقتي الأبدية. ولكن ماذا عن الامتحان الشفوي؟ أنا لا أعرف شيئاً من كل ما على الورقة.

- الأمر بسيط جداً يا بني. لقد فكرت في هذا كله. سنصوغ سؤالين أو ثلاثة أسئلة عن كل موضوع ونضع الأجوبة في الوقت ذاته. وسنعطيك الأسئلة والأجوبة. احفظ الأجوبة عن ظهر قلب وقدم الامتحان وستنجح بدرجة شرف وتتلقى اللقب الذي تطمح إليه.

وبدأ فاسكو يشك أن العرض غير المتوقع صحيح فعلاً. وتابع جورج: ولاتنس أن اللجنة الفاحصة تشكل من قبلي وأنا رئيسها. سأعين الملازم ماريو والملازم غارسيا. إنهما طيبان. وهما من أصدقائك. وستصير قبطان بشكل رسمي وموثوق دون أن تعرض البشرية للخطر لأنك لن تحاول أن تقود سفينة.

- لا سمح الله.

نهض جورج وضرب فاسكو على ظهره: وإذا رأيتك بعد ذلك

كله بهذا الوجه الكئيب فسأجلب عصبة من البحارة وأجعلهم يعرفون شغلهم معك.

ـ ويوم حصولك على اللقب سنقيم احتفالاً من الدرجة الأولى. أكبر وأجمل من احتفال البارحة. من النوع الذي يتركك معلقاً على الحبال.

وأعلن جورج: سأعين موعد الامتحان بعد شهر من الآن.

وسأل فاسكو بخشية: ولم الموعد بعيد كل هذا الشيء؟

ـ ها. أنت مستعجل. أليس كذلك؟ يحتاج ماريو إلى وقت لإنجاز القسم المكتوب. وعليك أن تنسخه بخط يدك، وأن تحفظ أجوبة الأسئلة للامتحان الشفوي واحداً بعد الآخر ونقطة بعد نقطة. يجب أن يكون كل شيء على رأس لسانك. هذا هو الثمن الذي ستدفعه من أجل لقب رئيس البحارة، أيها القبطان المحتال.

ـ وماذا لو اختلطت علي الأمور وقت الامتحان أو فقدت أعصابي؟

ـ لن تختلط عليك الأمور ولن تفقد أعصابك. والآن، انقل المستلزمات ثم انقلع من هنا فلدي عمل أقوم به.

واقترح العقيد: لنبدأ بوضع المخططات للاحتفال.

انحنى فاسكو على الورقة وبدأ ينسخ ما فيها. داخ؛ فكل شيء يبدو حلماً مجنوناً غير حقيقي. وصلت الدموع إلى عينيه وصعب عليه النطق. لاشيء في الدنيا مثل الصداقة. الأصدقاء هم ملح الأرض. كان بوده لو قال لهما ذلك لكنه لم يعرف كيف يفعل.

حول الإبحار الفلكي والقانون الدولي البحري - فصل زاخر بالمعلومات

طوال شهر والقبطان جورج دياس نادرو يقهقه ساخراً على حساب فاسكو، على عصبيته وتركيزه في دراسته، وبهذه الطريقة كان يسترد ثمن الفضل الذي يقدمه له.

وكان لدى العقيد وجيرونيمو وليديو والملازمين ماريو وغارسيا ما يتسلون به أيضاً. حتى أن فاسكو خف وزنه نتيجة الجهد الذي بذله لحفظ الأجوبة المعقدة على الأسئلة الثلاثة المتعلقة بكل موضوع؛ وكلها معبأة بآلات السدس والرياح والتيارات البحرية والسفن المحسوبة حمولتها بالطن والمياه الإقليمية والبحار الوطنية وأجهزة قياس الرطوبة والأدوات المغناطيسية - طوشة.

بعد ظهر كل يوم، وبناء على تعليمات القبطان الدقيقة كانوا يخضعون المرشح المذعور إلى اختبار. في البدء كان فاسكو يتشوش بالكلمات غير المألوفة، فذاكرته كانت مستعصية على تلك التعابير الثقيلة على اللسان وهدده الملازم غارسيا بأن يرسّبه في الامتحان. وصار من المهام الصعبة إخراجه للعب البلياردو أو البوكر أو لزيارة الفتيات لأن فاسكو كان يريد أن يقضي لياليه في الدراسة.

وريّش ماريو وغارسيا في تلك الأيام الثلاثين. فقد كان فاسكو يدعوهما إلى الغداء كل يوم، ويدفع عنهما المشروب، والخمرة البرتغالية من أجود الأصناف ودعوات العشاء في بنسيون مونت

كارلو. وشيئاً فشيئاً استطاع السيطرة على الأجوبة وتآلف مع الأسماء المتقلبة للأدوات البحرية. وذات يوم جعله الملازم ماريو يرى بعض الأدوات في مكاتب قيادة المرفأ، واطلع فاسكو عليها بحماس. بدت له جميلة ومدهشة وبدأ يحب مهنته الجديدة.

أسوأ ما في الأمر أنه كان عليه أن ينسخ بخط يده الدراسة التي أعدها الملازم ماريو «أطروحة تخرجه» كما اعتاد أن يسميها. اثنتان وثلاثون صفحة من الكتابة غير المقروءة، (كأن ماريو طبيب وليس ضابطاً في البحرية) والمليئة بالتشطيبات. كان يقضي الصباح وهو يشتغل بها وقد أغلق على نفسه في البهو وأعطى أوامره للخادمة بأن لاتسمح لأحد بالدخول عليه أياً كان.

حين تم تقديم العمل وتمت الموافقة عليه تقرر أخيراً يوم الامتحان الشفوي. وكانت المراسم رزينة ووقورة، العقيد حاضر بملابسه الرسمية. والدكتور جيرونيمو والملازم ليديو مارينهو، ووقف البحارة حرساً على باب الغرفة التي اجتمعت فيها اللجنة الفاحصة، والمؤلفة من القبطان نادرو وملازمين حسني الأخلاق من الأسطول... وقد جلسوا بوقار وراء طاولة طويلة مغطاة بالأدوات والخرائط. وأدخل فاسكو من قبل أحد البحارة، شاحباً ومنفعلاً، وهو يكرر لنفسه، هامساً، المراجعة الأخيرة للأسئلة والأجوبة. وسمع اسمه يلفظ بتفخيم من قبل جورج فتقدم وجلس متشنجاً على الكرسي أمام الطاولة وقلبه يخفق كضرب المطرقة، لكن أجوبته جاءت سَلسة وصحيحة دون أي خطأ وحتى دون خطأ في اللفظ.

وبإجماع من اللجنة قدمت له شهادته ثم أدخل اسم رئيس البحارة الجديد وعنوانه في سجلات قيادة المرفأ. وحيثما تحرك صار عليه أن يعطي عنوانه الجديد إلى القيادة. كان الكتاب ضخماً مربوطاً بشريطة خضراء وعليه خاتم الجمهورية، وعلى كل صفحة هناك اسم ومعه تاريخ الفحص والعلامة التي نالها، والعمر والوضعية العائلة والعنوان، امتلأت بضع صفحات ولم يكن قبل اسمه إلا أسماء قليلة. وكل هؤلاء تقريباً «شهادات بختم مطاطي»

كما تسمى شهادات قباطنة القوارب النهرية، والتي لم تكن تحتاج إلى أطروحات مكتوبة ويكتفى من أجلها بالامتحان الشفوي. أعطيت هذه الشهادات إلى قباطنة الزوارق البخارية على نهر سان فرانسيسكو الذين تمنع عليهم رحلات البحر والطرق البحرية. لقب فاسكو هو الشيء الحقيقي، صالح للأنهار والبحيرات والبحار، يخوله قيادة السفن من كافة الأنواع والجنسيات وعلى كافة الطرق في المحيطات الخمسة، ومستكملة الشروط حسب قانون البحرية الدولي وعلم الإبحار الفلكي.

«والآن» قال العقيد بعد أن انتهى كل شيء وصار فاسكو ممسكاً بشهادته بحنو. «فلنحتفل. القبطان فاسكو موسكوسو دو أراغان، أسد البحار، أمسك الدفة وأبحر بنا نحو الماخور!».

كيف تمت فبركة بحار متمرس
دون سفينة ودون إبحار

لم يسبق، في تاريخ البحر كله أن كُرِّم مركز رئيس البحارة، وأن استُعمل لقب قبطان بهذا الحماس مثلما فعل فاسكو موسكوسو دو أراغان بتأطيره شهادته بإطار ذهبي وتعليقها على جدار البهو، وتصرفه كرجل تكونت سمعته في البحار البعيدة كما بنيت منزلته كملاح ماهر خبير.

طبع بطاقات باسمه مسبوقاً باللقب ومتبوعاً بالمركز. وقام بزيارة عائلات، سبق له أن التقى بها في حفلات في بيت المحافظ وفي حفلات استقبال دعي إليها، وترك لها بطاقة القبطان فاسكو موسكوسو دو أراغان، رئيس البحارة.

وكان متشنجاً في مسألة استخدام لقبه، يرفض التهاون في الإهانة باستخدام «سيد» قبل اسمه بعد الآن:

ـ كيف حالك يا سيد فاسكو؟

ـ عفواً. القبطان فاسكو، رئيس البحارة.

ـ آه... لم أكن أعرف. اعذرني.

ـ طيب. ها أنت تعرف الآن. وكن شاطراً بحيث لاتنسى.

يجيب هكذا وهو يقدم البطاقة التي استخدمها بشكل مكثف وخاصة في البداية.

في المباغي وبيوت اللهو حين تلف إحدى النساء من طالبات

المتعة ذراعيها حول رقبته وتهمس له في أذنه: «سيد أراغانزينهو...» يكون رد فعله صبوراً ولكنه صلب.

- يا عزيزتي. أنا لست السيد أراغانزينهو، عندي لقب. أنا القبطان أراغان من البحرية التجارية.

وحتى كارول صار عليها أن تغير تحيتها عند مقابلته على رأس الدرج، فتجعل المقاطع تتراقص على لسانها بإيقاع بهيج: «قبطان أراغانزينهو. يا قبطاني العزيز...».

وقد قدم العقيد ومدير المرفأ المثل الأعلى: القبطان هنا، القبطان هناك، على طاولة البلياردو. وعلى طاولة البوكر، مع شرب البيرة أو مع فتح زجاجة الشمبانيا.

وحتى المحافظ الذي أوضحت له الحالة والسعادة الجديدة التي تفيض في صدر صديق ابن أخيه الكريم، فتح ذراعيه على اتساعهما عندما رآه لأول مرة بعد منحه الشهادة: «كيف حال صديقي القبطان الشهم؟».

فانحنى فاسكو متأثراً بعمق: «في خدمة فخامتكم يا سيدي المحافظ».

وفي مكاتب شركة موسكوسو أند كومباني ليمتد حيث لم يعد يظهر أكثر من مرة أو مرتين في الأسبوع كما لو أن الرائحة التجارية لسمك القد المملح وسمك العجل المقدد تؤذي منخريه المشبعين بعبير الأمواج؛ كانت أوامر ميننديز إلى جيوفاني صريحة وواضحة: ليس مسموحاً ضمن أية ظروف لفظ اسم المعلم دون أن يسبق باللقب «قبطان». وعندما تلقى رافائيل ميننديز الأمر أحنى رأسه بالموافقة وهو يخفي ابتسامة خبيثة. وقال إن التكريم الذي لحق بفاسكو شرف كبير للشركة كلها. ثم فرك كفيه الرطبتين دائماً.

أما جيوفاني، الذي دهش ولم يفهم هذا التغير البحري المفاجئ للمعلم، لكنه اعتبره ملائماً ومعطى لمن يستحقه، فصار يحكي له قصصاً عن أيام عمله كبحار، وحين يأتي فاسكو إلى الشغل

صار يقضي معظم وقته مع جيوفاني الذي صار عليه أن ينبش في أعماق ذكرياته.

بعد البطاقات كان اهتمامه الثاني بالملابس. ولم يستطع خياطه، وهو واحد من أفضل خياطي المدينة، أن يجهزه بما يلائمه لكنه أعطاه عنوان خياط في بايكسا دو ساباتيرو، المتخصص بالبذلات الرسمية. وكان ضباط السفن على خط باهيا يوصون على بذلاتهم عنده، وكذلك الأمر بالنسبة لضباط الجيش. وأيام الكرنفال كان يقدم ملابس أمير روسي أو كونت إيطالي أو فارس فرنسي أو قرصان بلا وطن للمحتفلين.

ولم يسبق لمهنة الخياط، في تاريخها، أن تلقت طلبية كبيرة كهذه ومن زبون واحد. لقد ولّدت صخباً حقيقياً. كان فاسكو يريد، على الأقل، بذلتين من كل نوع، صيفية وشتوية، للشغل والخروج، رسمية وغير رسمية، زرقاء وبيضاء، مع طاقية ملائمة ومع شريط زينة ذهبي من عيار (14) قيراط. جهاز عرس حقيقي. وكان على عجلة من أمره. يريد، حتماً، أن تكون لديه إحدى البذلات خلال أسبوعين من أجل مسيرة الثاني من تموز. ووعد الخياط، في نوبة حماس، أن يشتغل وقتاً إضافياً وأن لاينام من أجل أن تكون البذلة البيضاء جاهزة لمسيرة الصباح والزرقاء لحفل استقبال المساء في منزل المحافظ. وبالمقابل وعده فاسكو بإكرامية عالية لعمال الإبرة المجدين.

ذلك الصباح للثاني من تموز كان تمجيداً حقيقياً حين ظهر القبطان فاسكو موسكوسو دو أراغان ببذلته البيضاء مع الكتافيات الذهبية، في لارغو دا سوليداد ـ والكل متجهزون للمسيرة، عربات أهل الشمال، وعوامات تحمل صور ماريا كويتيرا ولاباتو وجوانا أنجيليكا، الخطباء في أماكنهم، العقيد بدرو دو ألنكار على رأس الجنود الواقفين باستعداد، والقبطان جورج دياس نادرو على رأس بحارة قيادة المرفأ، والفرق الموسيقية العسكرية تعزف المارشات، وانضم إلى جماعة القيادات المدنية التي تنتظر المحافظ.

برأس مرفوع استمع إلى الخطابات وقلبه يخفق بالحس الوطني والفخر. وسار بجانب جيرونيمو وراء المحافظ والعقيد ومدير المرفأ إلى لارغو داسي حيث أحيا الأسقف في كنيستها الواسعة المهيبة نشيد «إلهك - تي ديوم». ومن أجل حفل الاستقبال في تلك الليلة لبس لباسه الرسمي، الأكثر تناسقاً وأناقة على الرغم من أن الحرّ كان أشد من جهنم. في الجمع كله لم يكن هناك من هو أكثر أناقة ورقياً، وذا مظهر أكثر تميزاً وتكريماً.

جاء جورج وهنأه: «إنك كامل تماماً. سيغار منك فاسكو دا غاما لو رآك. ينقصك شيء واحد فقط ليكتمل بهاؤك».

- ماهو؟ سأل فاسكو بقلق.

- وسام يا ولدي. وسام أنيق.

- لكنني لست من الجيش ولست سياسياً. من أين سأحصل عليه؟

- سنحصل عليه. سنحصل عليه. سيكلف بعض المال لكنه يستحق.

وتفاوض جيرونيمو مع القنصل البرتغالي، الذي كان يملك محل معجنات في باركا مونيسيبال موحياً له باهتمام الحكومة في تكريم القبطان فاسكو موسكوسو دو أراغان.

- ولكن أليس هو أراغانزينهو من شركة موسكوسو أند كومباني التي يمتلكها جوزيه موسكوسو العجوز، عند سفح لادييرا دا مونتانها.

- هو ذاته. ولكنه الآن قبطان في البحرية التجارية.

- لم أعرف أنه ذهب إلى البحر.

- لم يذهب. ولكنه خاض الامتحانات المطلوبة قانونياً.

- كنت أعرف جده جيداً. أحد البرتغاليين الصلبين الشرفاء، رجل ممتاز. ولكن لماذا يهدي صاحب الجلالة المهيب وساماً للحفيد؟

نفض جيرونيمو رماد سيجاره وغمز بعينه ساخراً: «من أجل مآثره البحرية الشهيرة».

ـ البحرية؟ حد علمي أنه لم يركب البحر أبداً...

ـ إسمع يا سيد فرنانديس. الرجل راغب في الدفع. صاحب الجلالة المهيب، والمفلس، سوف يمنح وساماً لصديقنا الطيب أراغانزينهو مقابل رزمة جميلة من النقود. وإن لم يكن هناك سبب آخر فتذكر أن اسمه فاسكو وتذكر أنه قبطان وحفيد شخص برتغالي، وعملياً هو من أقارب الأميرال فاسكو دا غاما... لِمَ نتجادل حول هذا الموضوع أكثر من ذلك بحق الشيطان؟ أنت اخترع السبب، وعلّق الوسام وعجِّل ما استطعت.

وهكذا تم تكريس أمجاد القبطان فاسكو موسكوسو دو أراغان، بعد عدة أشهر ودفعة من خمس كونتوسات مقدماً، عندما منحه صاحب الجلالة دون كارلوس الأول ملك البرتغال والألغارف لقب فارس في خدمة المسيح، الذي يعود تاريخه إلى سبع مئة سنة، إلى أيام الصليبيين من أجل «مساهمته البارزة في فتح ممرات بحرية جديدة». مع الميدالية والسلسلة. شيء يستحق أن يُرى. وكان الاحتفال بسيطاً وودياً على الرغم من أنه ذكر في الصحف، ثم احتفل به احتفالاً ملكياً فيما بعد مع الشيري براندي والخمرة البرتغالية حسب العادة المكرسة تاريخياً.

مع اللقب والبذلة والوسام لم يعد فاسكو موسكوسو دو أراغان يزعج عيني مدير المرفأ بوجهه المكتئب. فرحته اكتملت وفاضت. ولم يسبق لأحد أن كان سعيداً بهذا المقدار وهو يمشي في شوارع مدينة سلفادور دو باهيا القديمة.

صار الآن يقضي قسماً كبيراً من وقته في حوانيت بيع الأنتيكات (يوجد حانوتان فقط في سلفادور) بحثاً عن قطع بحرية وأدوات إبحار. وكان مستعداً لدفع أي سعر لقاءها. وبهذه الطريقة بدأ مجموعته من الخرائط والسفن المحفورة، وآلات السدس

والبوصلات والساعات العتيقة. كما جلب له القبطان جورج بعض الأدوات من رحلة إلى ريو كهدية.

واغتنى متحفه البحري كثيراً عندما تحطمت سفينة إنكليزية قرب شواطئ باهيا في مكان ليس بعيداً عن العاصمة. وأنزلت محتوياتها في المزاد بناء على أمر المحكمة وكان المزايد الأكبر هو القبطان فاسكو موسكوسو دو أراغان. اشترى عجلة قيادة السفينة وزوجين من المناظير الجميلة وكرونومترات (أداة قياس الزمن) وبوصلات وأدوات قياس الرطوبة وساعة السفينة وسلماً من الحبال هذا عدا عن صندوقين من الويسكي من أجل أصدقائه.

وظل هوس جمع الأدوات البحرية يلازمه سنوات عديدة. التقط تلسكوباً من مغامر ألماني زار باهيا بالصدفة. أراد الألماني أن يستثمره في الشارع إذ يتقاضى ألف ريس من كل زبون لقاء التطلع به إلى السماء والقمر والنجوم. لكن مغامرته فشلت. وصار عليه أن يدفع حساب المنامة والطعام. وظل التلسكوب يتأرجح في بيت بريس الذي كان القبطان يخطط للرحيل عنه.

وأفضل ما في المجموعة بالنسبة إليه نموذج مصغر لسفينة «بينيديكت» تظهر فيه أدق التفاصيل في عابرة المحيطات هذه المحفوظة في علبة زجاجية، وكانت هدية عيد ميلاد من جيرونيمو. لقد اكتشفها الصحافي في الطابق السفلي من مبنى المجلس التشريعي. وكانت العلبة مغطاة بالغبار ومرمية في زاوية كأنها شيء لاقيمة له. وجن فاسكو بها فلم يجد كلاماً ليشكر صديقه على الهدية.

وفي إحدى محادثاته المطولة مع جيوفاني عرف أنه كان من عادة ضباط السفن، وخاصة القبطان (القبطان)، أن يدخنوا الغليون، فالقبطان الذي لاينفخ الغليون ليس بالقبطان الحقيقي حسب الرأي الموثوق للزنجي العجوز. وفي اليوم التالي ظهر فاسكو أمام

أصدقائه وهو يتحسس بارتباك غريب غليوناً إنكليزياً. كان التدخين فيه أمراً عسيراً وهو ينطفئ كل لحظة. لكنه مع الوقت تعلم كيف يتعامل معه وسرعان ما صارت لديه مجموعة متنوعة الأشكال ومختلفة المواد التي تصنع منها، بينها ما هو من شجر الخلنج وبينها الصيني والمرشوم.

بين حين وآخر، وبعد الظهر تماماً، يذهب فاسكو لزيارة القبطان جورج دياس نادرو في مقر قيادة المرفأ. فيرتدي بذلته الرسمية ويمسك قبعته بيده ويضع غليونه في فمه. ومن نافذة المكتب يرقب البحر ويتطلع إلى السفن وهي تقترب من الحوض.

وذات يوم بينما كان ينتظر العقيد في أحد البارات تعرف إلى سيد من بيلان أركادو. تحدثا قليلاً فسحر ابن المنطقة النائية بمعرفته بهذا المدني.

- إذن فالسيد قبطان سفينة؟ ولكنها سفينة حقيقية وليست كتلك القوارب النهرية، التي تظل تجول من حولنا؟ لابد أنك رأيت الكثير. احك لي شيئاً واحداً يا سيدي: هل سبق لك أن سافرت إلى جوار الصين أو اليابان؟

واستقرت عينا القبطان البريئتان على الوجه الملوّح لهذا الرجل القادم من بيلان أركادو وقال: الصين واليابان؟ عدة مرات. نعم ياسيدي. أعرف هذه المناطق كلها.

- قل لي إذن شيئاً واحداً كنت أتمنى معرفته دائماً - وانحنى هامساً بسرية علىَ الطاولة - هل صحيح أن النساء هناك لاشعر لهن إلا على رؤوسهن، ولا شعرة في أي مكان آخر وأن فروجهن بالعرض؟ سمعت هذا من بعضهم.

- كذب. إنهم يستغفلونك فقط. هن مثل النساء في كل مكان. أنحف فقط. لكنهن متعة حقيقية.

- بصدق؟ كيف هن؟ هل جامعت الكثيرات منهن؟

- مرة في شانغهاي كنت أمشي في الشارع دون هدف محدد... وفي زقاق منحدر التقيت بفتاة صبية تبكي. كان اسمها ليو...

والتمعت عينا ابن المناطق النائية الساذج فيما كان القبطان فاسكو موسكوسو دو أراغان يغرق وسط أسرار شانغهاي الغامضة، في أحلام الأفيون، تقوده ليو الصينية الصغيرة المكونة من العاج واللك(*).

خيم العصر على لارغو داسي، وسقطت قرمزية الشمس الغاربة على الحجارة السوداء في الكنيسة القديمة. وانطلق فاسكو في رحلاته وليو تقوده من يده.

(*) ورنيش للطلي والصقل.

تقطيع الوقت، والتغييرات في الحكومة والشركة، مع عمليات احتيال، ورأس مرفوع عالياً

كان القبطان فاسكو موسكوسو دو أراغان عند كلمته. لم يظهر، بعدها، أبداً أمام القبطان جورج دياس نادرو بوجه مكتئب. لقد حصل على لقبه. وكان سعيداً. لا حزن. لا متاعب يمكن أن يجلبها المستقبل لتنشر القلق على محياه الوضيء، أو تشوش سعادته الغامرة. قد ينزعج أو يحزن لفترة وجيزة لكن مزاجه الأصلي سرعان ما يؤكد نفسه، دون أن يترك مجالاً للحزن، ودون اهتمام كبير بمنغصات الحياة.

وفي الوقت ذاته لم يكن هناك نقص في الحزن أو المنغصات. ولكن قبطان سفينة، كبير بحارة، يتعود وهو في مهد الأعماق على تقلبات البحر والطقس مما يصقل شخصيته ويقوي قلبه. ويعلمه على مواجهة خدع الحياة وتقلباتها ببسمة على شفتيه.

إحدى أكبر الضربات، وأولها في الترتيب، نَقْلُ جورج دياس نادرو الذي أُبعد وعين قائداً لمدمرة. كيف يمكن تصور حياة الليل في باهيا، في مواخيرها، وبيوت الترفيه فيها، وحفلاتها الصاخبة، ونسائها، وسحر الحب فيها، دون وجود ذلك البحار الأشقر الشعر، الأزرق العينين، مبتكر الكذبات والنكات والمنوعات المسلية المصحوب دائماً بفتاة زنجية أو خلاسية؟ حين انتقل الخبر إلى

النساء وبوم الليل ساد ذعر عام وشامل وانهمرت دموع وانطلق ندب وهيئت حفلة وداع تليق بالمقام.

«الذقن عالياً يا قبطان» قال جورج لفاسكو حين رآه في ليلة حفل الوداع حزيناً وصامتاً. «البحّار لايسمح للحزن أن ينال منه».

وفي اليوم التالي ذهب الجميع لوداعه على متن سفينة بخارية ستقله إلى ريو، فرأوا لأول مرة زوجته غراسينها تلبس ملابس الحداد ووجهها الشاحب مغطى بخمار أسود وشفتاها خط مشدود. وحين قُدِّمت لهم مدت رؤوس أصابعها الباردة. وعندها أدرك فاسكو أن الكلمات التي قيلت في الليلة الفائتة على لسان المدير السابق للمرفأ لم تكن عبارة فارغة: «البحار لايسمح للحزن أن ينال منه». بغتة اتخذت هذه الكلمات معنى محدداً. لم يسمح جورج للحزن أن ينال منه، ولم يسمح لنفسه أن يهزم.

عادوا إلى البلدة، ولعبوا البلياردو لكنها لم تعد اللعبة ذاتها، فغياب جورج يملأ البار، وبنسيون مونت كارلو، بغتة صارت الليلة خاوية.

كان الملازم ليديو مارينهو قد تزوج في العام الفائت، وغاب عن الوسط لفترة. لكنهم جميعاً كانوا يعرفون أن غيابه مؤقت وأنه سيعود إليهم عندما تنتظم الحياة الزوجية وتصبح عادية. وهكذا كان. وصار عندما ينتهي عمله في مبنى المجلس التشريعي يظهر على طاولة البلياردو. وفي معظم الليالي ينضم إليهم على العشاء، ثم يذهب معهم إلى البنسيون ليرقص. وكان أحياناً يختلي بإحدى البنات ذلك أنه مايزال يثير الجلبة في هدوء أمكنة الترفيه. الزوجة لتلد له الأولاد وترتب البيت وتسلي الضيوف، لكن جورج قد فُقد نهائياً. سيشكل شلة جديدة في ريو من زملاء البحرية والأصدقاء الآخرين. كانت ليلة متعبة لكن فاسكو تذكر كلماته ورأى شكل غراسينها المحبط، فأثار الحيوية في الآخرين. البحار لايسمح للحزن أن ينال منه.

مدير المرفأ الجديد، الذي حل محل جورج، والذي كان يمكن أن يأخذ مكانه في الشلة لم يلحق إلا بعد مضي أشهر وكان خيبة حقيقية: شخص متحفظ لا اجتماعي يخاف من المرح ومن النساء الخليعات، كله وقار وحذر. فتوقف فاسكو عن زياراته لمقر قيادة المرفأ.

لكنه ظل يزور المرفأ لمراقبة السفن تقترب من الرصيف وللإعجاب بدقتها والتعرف على أعلامها وللحصول على ملحقات بحرية حيثما استطاع العثور عليها، وعلى صور للسفن. وظل يخرج كل ليلة مع جيرونيمو والعقيد للعب البوكر ولكي يفقد صوابه فوق إحدى النساء. في ذلك الحين كان قد تجاوز الأربعين بقليل وكان الجميع قد تعودوا على مناداته: قبطان.

اقتربت نهاية فترة ولاية المحافظ؛ وكانت نهاية محزنة، فرئيس الجمهورية، متأثراً بأعضاء آخرين في الدوائر الداخلية للحزب، لم يكتف بالاعتراض على المرشح الذي اقترحه المحافظ ليخلفه بل إنه حجب عنه مقعداً في مجلس الشيوخ كان يحفظ تقليدياً للمحافظين المتقاعدين. لقد حصل على المقعد ولكن انتخاب جيرونيمو إلى مجلس الأمة، ومهمته السياسية، صارا في الحضيض. عُيِّنَ في وظيفة في وزارة العدل في ريو، محامياً أو شيئاً من هذا القبيل. لم تكن وظيفة سيئة. لكن مطامحه السياسية أحبطت تماماً.

ومع التغييرات في الحكومة رحل بدرو دو ألنكار أيضاً. وعين عقيد آخر مكانه في قيادة الكتيبة التاسعة عشرة، وهو صديق لرئيس الحكومة الجديد. ولم يرغب فاسكو حتى في الالتقاء به. فقد كان حافظاً للود مع أصدقائه ولذكرى تلك الشلة الشهيرة، فاختفى من مبنى المجلس الاستشاري ومن الاستقبالات والحفلات الاجتماعية. ظل يشترك في مسيرات الثاني من تموز والسابع من أيلول وهو يرتدي ملابسه الرسمية، لكنه لم يعد يشكل جزءاً من التجمع الحكومي بل مجرد واحد بين الجمهور.

لم يشأ أن ينضم إلى جماعة أخرى ولا أن يصبح عنصراً في شلة أخرى. فواحد مثله، كان مع نخبة المدينة، لم يعد في وسعه الانضمام إلى التجار والموظفين ولا حتى إلى الأطباء والمحامين الشبان. صار يجلس في بيوت الترفيه والكباريهات على طاولته وحيداً وصارت الشمبانيا التي يشربها تكتسب طعماً مراً وحزيناً.

ثم، ذات يوم، باعت كارول البنسيون لقَوَّاد أرجنتيني، وهو شخصية كريهة لايفكر إلا في الدولارات والسنتات. ودعها فاسكو وهي ترجع إلى غارانهونس. لقد مات صهرها وصارت أختها في حاجة إلى مساعدتها ورفقتها. وعلى رصيف المرفأ استرجعا ذكريات الليالي الجميلة التي قضياها معاً وتذكرا أصدقاءهما: جيرونيمو الذي كان عشيقها والملازم ليديو مارينهو الذي صار الآن نقيباً واستقر في بورتو أليغري، والعقيد بدرو دو ألنكار الشرّيب الذي لايضاهى والقبطان جورج دياس نادرو الذي لاينسى بِسِمَتِهِ الأجنبية وحماسه البالغ للمومسات السوداوات والذي كان في منتهى الظرف. هذا كله انتهى بالنسبة لكارول. ستذهب الآن لتساعد في تربية بنات الأخت وأبنائها، وتصير سيدة محترمة: أرملة غنية في المدينة الرصينة التي ولدت فيها.

قَبّلَتْ فاسكو على خديه وسألته والدموع في عينيها: «أتتذكر اختطاف دوروثي؟»».

أين هي دوروثي الآن؟ عقيد من المناطق النائية وقع في حب عينيها القلقتين. كان أرمل فأخذها معه إلى المزرعة. لقد نام فاسكو معها في الليلة السابقة لرحيلها، وكانت ليلة مجنونة. كأنما السحر القديم، والعاطفة المتفجرة، قد ولدا من جديد وبقوة الأمس ذاتها. ولم يعودا يسمعون عنها شيئاً ولم يعرفوا ما إذا كانت قد بقيت في المزرعة أم لا. ولكن على ذراع فاسكو الأيمن كان اسم دوروثي مع صورة قلب مازالا موشومين.

- هل تذكر الصيني الذي قام بالوشم؟

ذكريات كثيرة، وأشياء عديدة أمكن استرجاعها في الطريق إلى الرصيف. ورفعت السفينة مرساتها للذهاب إلى ريسيف. ولوحت كارول منديلها مودعة وهي تبكي، «البحار لايسمح للحزن أن ينال منه». حتى حين يكون يتيماً مهجوراً على الأرصفة الخالية في المدينة.

ومرت السنوات. اختفى القبطان فاسكو موسكوسو دو أراغان تدريجياً من المباغي وبيوت الترفيه. كما أنه لم يعد الرئيس أو المعلم لشركة موسكوسو أند كومباني ليمتد. مات جيوفاني الزنجي وهو يكرر تحذيراته من مييننديز وأن هذا الغرينغو ـ الغريب الشمالي ـ ليس جيداً. ولكن حين قرر فاسكو الأخذ بنصيحته وأن يمارس السيطرة الفعلية على الشغل كان مييننديز قد حول نفسه إلى مالك فعلي للشركة. ففي تلك السنوات العشر من الحياة الصاخبة كان فاسكو قد بدد كل ما كان يملكه وقسماً لابأس به مما لايملكه؛ وصارت ديونه باهظة. وعقدت مفاوضات طويلة ومعقدة بالاستعانة بمحامين أذكياء وطماعين. وفي النهاية ترك فاسكو الشركة بعد أن استلم بعض الأملاك التي تدر إيجاراً وعدداً من العقود الحكومية التي تدر عليه دخلاً يمكّنه من العيش بتواضع. باع البيت في بريسي واشترى بيتاً أصغر في لارغو دواس دو جولهو حيث وضع أدواته البحرية وعلق شهادة رئيس البحارة على جدار الصالون فيه وشهادة منح رتبة فارس في خدمة المسيح والعلبة الزجاجية التي تحتوي على نموذج «بينيديكت» على الطاولة في الوسط.

«البحار لايسمح للحزن أن ينال منه» حتى حين يتحول من مليونير إلى مالك لما يكفيه للعيش فقط، وحين يغيب أصدقاؤه، ولايعود يقطف الأزهار من حديقة الحب وحين يفقد شهيته للمشروب وينعس قبل منتصف الليل. وفي البيت الجديد ومع تآلفه مع الجيران الذين لم يكن يعرفهم من قبل صار القبطان فاسكو موسكوسو دو أراغان مألوفاً ومحترماً. وفيما هو يجلس على كرسيه على الرصيف صاروا يجتمعون حوله للاستماع إليه وهو

يحكي لهم مغامراته البحرية. وظلت لديه طباخة جميلة تعتني به، خلاسية فتية منتقاة بعناية.

مرت سنوات أخرى. وشاب شعر القبطان. ولم تعد طباخاته جميلات جداً. وصارت نفقات المعيشة عالية لكن دخله لم يصبح كذلك. وحتى جيرانه لم يعودوا يتعاملون معه بالجدية السابقة؛ ووجد بينهم من يقول إنه لم يدس سفينة في حياته وإن لقب القبطان نتيجة تطبيقه أيام حكومة جوزيه مارسيلينو وإنه اشترى وسام المسيح بسعر خيالي حين كان يلعب بالمال وإن سفير البرتغال في باهيا قد كوفئ من قبل تاجر.

بعد ما يقرب من عشرين عاماً من الاحتفال في مقر قيادة المرفأ جاء شخص تافه وفتح محطة وقود في الشارع فراح فاسكو، المستعد دائماً لعقد صداقات، يحكي له عن العبور الرهيب للخليج الفارسي وسط الأعاصير. لكنه قاطع الحكاية البطولية بضحكة ساخرة: «لاتعاملني بهذه العملة. وفِّر هذا الهراء للبلهاء. أتظن أنني لا أعرف كل شيء عنك؟ الجميع يضحكون عليك من وراء ظهرك. عندي شغل كثير يا سيد قبطان ولا وقت لدي أضيعه بالاستماع إلى حكاياتك».

«البحار يبقي ذقنه مرفوعة». لكن صار من الصعب البدء من جديد. أين جورج دياس نادرو الذي لابد أنه صار الآن أميرالاً؟ أين جيرونيمو والعقيد ألنيكار والملازم ليديو والملازم ماريو؟ دوروثي - كم هو جميل أن أرى جسدك اللدن وعينيك القلقتين وخديك الملتهبين... أما تزال كارول تعيش في غارانهونس في برنامبوكو وتعتبر نفسها أرملة وتربي بنات أخت وأبناء أخت؟ ظل يذهب إلى مواجهة الشاطئ سواء كان الطقس ماطراً أم مشمساً ليرقب رحيل السفن ودخولها والتعرف على كل علم.

لم يعد يستطيع السير برأس مرفوع إلى لارغو دواس دو جولهو، ولا في أي شارع آخر في سلفادور دا باهيا. باع البيت

بسعر جيد. واشترى البيت في بريبري، الضاحية البعيدة عن صخب المدينة. أخذ معه الخلاسية بالبينا، طباخته وضجيعته، وأدواته البحرية وعجلة قيادة السفينة والمناظير والتلسكوب والغلايين وشهادته المؤطرة وماضيه على متن السفن وهو يفلع البحار وسط العواصف، ورحل.

جوابُ بحارٍ عجوز برأس مرفوع وشعره يتطاير مع الريح على رأس الجرف(*).

(*) يمكن ترجمتها «على رأس الكذبة» فهي تحمل، وتحتمل، المعنيين.

حيث الراوي المهذار، وعينه دائماً تترصد الفرصة السانحة، يلجأ إلى القدر

كما ترون، حين يبدأ مؤرخ جاد ومستقصٍ حقيقي في التنقيب في أحداث مشوشة مثل هذه الأحداث يقع بغتة على روايات متناقضة ومتضاربة للوقائع ذاتها. وكل منها صحيحة مثل الأخرى. من تصدق؟ أي من الروايتين تأخذ: الرواية التي تقول إن القبطان رجل ذو ميزات لايرقى إليها الشك؟ أم رواية شيكو باشيكو، ذات التفاصيل الكثيرة التي يمكن إقامة الدليل عليها وإثباتها؟ أي من الروايتين يمكن تفضيلها وطرحها على ثقة القارئ؟ كيف أستطيع الوصول إلى قاع تلك البئر التي تكمن فيها الحقيقة والتي روكمت فيها العقبات والعوائق - عجلات قيادة سفن، ونساء بغايا - لإخراجها (الحقيقة) نقية وعارية لتدعيم ذاكرة إحدى الروايتين المتناقضتين وتعريض الأخرى للسخط العام؟ أيهما نؤيد وأيهما نفضح؟ بمنتهى الإخلاص والصدق أعترف أنني، عند هذه النقطة، أجد نفسي مبلبلاً ومرتبكاً.

طلبت نصيحة الدكتور ألبرتو سكويرا، مصباح عدالتنا الهام، الذي تتضارب الآراء حوله. فبما أنه قد عمل قاضياً طوال سنوات عديدة في الداخل وفي العاصمة لابد أن يكون في وضع يستطيع من خلاله أن يميز الحقيقة وسط هذه الفوضى كلها. تحاشى الموضوع بأن قال إنه من المستحيل عليه أن يطلق حكماً أو يعطي رأياً قبل دراسة الدليل المقدم للقضية دراسة متأنية أولاً؛ كما لو أنه يستمع إلى دعوى شيكو باشيكو على الدولة، ولايبدي رأياً في مسألة بحث تاريخي وَضَع هدفاً له الجائزة التي يقدمها الأرشيف العام! انزعجت

للمعاملة التي عوملت بها أوراقي وقلت له ذلك. لكن القاضي المقتنع بنفسه أجاب بفظاظة أن هذا العمل يكشف عن نقص في الفكرة الأولية عن ماهية الدراسة التاريخية وكيف يجب أن تكون بدءاً من مسألة التواريخ. فما من أحد يعرف متى حدثت الأحداث المذكورة، والزمن الذي مر بينها، واليوم والشهر والعام الذي ولد فيها أو مات المساهمون الأساسيون فيه. من سمع عن عمل تاريخي دون تواريخ؟ ما هو التاريخ إن لم يكن تتالي تواريخ حدوث الأفعال والوقائع.

ابتلعت النقد دون أن أقول كلمة. لم أكن قد فكرت في هذه التفاصيل. ولهذا فإنني في الوقت المناسب سأوضح المسألة بتقديم أكثر التواريخ أهمية. فأنا لا أعرف تاريخ ميلاد أو موت أي منهم ولا حتى موسكوسو العجوز أو المحافظ نفسه. أما في ما يتعلق بالقبطان فإنه قد مات في ضاحية بريبري عام 1950 وعمره اثنان وثمانون عاماً، وبعملية طرح يصير من الواضح أنه ولد عام 1868 وأنه كان في حوالى الثلاثين من عمره عندما صار صديقاً ودوداً لتلك الشخصيات الهامة. والأحداث التي حكى عنها شيكو باشيكو، سواء كانت حقيقية أم خيالية، يجب أن تكون قد حدثت في بداية القرن بين فترة حكم جوزيه مارسيلينو، التي بدأت عام 1904 ومجيء القبطان إلى بريبري عام 1939 . ماهي التواريخ الأخرى التي علي تقديمها؟ فلنقل بصراحة إنني لا أعرف. وإضافة إلى ذلك فإنني طوال عمري لم أكن أستطيع حفظ التواريخ في كتب التاريخ أو أسماء الأنهار والبراكين في كتب الجغرافيا.

وأكثر من ذلك أيضاً إن الحكم البليد الذي أطلقته فضيلته لم يقم على أساس المعيار النقدي المجرد بل على أساس نية سيئة محددة تكونت مؤخراً لديه ضدي. وقد بدأ الأمر قبل عدة أيام. توقف عن معاملتي بالاحترام الذي كان يظهره لي سابقاً. ولم يعد يدعوني معه إلى بيت دوندوكا بعد الظهر. وعلى الرغم من كثرة تملقي له بمدح أفكاره وفضائله ظل نافراً يتطلع إلي بنظرة تأنيب. لا أعرف سبب تغيره المفاجئ؛ لابد أنه نتيجة لدسيسة؛ فليس مثيرو القلاقل قلة في

بريبري. وكثير من هؤلاء الأوغاد يحسدونني على صحبتي لقاض ينشر في صحف تصدر في الجنوب.

بل إن تفكيري وصل إلى ماهو أسوأ من ذلك. لدى فضيلته شكوك، لم تؤيد بعد، عن مجريات الأمور بيني وبين دوندوكا. هذه كارثة. وحين ناقشت الموضوع مع الصبية الحلوة ازدادت مخاوفي لأنها هي، أيضاً، قد لاحظت تغيراً على القاضي. صار كثير الأسئلة يفحص أوجه المخدات والشراشف ويطالبها دائماً بالتعهد بالإخلاص له.

ثم جاءتني هذه: وكأن متاعب عملي لاتكفيني؛ لتجيئني المهمة الشاقة في إعادة بناء الحقيقة حول مغامرات القبطان المشكوك فيها. أمامي هنا كومة من الملاحظات ورؤوس الأقلام التي هي نتيجة تحرياتي. وماذا يحدث؟ إذا أخذت إحداها أجد نفسي في عرض البحر مبحراً إلى آسيا من طريق أوقيانوسيا وأجد دوروثي الزوجة التعيسة لمليونير جلف الطباع تتخلى عن زوجها بسبب حبها لقبطان سفينة، تذوب عاطفة وتموت من الحمى بين ذراعيه في مرفأ (ماكاسر) القذر. وإذا أخذت واقعة أخرى أجد دوروثي عاهرة في بنسيون مونت كارلو، (لقد جلوت حقيقة أن هذا البنسيون كان موجوداً فعلاً وكان يشغل الطابق الأول في المبنى الذي فتحت فيه دياريو دا باهيا مكاتب تحريرها) تبدل عاشقاً بآخر وتنام مع كل من يدفع الثمن وتختفي بعد رحيلها مع عقيد من المناطق النائية. السويدي جوهان قبطان في مجموعة من الأوراق وتاجر في مجموعة أخرى. ومينينديز يصعد السلم من صاحب سفينة إلى شريك في شركة تجارية لكنه شخصية كريهة جداً في أية مسوخية جاء. أية لخبطة جهنمية هذه!

سمعت أن الزمن، على المدى البعيد، هو الذي يقرر الحقائق. لكنني لا أؤمن بذلك. كلما مر الزمن زاد تقرير الحقائق صعوبة واستحال العثور على أدلة مقنعة وتفاصيل متعلقة بالموضوع. وإذا كان من الصعب على أهالي بريبري أن يكتشفوا من الذي يقول

الصدق ومن الذي يكذب في وقت الأحداث، فتصوروا ما هي عليه الأمور الآن في شهر كانون الثاني من عام 1961 بعد مرور اثنتين وثلاثين سنة. وتوصلت إلى قناعة أن تدخل القدر وحده، بوقوع حدث من أحداث الصدفة الصعبة على التفسير، يمكن أن يوصل المرء إلى الحقيقة. وإلا فإن الشك الأبدي سيبقى. أكانت ماري أنطوانيت عابثة وفاسدة، كما يدعي مؤيدو الثورة الفرنسية؟ أم أنها كانت وردة نقاء وطهر ولطف كما رسمها مؤيدو الظلامية والملكية المتحمسون؟ ومن يستطيع اكتشاف الحقيقة بعد مرور هذا الزمن كله؟ ومن الذي يستطيع الجزم بأنها نامت، أم لم تنم، مع هؤلاء الكونتات كلهم بما في ذلك الإسكندنافي؟

لو لم يتدخل القدر في اللحظة المناسبة لما عرفت ما الذي كان يمكن أن يحدث في بريبري في نهاية شتاء عام 1929 . فأمام القصة المذهلة التي رواها شيكو باشيكو انقسم الأهالي إلى معسكرين. من هنا مؤيدو القبطان يلمعون وسام المسيح ومن هناك المشككون الذين يلمعون قصة موظف الجمارك السابق. انبثق حزبان، طائفتان، عمودان من الكراهية. وتزايدت المجابهات الكلامية. والأقلية من الذين تعاملوا بأعصاب باردة، مثل مريكو العجوز، وجدوا أنفسهم في الماء المغلي طوال الوقت. موظفو الحكومة المتقاعدون ورجال الأعمال المعتزلون، بروماتيزمهم، وآلام كلاهم، وكلهم يشكون من الالتهابات البولية، صاروا يقضون أوقاتهم وكل منهم يهدد الآخر أو يهينه. وذات يوم هجم زكوينها كرفيلو على شيكو باشيكو معلناً بأعلى صوته وبمنتهى الوضوح رغبته في شق لسانه القذر. وكما قال مدير المحطة: لقد دخل الشيطان في العجائز.

وليست البلدة وحدها التي انقسمت على نفسها بل والضواحي أيضاً، صار مؤيدو القبطان يجلسون على المقاعد في المحطة ووجوههم إلى البحر؛ وأنصار شيكو باشيكو على المقاعد المواجهة للشارع. استولى الطرف الأول على الشاطئ واستولى الطرف الثاني على الساحة، وفي بلاتافورما حين تلقى الأب جوستو الخبر دفن

رأسه بين يديه. كيف سيختار راعي مهرجان القديس يوحنا في السنة القادمة؟

وسط هذا كله كان هناك رجل واحد ظل هادئاً وصامتاً يبتسم ابتسامته الدالة على حسن طويته ويتسلق الجروف ليرقب بمنظاره وصول السفن، ويعد مشروبه في المساء، ويربح في لعب البوكر ويحكي حكاياته؛ وهو القبطان فاسكو موسكوسو دو أراغان.

وحين وصلت إلى مسامعه الشائعات الأولى عن الجلبة التي يثيرها شيكو باشيكو أسرَّ إلى أصدقائه المقربين: «حقد خالص».

وهز كتفيه متهيئاً لتجاهل الموضوع كله. لكن هذا لم يكن ممكناً؛ لأن بعض مستمعيه المهتمين سابقاً أداروا ظهورهم له وصار كثير منهم يضحك من قصصه. كما أخبره مؤيدوه الأوفياء أنه صار عليه أن يفعل شيئاً ما ليثبت بما لايترك مجالاً للشك بهتان الحكاية التي يروجها موظف الجمارك السابق. وزكوينها كرفيلو، بعد أن وصلت إلى حدود الضرب بينه وبين شيكو باشيكو، فتح له قلبه: «اعذرني يا قبطان. لكن عليك أن تفعل شيئاً ما تغلق به أفواه هؤلاء المغترين».

- أعتقد أنك محق. كانت فكرتي الأولى أن لا ألقي بالاً لهذه الثرثرة الخسيسة لكن هناك من يصدقونها. لم يعد لي خيار. يجب أن أتخذ إجراءات...

كانت تلك واحدة من أحلى لحظاته: يده مستقرة على النافذة: عيناه غائبتان وراء المياه، وشعره يتطاير مع النسيم.

- أسمّيك، يا صديقي العزيز، واسمي روي بسوا شاهدين من أجل تحدي هذا المفتري إلى مبارزة. بما أنني أنا الشخص الذي وُجهت إليه الإهانة فإن من حقي أن أختار السلاح، أختار مسدساً ذا ست طلقات مع الحق باستخدام الطلقات كلها على بعد عشرين خطوة. المكان هو الشاطئ. والميت بيننا سيسقط في البحر.

جن زكوينها كرفيلو حماساً وانطلق لتنفيذ مهمته. لكنه فشل. رفض شيكو باشيكو حتى أن يسمي شاهديه. ليس هو بالرجل الذي يخوض المبارزات. هذا أسخف ما سمعه في حياته. المبارزات راحت موضتها. وليس هناك ما يثير السخرية أكثر منها. وهو، شيكو باشيكو، لديه رعب حقيقي من الأسلحة النارية. إنه لايحب حتى أن ينظر إليها. أما هذا المشعوذ، الذي قضى أيامه في التسكع مع ضباط الجيش والأسطول، فربما كان قد تعلم كيف يستخدم المسدسات وربما كان رامياً ماهراً. لن يشارك أبداً في سخافة من هذا النوع. إذا شاء هذا المهرج فليذهب إلى المحكمة وليشكُ تشويه سمعته. وهو، شيكو باشيكو، سيذهب ويثبت كل ما قاله. إن كان شجاعاً إلى هذا الحد فليرجع إلى القانون. المبارزة لاتثبت شيئاً. الحظ الأوفر فيها سيكون من نصيب الرامي الأفضل. لا. شكراً. لامبارزات.

وأجاب زكوينها كرفيلو بكلمة واحدة فقط: «جبان!».

أعلن التحدي في الساحة حيث يجتمع أخصام القبطان. وفقد شيكو باشيكو مصداقيته في عيون المعجبين به. فاحتمال المبارزة أمر مفرح للطرفين، ويعد بإثارة ممتعة. إلا أن هذا الكسب الذي حققه القبطان كان مؤقتاً. في الأساس كان الشك يتزايد. ولم تعد حكاياته تثير ذلك الصدى القديم، والحماس الذي كانت تثيره.

وزكوينها كرفيلو، نفسه، أشار ذات يوم للقبطان: «الحقيقة أن تلفيقات ذلك الحقير لم تدحض أبداً».

تطلع إليه فاسكو بعينيه الصافيتين: «إذا كان علي أن ألجأ إلى الأدلة والبراهين لكي أدافع عن نفسي أمام جبان يرفض تسوية الأمور في ساحة الشرف، وإذا كان هناك من يتردد في الاختيار بين كلمتي وكلمته فالأفضل أن أرحل فوراً. لقد رأيت إعلاناً عن بيت في إيتا باريكا. هناك، أخيراً، سأكون محاطاً بالبحر وكأنني على متن سفينة بعيداً عن الافتراء والحسد.

ورفع رأسه بكبرياء: «ذات يوم سينصفونني. وسيفتقدونني. لكنني لن أتنازل للرد على جبان، جلف».

عند هذا الحد وقفت الأمور، أمام باب مسدود، عندما دخل عنصر جديد إلى القضية فانكشفت الحقيقة. ولم يعتمد الأمر على القبطان أو شيكو باشيكو ولا على زكوينها كرفيلو أو أدريانو ميرا أو جوزيه باولو العجوز المعروف باسم مرّيكو، الوحيد الذي لم يُستثر وظل محتفظاً برأسه وعقله وسط العاصفة؛ بل مكان القدر، المصير، المصادفة... سمها ما شئت.

أكان من الممكن لهذا القدر أن يتدخل لصالحي ليقضي على الوساوس المتزايدة عند فضيلة الدكتور ألبرتو سكويرا أو يثبت له طهارة علاقتي بدوندوكا التي لاتعكس إلا الصداقة التي أحس بها نحو منارة التشريع الشهير والمتشكك. مستحيل؟ ألأنني كنت بالفعل أركب قروناً على رأس السيد العجوز مستمعاً بشكولاتته وفتاته؟ من أجل هذا فقط؟ ولكن ألا تعرفون أن القدر متقلب؟ وحين يتقدم ليقر حقيقة فإنه يفعل ذلك بناء على تفضيله وليس على أساس الأدلة والوثائق. لم إذن لايقنع القاضي ببراءتي حتى مع الأخذ بعين الاعتبار الخدمة التي أؤديها لفضيلته بالحلول محله في فراش دوندوكا؟ إنني أتركها في الصباح راضية مكتفية وسعيدة وفي حالة ذهنية تجعلها مستعدة بصبر وابتسامة، لتحمل البرودة التي لايمكن التحدث عنها والتي تلازم الممثل الشهير للقانون.

كيف انطلق القبطان إلى مصير مجهول أو اقترب ليحقق مصيره إذ ما من أحد في هذه الدنيا يستطيع الهرب من قدره

في ذلك اليوم الذي لم ينقطع فيه المطر، ومع تدفق الفيضانات وهبوب ريح قارسة من البحر لتكنس الضاحية، والسماء بلون الرماد، والشوارع مليئة بالبرك؛ كان القبطان أيضاً في لباس الحداد، وشريطة سوداء على قبعته، وربطة حِداد على كم سترته ذات القبة الواسعة. وشرح لأصدقائه بصوت أجش أنها الذكرى السنوية لموت دون كارلوس الأول ملك البرتغال وألغارف الذي اغتاله الجمهوريون المتهورون عام 1908 بعد وقت قصير من إدراك جلالته لكفاءات القبطان وتكريمه له بوسام خدمة المسيح. كل عام في مثل هذا اليوم يلبس لباس الحداد في ذكرى ذلك السلطان المبجل الذي رأى، وهو على عرشه الحبيب، ضرورة الاعتراف بجهود ذلك الذي افتتح طرقاً تجارية جديدة وتكريمه.

في المحطة، حيث كانت الجماعة المجتمعة ذلك اليوم قليلة العدد، كان زكوينها كرفيلو الجالس على مقعد وهو يتطلع إلى الخليج يلقي حجته ويشرح بين أسنان شيكو باشيكو (الذي كان يجلس على الطرف الآخر من الرصيف على مقعد يواجه الشارع) عن وسام المسيح مع الميدالية والسلسلة؛ وهذا وحده حجة دامغة. شخص لايحس بالمسؤولية فقط يستطيع أن يقول قولاً مضحكاً ولا أساس له من الصحة مثل: أن ملك البرتغال سيبيع وساماً بهذه

الأهمية، وكأنه سمك مملح أو نكاشات أسنان، كأنه عمل خضرجي، مع وثيقة تعود إلى أيام الصليبيين وفرسان المعبد؛ وساماً له هذه القيمة ومرغوباً بهذا المقدار إلى درجة أن الجمهوريين حافظوا عليه، ويسعى الحكام والدبلوماسيون والعلماء والجنرالات من أجل الحصول عليه. الحقيقة أنه لمن المشين التحدث بكلام فارغ كهذا أو الاستماع إليه؛ وإن هذه الضاحية التي اسمها بريبري لا تستحق شرف إيواء مواطن، في شيخوخته المجيدة، له هذه السمعة وهذا التميز كقبطان، حامل وسام لم يحمله في باهيا إلا ج.ج. سيبرا. وهو وسام المسيح. بسبب هذا الحسد وهذا الجحود يفكر القبطان في الرحيل لكي يمنح مدينة أخرى أكثر تحضراً امتياز اعتباره من أهاليها.

وبدأ شيكو باشيكو بالإجابة: «ما سيفعله هو أنه سيهرب، لأنه انكشف، من أجل أن يبيع حكاياته التي لاتصدق لزبائن آخرين... هذا العجوز الذي صفته ونعته...».

ولم يكمل لأن قطار الساعة العاشرة كان قد دخل المحطة. ونزل منه شخص غريب غامض، شخص لم يسبق لأحد أن رآه من قبل، متلفعاً بمعطف واقٍ من المطر، راح يسأل، وهو يفتح مظلته، عما إذا كان أحد من هؤلاء السادة يعرف أين يعيش رئيس بحارة اسمه فاسكو موسكوسو دو أراغان. إنه في حاجة لرؤيته في الحال فهناك مسألة هامة سيناقشها معه. الأصدقاء والأعداء، بالإجماع، كانوا مستعدين لقيادته إلى البيت ذي النوافذ المفتوحة على البحر على الرغم من أنه في اللحظة ذاتها بدأت زخة مطر عنيفة أخرى. وكان قائد المجموعتين، شيكو وزكوينها، تواقين لمعرفة المسألة الهامة التي جاء هذا الغريب للتحدث بشأنها مع القبطان.

ولم يكن الغريب متكتماً حول شغله. في الطريق، وفيما هو يخوض من بركة إلى أخرى، أخبرهم أن سفينة تابعة للشركة الوطنية للإبحار الساحلي، إحدى سفن-إيتا الكبيرة، قد وصلت هذا

الصباح منكسة علمها. ففي رحلتها من ريو إلى سلفادور دا باهيا مات قبطانها، وتسلم نائبه قيادة السفينة ولكن القانون يقول إنه في أول مرفأ تتوقف فيه السفينة، وحتى وصول قبطان من الشركة، يجب أن يقود السفينة رئيس بحارة، أي رئيس بحارة يمكن العثور عليه سواء كان في إجازة أو متقاعداً. قوانين بليدة: كأنما نائب القبطان لايستطيع الإبحار بالسفينة إلى بيليم حيث يتوفر قبطان آخر للشركة من مواطني بارا كان يقضي إجازته في بيته الممنوح من الدولة والذي كانوا قد أبرقوا له.

هو، هذا الغريب، أمريكو أنتونيس وكيل كوست وايز لاين في باهيا، عليه أن يحل المشكلة. كأنما ليس لديه ما يكفيه من ترتيبات لدفن القبطان المتوفى.

وسأله زكوينها: ألم يلقوا بجثته في البحر؟

ليتهم فعلوا. كانوا وفروا عليه شغلاً ووجع رأس. أين سيعثر على قبطان آخر؟ بالطبع إن سجلات قيادة المرفأ رتبت أسماء رؤساء البحارة وعناوينهم، أولئك الذين تسلموا شهاداتهم من القيادة. معظمهم قباطنة بشهادات «ذات أختام مطاطية» ليست لهم أية خبرة بالبحر، خدمتهم على قوارب صغيرة تجوب نهر سان فرانسيسكو. هناك قبطان واحد اجتاز الامتحانات كلها مع أطروحة مقبولة ومقرة وهو فاسكو موسكوسو دو أراغان الذي لم يعرف مكانه أحد والذي لم يكن من الممكن العثور عليه في عنوانه في لارغو دواس دو جولهو. وفي النهاية عرف محل إقامته الحالي فجاء يطلب منه تسلم قيادة (إيتا) حتى بيليم، آخر مرفأ في رحلتها وحيث سيكون القبطان الآخر جاهزاً لرحلة العودة. سيكون هذا فضلاً منه على الشركة وعلى المسافرين، الذين بعضهم أشخاص ذوو أهمية وبينهم سيناتور فدرالي من ريو غراند دو نورتي. وإن لم يعثر على هذا القبطان الذي وفرته السماء فسيكون على السفينة والركاب الانتظار ثلاثة أو أربعة أيام إلى أن تصل سفينة أخرى من

ريو دو جانيرو، وهذا يعني تأخير الركاب وخسارة كبيرة للشركة.

ضحك شيكو باشيكو ساخراً: «سيكون عليهم أن ينتظروا.لأن هذا القبطان لن يتسلم قيادة أية سفينة. لن يتحرك من هنا».

ـ «لاتصدق». قاطعه زكوينها كرفيلو. «سيكون القبطان سعيداً بأن يخدمكم».

ـ سعيد أم غير سعيد. سيكون عليه أن يفعل. إنه ملزم بذلك بحكم القانون... حتى لو كان متقاعداً أو في إجازة.

وصلوا إلى باب بيت القبطان. ورأوه في البهو الخلفي يقف قرب النافذة الكبيرة وهو يتطلع إلى البحر المغطى بالبياض. ناداه زكوينها كرفيلو وقام بالتعريف وشرح القضية وهو يفرك كفيه: والآن يا قبطان. هاهي الفرصة تؤاتيك لسحق هذه الأفاعي.

كان الأخصام قد ظلوا في الخارج تحت المطر. زكوينها كرفيلو وايميليو فاغوندس فقط عبرا العتبة مع أنتونيس. قلب القبطان نظره بسرعة من أحدهما إلى الآخر دون أن يقول شيئاً. كان مندوب كوست وايز لاين قد أتم شروح زكوينها قائلاً إن الشركة ستكون في غاية الامتنان له وهي بلا شك ستكافئه على المعروف الذي يبادرها به.

ـ حين تقاعدت أقسمت أن لاأدوس منصة ربان سفينة مرة أخرى. الموضوع متعلق بقصة محزنة يعرف تفاصيلها الأصدقاء هنا.

ووجد زكوينها البداية مزعجة: «ولكن ضمن الظروف الحالية...».

ـ القَسم قَسم، والبحّار لايرجع في كلامه.

وتدخل السيد أمريكو أنتونيس: عفواً يا قبطان. ولكن هذا التزام قانوني. وأنت تعرف ذلك أكثر مني. تلك هي قوانين البحر.

«قوانين الشرف الذي يلوثه الحساد». أضاف زكوينها.

ورأى القبطان مجموعة الأعداء أمام بيته وهم يتفرقون تحت المطر. والذين هم أكثر تصميماً وجدوا مستراً تحت شرفة بيت الأخوات ماغالها. وهيكل شيكو باشيكو غير الواضح متكوم عند باب الأخوات العجائز. التفت إلى صديقيه: «هل تسمحان لي بالتحدث مع السيد أمريكو على انفراد؟ أريد مناقشة بعض التفاصيل معه».

قاد أنتونيس إلى حجرة الجلوس تاركاً زكوينها وإيميليو في القاعة. واستمر الاجتماع مايزيد على عشر دقائق ثم رأيا القبطان يعود بصحبة وكيل كوست وايز لاين الذي كان مايزال يردد: «تستطيع أن تكون واثقاً تماماً. سيكون كل شيء على مايرام».

مصافحة باليد. وانطلق الغريب راكضاً تحت المطر؛ فدمدمة القطار القادم من باريبي كانت مسموعة. وإذا لم يسرع فلن يلحق به. وركض شيكو باشيكو في أعقابه ليرى مايمكن أن يستكشفه، لكنه لم يستطع مجاراته، وحين وصل إلى المحطة كان القطار قد تحرك.

وشرح القبطان لزكوينها وإيميليو: «طلبت وثيقة من الشركة يوقعها المدير تشرح الأسباب التي جعلتني أحنث بقسمي».

وهتف زكوينها: تعني أن تقول إنك ستتولى القيادة؟

- ولم لا أفعل مادام هذا واجبي وهم يعطونني شهادة حول قسمي؟ دوروثي ستسامحني.

سيذهب. لن يذهب. هو مشعوذ دجال. هو رجل عظيم. وكبرت المناقشة وانتشرت الأخبار ساحبة الموظفين المتقاعدين ورجال الأعمال المعتزلين من بيوتهم جالبة إياهم إلى المحطة رغم المطر الذي استمر دون توقف. استمرت المناقشة واستمر المطر بعد رحيل القبطان بصحبة بالبينا وهو يرتدي لباسه الرسمي في قطار الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم. كان كاكوبودر يحمل الحقائب والقبطان يحمل المنظار الضخم في يده. وفي المحطة صافح أنصاره وأخصامه على السواء؛ وربما كان قد صافح يد شيكو باشيكو لو لم يكن موظف الجمارك السابق قد ظل بعيداً عند طرف الرصيف. وحين

وصل القطار قام القبطان فاسكو موسكوسو دو أراغان بمعانقة زكوينها كرفيلو وشده إلى صدره. لم ينطق بكلمة. ومن باب العربة رفع يده إلى قبعته مؤدياً التحية.

- هرب، شَمَّ الخيط. نعق شيكو باشيكو. لن يعود أبداً.

- إنه ذاهب لقيادة السفينة إلى بيليم. صرح زكوينها كرفيلو.

- لابد أنكم، جميعاً، مجموعة من الغشم المغفلين لكي تصدقوا ذلك. إن لم يعثروا على قبطان آخر فستمتد للسفينة جذور في المرفأ. كل ما سيفعله النصَّاب هو أنه سيختفي ولن يسمع أحد عنه شيئاً بعد الآن.

- كذب.

- لم إذن أخذ الخادمة معه؟ انتظر فقط وسيأتي ذات يوم شخص ما لجمع حاجياته ومع الخبر بأن البيت قد بيع. كان بالأصل يستعد للهرب. كل ما فعله هو أنه عجل بالأمور قليلاً.

- الحقيقة هي التي ستعلو. ومن يعش ير. أجاب زكوينها المولع بالعبارات الرنانة.

في الخامسة من بعد الظهر تجمع عدد منهم على الشاطئ رغم المطر. فمن هناك يستطيعون أن يروا حوض السفن في باهيا، ويميزون تحت الضوء الخافت الهيكل الأسود العملاق لإيتا وهي تقوم بمناورات الإقلاع. كان الدخان يتصاعد من المدخنة. وسيتنطلق الصافرات. السفينة تتوجه نحو الحاجز وتختفي وراء حائل الأمواج.

واستمر الجدل قاسياً وعنيفاً إلى أن أوردت الصحيفة الخبر الأول الذي جاء برقياً.

الحدث الثالث

وصف مفصل لرحلة القبطان المميتة آمراً لإيتا، والأشياء الكثيرة التي حدثت على متن السفينة، قصص حب رومانسية، مناقشات سياسية، زيارات إلى موانئ التوقف المؤقت، والنظرية الشهيرة حول المحبَطات والرياح تنطلق عاصفة.

القبطان على منصة القيادة

صعد المعبر بصحبة أمريكو أنتونيس، وكيل الشركة، وأحد البحارة يحمل له حقيبته. وكان انفعال عنيف يعصف في صدره وهو يخطو إلى السفينة. لايكاد يميز صوت أنتونيس الذي كان يقدمه إلى رجل حسن الهندام: «دكتور هوميرو كافالكانتي، سيناتور من ريو غراند دو نوتر. القبطان فاسكو موسكوسو دو أرغان.

- يا لحسن الحظ أن تكون في باهيا يا قبطان، وإلا لتأخرنا هنا. وهذا أمر رهيب بالنسبة لي. لدي أمور هامة يجب أن أكون حاضراً من أجلها في ناتال.

وأبدى أنتونيس ملاحظته: «كان القبطان في غاية اللطف».

- إنني لاأفعل أكثر من واجبي.

وقُدِّم إلى ضابط المحاسبة. وتجمع المسافرون حوله فضولاً. تلك رحلة مثيرة فيها موت على متن السفينة، وجثة القبطان مسجاة طوال الليل والنهار في قاعة الرقص التي حولت إلى غرفة للموت، احتمال توقف الرحلة في باهيا، ثم النبأ المفرح عن العثور على قبطان متقاعد.

قاده أمريكو أنتونيس ليشق طريقه وسط فوضى الإقلاع؛ مودعون وحقائب يحملها الخدم، وأطفال بين الأقدام، ونباح كلب خائف بين ذراعي سيدة ناضجة مدججة بالملابس. الكلب البكيني يهر مهدداً نحو القبطان وهو يجهد ليحرر نفسه من يدي سيدته.

السيدة تبتسم للقبطان وتقول معتذرة: «أعذره يا قبطان. إنه لايعرف كم نحن مدينون لك».

كان المسافرون قد عرفوا بتصرفه النبيل وقدروا له ذلك كثيراً.
وأحس فاسكو بأنه ينتفخ وهو يقول: «واجبي يا مدام».

ليست سيئة. ولف عطرها القبطان الذي سأل أمريكو بصوت منخفض: «إذن لمجرد القول...».

- ... لمجرد القول...

وتسلقا الدرج الصغير المؤدي إلى منصة القيادة. وسبقهما البحار ووضع حقيبتي القبطان في غرفته. وأشار فاسكو إلى المضجع وقال: مات هنا؟

- لا. مات على المنصة. نوبة قلبية. المسكين.

وجاء طبيب السفينة. وتم تقديم فاسكو له فرافقهما إلى المنصة حيث كان الضباط بالانتظار واقفين باستعداد.

- القبطان فاسكو موسكوسو دو أراغان الذي منحنا الشرف والفضل بتسلم إمرة السفينة حتى بيليم.

- غاير ماتوس وكيل الربان.

وتقدم شاب أشقر وهو يبتسم. وخطر للقبطان أن هذا الفتى والوكيل قد تبادلا نظرة تفاهم مثل غمزة العين. «إنه لشرف كبير أن أخدم تحت إمرة رجل يحمل وساماً عظيماً كهذا». قال ذلك مشيراً إلى وسام المسيح المتلامع على صدر بذلة القبطان.

وتبعه ضباط البحرية، والمهندس الأول، والمهندس المساعد، وبعدها انحنى وكيل الربان على رأس المجموعة في المنصة وقال: «نحن ننتظر أوامرك أيها القبطان».

ونظر فاسكو إلى أمريكو أنتونيس من طرف عينه فهز أنتونيس رأسه قليلاً وكأنه يشجعه فقال القبطان: «كما تعرفون يا سادة. وجودي هنا مجرد شكليات يفرضها القانون. لاأريد إدخال أية

تغييرات خلال هذه الأيام القليلة التي سأكون آمراً فيها. السفينة بين أيد أمينة ماهرة أيها السادة. سيتابع وكيل الربان القيادة. لا أريد أن أتدخل في أي شيء».

- واضح، يا قبطان، إنك بحار عتيق خبير بعادات البحر. ولن نزعجك ما لم تعترضنا مشكلة خطيرة مفاجئة تتطلب تدخل خبرتكم ومعرفتكم الأمر الذي آمل أن لايحدث.

وأنهى أمريكو أنتونيس المراسم: «السفينة بإمرتك يا قبطان. وباسم شركة كوست وايز لاين أتمنى لكم رحلة مريحة».

استأذن وانصرف. كان الوقت قد حان لرفع المرساة. وقف فاسكو على منصة القيادة يصغي إلى وكيل الربان وهو يصدر أوامره. سحب المعبر الخشبي. وتبدد صوت الصافرة الحزين بين أبراج الكنائس، ولوحت المناديل بالوداع وكانت النساء يبكين تحت المطر. واندفعت السفينة ببطء في أول مناورة لها. وتطلع فاسكو باتجاه بريبري. سيكون أصدقاؤه هناك على الشاطئ: زكوينها كرفيلو بيد ممدودة يلوح بالوداع متمنياً له حظاً سعيداً ورحلة موفقة. وتمنى القبطان لو يرفع المنظار إلى عينيه ليحاول رؤيتهم عبر المطر والبعد المتزايد. لكنه لم يجرؤ حتى على التحرك في الساعة المهيبة لإصدار أوامر الرحيل.

القبطان يترأس مائدة القبطان في بحر مضطرب مع احتمالات ثورة داخلية ومعوية

لم تكن قاعة الطعام مزدحمة عند تناول العشاء في الليلة الأولى من الإبحار. كان المطر ينهمر والريح تهب وكانت السفينة تواجه بشجاعة بحراً مضطرباً أثار مخاوف المسافرين فالتجأ معظمهم إلى حجراتهم.

وربما كان فاسكو يفضل أن يسترخي في مرقده ليستريح من انفعالات هذا اليوم الحافل والحاسم. وسيكون هذا أسلم أيضاً؛ فبين حين وآخر تتصاعد رغبة مشؤومة بالإقياء من معدته. ولكن كانت إحدى واجبات القبطان أن يترأس الوجبات وعلى رأس المائدة الرئيسية. ويتناوب وكيل القبطان وضابط الخزانة وضباط الإبحار والطبيب ترؤس الطاولات الأصغر. ولم يكن يستطيع أن يقصر في التزاماته. ولذا كسا وجهه بجدية صارمة وتناول حبتين من زجاجة اشتراها من إحدى الصيدليات مضمونة بشكل مطلق من قبل البائع. ربما قابل السيدة صاحبة الكلب البكيني وتبادل معها ابتسامة وبضع كلمات. أما السيناتور من ريوغراند دو دونوتري الدكتور هوميرو كافالكانتي فكان بالانتظار جائعاً ونافد الصبر.

السيناتور إلى يمينه، ورجل مجلس أمة من بارابيا، الدكتور أوتون ريبيرو، إلى يساره مع ملاك كبير وصاحب مصرف؛ أعطى القبطان أول أمر له منذ أن صعد السفينة: أمر بتقديم العشاء. تطلع

في أرجاء القاعة. كانت هناك أماكن شاغرة كثيرة. والسيدة صاحبة الكلب كانت تنقصها الشجاعة لمواجهة البحر المضطرب. مسكينة!

كان السيناتور ورجل مجلس الأمة يتحدثان في السياسة، فحملة الانتخابات الرئاسية في أوجها. وسنة 1929 كانت سنة نشاط محموم. ماذا عن ترشيح جوليو بريستيس وغيتوليو فارغاس وتشكيل التحالف الليبرالي الذي يجمع محافظي ريو غراند دو سول وميناس غيراس وبارايبا؟ وتنبأ رجل مجلس الأمة من بارايبا بقيام ثورات كبيرة وخطيرة ضد الحكومة الحالية. وهمس بأن سكويرا كامبوس وكارلوس بريستيس وجونو ألبرتو وجواريس تافورا موجودون في البلاد متخفّين بشكل سري وأنهم يجوبون البرازيل للتأسيس لحركة مسلحة.

وضحك السيناتور من هذه الشائعات. البلد هادئة وراضية، تؤيد برامج العمل التي طرحها الدكتور واشنطن لويز العظيم والتي سيتابعها خَلَفُهُ، الذي لايقل عظمة، بوليستا، الدكتور جوليو بريستيس، وكل هذا التوتر ليس إلا عاصفة في فنجان. وليس أكثر من خطابة بنبض عالٍ من خطباء يساريين من أمثال جونو نيفيس وباتيستا لوزاردو وأزوالدو أرانها. أما مجموعة الجيش، الثوريون المؤقتون، فإن حدث أن اجتازوا الحدود وخرجوا من منفاهم إلى نهر بلاتي فسيصطادهم البوليس دون رحمة ويلقي بهم في السجن. وانحنى القبطان إلى اليمين وهو يصغي إلى الخط الرسمي للسيناتور.

- «بوليس... سجن... يا سيناتوري العزيز لاتخدع نفسك» أجاب رجل مجلس الأمة «بوليسكم ليس جيداً. ربما كنت لم تسمع بأن سكويرا كامبوس منذ أيام فقط شوهد في سان باولو. وكان رجال البوليس في وضع يؤهلهم للإطباق عليه. ضربوا نطاقاً حول الحارة كلها. وفيما كانوا يفعلون ذلك خرج من مكتب التحرير في (أستادو سان باولو) برفقة الدكتور جوليو دو مسكويتا متنكراً بهيئة قس. مرب بين البوليس تماماً... كل إنسان يعرف ذلك».

- مجرد كلام... لا أصدق كلمة من هذا الحديث. هؤلاء المتبجحون في بوينس آيرس يتشاجرون فيما بينهم. وهم خائفون من أن يَضَعوا أقدامهم في البرازيل، وهم يرسلون الرسائل دائماً طالبين العفو. شبان بلا إدراك. عقولهم مشوشة. ولم يعد من المستغرب حتى أن يدعي شخص مثل أرتور برناردیس أنه ثوري. إنهم لايجرؤون...

- لايجرؤون؟ والحدود هناك تماماً في ريو غراند دوسول؟

- جيتوليو فارغاس ليس مجنوناً. ولن يحتكّ بهؤلاء المعتوهين. وهل تظن أنهم سيبدأون حركتهم لكي يضعوا جيتوليو في كاتيت؟ إن كان لديهم أي أمل بالفوز فلن يكون جيتوليو هو الرئيس. سيكون إيزيدورو أو بريستيس. ألا توافقني أيها القبطان.

كان فاسكو يفضل أن لايفكر، وفوق كل شيء أن لايتطلع إلى الحساء، هذا الخليط اللزج الأبيض المقرف غير الملائم إطلاقاً لحالة البحر اليوم. كان عليه أن يلفت انتباه رئيس الخدم للمسألة لكي لايحدث هذا الإهمال مرة أخرى. على قائمة طعام السفينة أن تضع في اعتبارها دائماً الأحوال الجوية. دفع الصحن جانباً وقام بإشارة غامضة بالموافقة على ملاحظة السيناتور قاطعاً الأمل في أن تأتي السيدة صاحبة الكلب. وتابع رجل مجلس الأمة ما كان يقوله بعد أن أنهى - هذا الأحمق المسكين! - صحن الحساء.

- لابأس. ابقوا غير مصدقين. ابقوا معلقين إلى عربة واشنطن العنيد. وحين تعود إليكم عقولكم سيكون قد فات الأوان، وستكون النار قد اشتعلت تحت أقدامكم. في آخر رحلة لي إلى الشمال، على إيتا مثل هذه، أتعرف من كان على متنها ونزل في ريسيف؟ جونو ألبرتو. نعم يا سيدي. أنا أقول لك ذلك... لأنه لم يعد هناك. وأنا أعرف ذلك بشكل مؤكد. كان يسافر بصفته بائعاً متجولاً في ريو، لكنني عرفته فوراً. رجال البحر كلهم - وأشار إلى القبطان - معنا؛

مع الثورة إنهم ينقلون المتآمرين ويخبئونهم في كابيناتهم. أكثر من ذلك. البلد كلها معهم. أليست هذه هي الحقيقة أيها القبطان؟

إهانة ثورية خالصة، والصحن الثاني: قطعة من السمك في صلصة بندورة وقريدس، مع بطاطا مطحونة يمكن رؤية خطوط من الزبدة فيها. نظرة واحدة إلى هذا القرف كانت كافية لجعل المعدة تنقلب. وبذل القبطان جهداً كبيراً، لكي يتجنب التطلع والسؤال الخطر من رجل مجلس الأمة، وأدخل ملء الشوكة في فمه المر. كان من الواضح أن هذا الرجل الذي في مجلس الأمة والقادم من بارايبا مشتت الفكر، يتحدث عن الثوريين والمتآمرين وهو يلتهم طوال الوقت قطعاً من السمك والقريدس والبطاط الدسمة. نادراً ما تنحدر الطبيعة البشرية إلى حضيض كهذا، هذا ما قاله القبطان لنفسه وهو يرى المنظر المقرف. وتابع رجل مجلس الأمة، وهو يدلل بمصمصة شفتيه على النوعية الفاخرة للسمك، العزف على موضوعه المزعج.

ـ ما أدرانا أن يكون بريستيس أو سكويرا هنا، على هذه السفينة، مختبئاً في كابينة الطبيب أو المهندس؟ أو في كابينة قبطاننا الشجاع؟ لم لا؟

وارتعش السيناتور. فعلى الرغم من هدوئه الخارجي وإيمانه بقوة الحكومة، إلا أن هذه الشائعات أقلقته. ألم يخبره رجال البوليس أنفسهم أن جواريز تافورا قد مر في ناتال قبل وقت قليل؟ تواطأ مع ملازمين شبان مثل جوراسي ماغالهانس ومثيري شغب مثل كافي فيلهو؟ ألم يكن يعرف أنهم التقوا في مكان جوار القصر؟ ولم يعرف البوليس بآثار ذلك الثوري إلا عندما رحل إلى بارايبا حيث صار معروفاً للجميع أن منزل جوزيه أمريكو دو ألميدا كان مقر التآمر. لم لا ينصرف هذا الزي(*) أمريكو إلى كتابة الرواية؟ ربما كان رجل مجلس الأمة محقاً، وربما كان أحد مثيري الشغب

(*) اختصار جوزيه.

العام على متن هذه السفينة. ألقى نظرة متشككة على القبطان ولاحظ على وجهه سمة غريبة.

وتابع رجل مجلس الأمة المثير الماهر للمخاوف: ذات يوم ستتوقف إيتا في ناتال وهي تبدو بريئة تماماً وبدل المسافرين تُنزل مجموعة مسلحة من الثوريين. سيزحفون على المجلس، بانغ، بانغ، بانغ... لاتجعل نفسك أحمق، جميع أفراد شركة كوست وايز مع الملازمين، أليس كذلك يا قبطان؟

ـ أنا لست من موظفي كوست وايز. كنت دائماً في الإبحار إلى ماوراء البحار حتى تقاعدت. أنا هنا بسبب سوء حظ...

ـ آه، صحيح، نسيت، أنت الذي أنقذ الوضع، وإلا لانتظرنا إلى أن يصل قبطان من ريو. نعم، يا سيدي، عظيم جداً، ليس لأنني ضد قضاء عدة أيام في باهيا. أنا لست على عجلة مثل السيناتور الذي يريد أن يصل إلى ناتال بأسرع ما يستطيع. أنا عندي وقت، وأحب باهيا، مكان جميل، التحالف الليبرالي، فقط، ضعيف فيها. وفيتال سواريز المرشح فيها لمنصب نائب رئيس الجمهورية، لكن ما يعوض عن ذلك أن نساءها جذابات فعلاً.

بذل القبطان جهداً لكي يبتسم موافقاً، والسيناتور، الذي سُرَّ للنقلة الجديدة التي تحول إليها الحديث، بعيداً عن الثوريين الذين أفسدوا عليه عشاءه، استغل البداية التي افتتح بها القبطان، وقال: «الإبحار إلى ماوراء البحار يا قبطان؟ لابد، إذن، أنك رأيت بلداناً عديدة.

ـ عملياً... العالم كله، لقد أبحرت في ظل أعلام مختلفة.

ـ مهنة جميلة، ولكن أليست رتيبة قليلاً؟ أيام وأيام في البحر، وخاصة في الرحلات الطويلة...

ـ لكنك تلتقي بامرأة حقيقية بين حين وآخر. ما رأيك في هذا أيها القبطان؟ كان رجل مجلس الأمة يتخلى عن الثوريين مقابل النساء.

الفروج المقلي يبدو شهياً، حتى الآن لم يكن فاسكو قد أكل شيئاً تقريباً إلا الخبز، ولكن المشكلة هي في تقطيع الفروج بينما السفينة تتمايل ولن يكون لطيفاً منه أن يأكله بأصابعه.

- القبطان وهو على رأس عمله ناسك.

- أي أيها قبطان، لاتحاول أن تمرر علي ذلك.

- ولكن في المرفأ يدبر أموره.

- في كل تلك البلدان التي زرتها أين وجدت أفضل النساء، أكثرهن حرارة؟

ليس وقت حديث من هذا النوع، كان الفروج على وشك أن يقفز من صحنه، وصار الأمر يتطلب الانتباه والحذر، واستسلم فاسكو:

- يصعب تقرير ذلك... الأمر يعتمد...

- أي هيا... من لايعرف؟ الإنكليزيات باردات والفرنسيات لايهمهن إلا المال والإسبانيات شهوانيات جداً حتى أنا الذي لم أغادر البرازيل.

- نعم، صحيح، هناك اختلافات. وحسب رأيي إن الأكثر حرارة - وتوقف وخفض صوته، وانحنى نحو السيناتور وعضو مجلس الأمة ليسمعا جيداً ما سيكشف عنه - أفضلهن هن العربيات.

- شهوانيات؟ همس السيناتور.

- نيران مضطرمة!

- عندما كنت فتى كانت هناك امرأة تركية لديها ماخور في كامبينا غراند، يا لها من وجبة! عليك أن تدفع بسخاء. ولكنها ليست لأفواه السذج. كانت فقط لأصحاب المزارع الأثرياء، قال رجل مجلس الأمة وهو مستغرق في ذكرياته.

كانت سلطة الفواكه، مع مرقها الحلو، على وشك أن تسبب فاجعة، ماكاد القبطان يبتلع اللقمة الأولى حتى احتاج إلى كل جهده

لكي يبقيها في جوفه. حدث اضطراب في أمعائه، نوع من كره الحياة، كره البشر. لحسن الحظ أن السيدة الفاتنة لم تأتِ إلى قاعة الطعام. ماكان سيستطيع أن يكلمها، لم يعد يستسيغ شيئاً؛ وكل ما كان يريده هو أن ينتهي العشاء.

- لم تأكل كثيراً يا قبطان، لاحظ رجل مجلس الأمة الذي أتخم نفسه بالطعام.

- أحس بتوعك، أكلت قليلاً من البرقوق الأخضر فأزعجني، لاأريد أن أزيد الأمر سوءاً.

- تصور! كنت أتساءل عما إذا كنت مصاباً بدوار البحر. هل سمعت أسخف من تصور قبطان مصاب بدوار البحر!

ضحك الثلاثة من الفكرة السخيفة المستحيلة، وقرر فاسكو أن لايغامر بشرب القهوة. انتظر وهو يسيطر على نفسه إلى أن انتهى الجميع لكي ينهض وينهي الوجبة.

حاول رجل مجلس الأمة أن يستبقيه في الخارج: ماذا تفعل أيها القبطان لو اكتشفت واحداً من أولئك الثوريين مختبئاً في كابينتك؟ هل ستسلمه للبوليس أم تتكتم عليه؟

ماذا يفعل؟ كيف له بحق الجحيم أن يعرف ماذا سيفعل في حالة كهذه؟ هو لا شأن له بالسياسة منذ انتهت فترة حكم جوزيه مارسيلينو واغتيال دون كارلوس الأول ملك البرتغال. لم يكن يريد أن يسمع عن الثورات والثوريين، جهنم وراء واشنطن وجوليو بريستيس وجيتوليو. لن يمنعه أي طارئ من الوصول إلى كابينته بأسرع ما يستطيع، ولا حتى السيدة الباسمة صاحبة الكلب لو ظهرت الآن. يريد أن يكون وحيداً ورأسه يرتاح على وسادة.

- عفواً يا دكتور. يجب أن آخذ موقعي على المنصة، أريد أن أعرف كيف هو شغلنا.

- اذهب وارجع لكي نتسلى، سأكون في المكتبة.

اندفع فاسكو يصعد الدرج، كان المطر ينهمر على سطح مؤخر المركب، ومر شخص ما في طريقه وهو متجه إلى الكابينة.

ـ مساء الخير يا قبطان. كان هذا طبيب السفينة يدخن سيجاراً من باهيا.

ـ هل أنت ذاهب لتدخن غليوناً؟ ألا تفضل سيجاراً؟

وأخرج من جيب سترته سيجاراً أسود كريه الرائحة.

ـ شكراً، أنا لا أدخن إلا الغليون.

ـ وأنت من مواليد باهيا؟

ـ نعم.

ـ ولاتحب السيجار؟ هذه جريمة، وضحك.

ـ مسألة عادة. اعذرني سأحاول أن أرتاح قليلاً.

ـ لابد أنك قضيت يوماً شاقاً.

ـ ليلة سعيدة إذن.

دفعت الريح دخان السيجار القاتل إلى منخريه، وضربت السفينة أمواجاً أعلى من كل ما سبقها من أمواج، واندفع فاسكو إلى كابينته، لحسن الحظ كان الطبيب متجهاً إلى الأسفل لأن فاسكو لم يكن لديه الوقت الكافي للوصول إلى المراحيض أو إلى حجرته الخاصة. وهناك، انحنى على الحاجز، وكان شرفه وحياته يندفعان خارجين منه. تملكه شعور بأن ساعته قد دنت، أحس بالقذارة والامتهان. إنه لاشيء أكثر من خرقة، تطلع حوله خائفاً، لا أحد قريب منه. نجح في التوجه إلى الكابينة، وأغلق الباب وراءه ثم ألقى بنفسه على السرير ولم تبق لديه القوة الكافية لأن يخلع ملابسه.

(إيتا) المبحرة تحت الشمس، فصل شبه فولكلوري يقرأ بمصاحبة موسيقى: «سافرت على إيتا شمالاً» لدورينال كايمي

أشرقت شمس شبيهة بشمس الثاني من تموز، ساطعة ودافئة دون أية غيمة في السماء والبحر كقطعة من الفولاذ المصقول يقطعها القيدوم المتغطرس لإيتا الفخورة. وحين خرج القبطان من حمامه ووجد قهوته الصباحية جاهزة في كابينته، والخادم المضطرب يبتسم له، عاد إليه وعيه؛ فاستنشق هواء البحر كما كان يفعل أيام رحلاته على الطرق البحرية الآسيوية والأسترالية. ارتدى بذلة بيضاء وهو يهمهم بنغمة أغنية الراقصة ثريا والتي تدور حول البحر والبحارة.

كانت الحجرات والممرات وأرضية سطح السفينة حاشدة بالمسافرين، المألوفين على هذه السفن، التي تذرع الشاطئ البرازيلي من بورتو أليغري إلى بيليم دوبارا جيئة وذهاباً منذ سنوات طويلة، وذلك قبل أن تبدأ الطائرات بالسفر في الأجواء مقلصة المسافات ومقصرة الزمن ومجردة الرحلات من كل شاعرية وسحر. عندما كان الوقت أبطأ ومليئاً بشكل أفضل كان قدر أقل من الجهد يبذل في القلق العقيم لمسألة تأمين الأمكنة بأسرع ما يمكن تحت ضغط الدافع للعيش بسرعة والذي يحول الحياة إلى مغامرة رتيبة دون لون أو طعم، إلى مجرد سباق واضطراب وإرهاق قاتل.

كان هناك ثلاثة أنواع من سفن (إيتا): الكبيرة والمتوسطة

والصغيرة. وكانت تختلف عن بعضها قليلاً في ما يتعلق بالسرعة والراحة، لكنها كلها مرحة ونظيفة ومريحة. كانت الرحلة ممتعة، يقابل المرء الآخرين ويعقد صداقات ويغازل وينشأ عشق ولم تكن هناك طريقة أفضل لحديثي الزواج لقضاء شهر العسل؛ فالأيام على سطح السفينة مهرجانات.

الإيتا الكبيرة لاتقف إلا في المدن الهامة؛ في موانئ سلفادور وباهيا، وريسيف وناتال وفورتاليزا وبيليم في رحلتها نحو الشمال منطلقة من ريو. والسفن المتوسطة تقف أيضاً في فيتوريا وماسيو وسان لويس في خط رحلتها. أما الصغيرة فتطيل رحلتها وتقف إضافة إلى ذلك في إلهيوس وأراكاجو وكابيديلو وبارنايبا لتنزل ركاباً ونأخذ آخرين. السفينة التي وضعت تحت إمرة رئيس البحارة القبطان فاسكو موسكوسو دو أراغان كانت من أكبر السفن.

وكان يتحرك عليها بشر مرحون لايهدأون هم الركاب النموذجيون لإيتا؛ السياسيون العائدون إلى مقراتهم ليصلحوا شؤونهم السياسية أو العائدون من رحلة سريعة إلى ريو. في هذه السنة التي ستحدث فيها الانتخابات الرئاسية يظلون ذاهبين راجعين في فورة محمومة من الآمال والمطامح. تجار وصناعيون عائدون مع عائلاتهم من رحلة إلى عاصمة الجمهورية جامعين بين الشغل والمتعة، سيدات ونساء فتيات عائدات إلى بيوتهن من زيارة إلى الأقارب في ريو أو سان باولو؛ وأعداد كبيرة من الطلاب العائدين من الرحلة التقليدية إلى الجنوب في منتصف سنتهم الدراسية، وهم يتذكرون وسط عواصف من الضحك تفاصيل سكراتهم الصاخبة والكباريهات والنزهات والنساء وأحياناً المناظر الطبيعية. أشخاص أجروا عمليات جراحية ناجحة وقد ذهبوا إلى ريو من أجل خدمات المستشفيات فيها، وهي غير متوافرة في محافظاتهم، ومن أجل خبرة الأطباء وخدماتهم، أولئك الأطباء الذين بلغت شهرتهم أطراف البلاد ويتقاضون أجوراً باهظة. عوانس يأملن بظهور عريس من بين الأمواج؛ قسس في عطلة، رهبان ذاهبون للوعظ في الغابات؛ كتّاب من العاصمة في طريقهم إلى السوق

الشمالية وحقائبهم ملأى بالمحاضرات والقصائد، محاسبون في بنك البرازيل منقولون وهم ذاهبون للإطمئنان على مصيرهم الجديد، مقامرون محترفون يغيرون سفينة في كل رحلةٍ، وينتقلون من إيتا إلى آرا ومن آرا إلى لويد برازيليرو ليقتنصوا أصحاب مزارع الكاكاو والقطن ونخيل الباباكو وهم عائدون إلى بيوتهم من أول زيارة لن تنسى إلى بان دو اكوار، وكوركوفادو، وكوباكابانا وبوتوفوغو، وكباريه «الأشوري» في الطابق السفلي من بناء مسرح «مانغو» البلدي. باعة متجولون مرتبطون بشركات كبيرة ومعهم ذخيرتهم من القصص والحكايات، والحضور الملهم لمومسات ينزلن عادة في الدرجة الثانية وعيونهن أيضاً على المزارعين ورجال الأعمال غالباً ما يظهرن في الصباح الباكر على منصات الدرجة الأولى المتنوعة.

على متن هذه السفن «الإيتا» ينزل من الشمال والشمال الشرقي سياسيون وموظفون، شعراء وروائيون، وهنود حمر شجعان مدقعون، يواجهون ضربات الحياة بصدور عارية ومقاومة صلبة لاتقهر وخيال واسع وإرادة قوية جاءتهم مع هبة الاختراع العفوي وقوة الخلق، مولودون في أراضٍ قاحلة، يسوطها الجفاف أو في وديان الأنهار الجبارة التي تغمرها الفيضانات المدمرة - أهالي بارانا وباهيا، برنامبوكو وسيارا، ألاغوس ومارانهان وسرجيب وبياوي، آكلو اليقطين من ريو غراند الشمالية. هؤلاء كلهم الذين أصبحوا نبض الموسيقى الشعبية المصاحبة لصوت الشاعر والمغني الجوال بين أفياء باهيا الساحرة والتي صارت ملازمة لسفن الإيتا جميعها:

شمالاً ركبت إيتا

لكي آتي إلى ريو وأعيش

وداعاً يا أمي ويا أبي

وداعاً يا بيليم دو بارا

كان العائدون الآن تحت إمرة فاسكو ورعايته هم أنفسهم الذين نزلوا قبل سنوات من إيتا أخرى في الجنوب بحثاً عن الثروة والنجاح والنفوذ أو لمجرد البحث عن وسيلة للعيش.

شق فاسكو موسكوسو دو أراغان طريقه ببذلته البيضاء المتكاملة. لقد كان على منصة القيادة حيث أبلغه ضابط الإبحار أن كل شيء على مايرام وأن الرحلة تسير بشكل طبيعي دون أي حادث وأنهم سوف يصلون ريسيف صباح الغد ثم يبحرون في الخامسة بعد الظهر؛ إن كان يوافق على ذلك.

ـ كما قلت لكم، لا أريد أن أجري أية تغييرات أو أصدر أوامر طالما أن الأمر بين أيد خبيرة كهذه. سأتمشى قليلاً.

ـ حسن يا قبطان. إن وجودك سيفرح المسافرين فهم يحبون أن يتحدثوا إلى القبطان ويطرحوا أسئلة حول الرحلة.

صار يتمشى وهو يلقي تحية الصباح اللطيفة مع ابتساماته. ربت على رأس طفل كان يركض في مؤخرة السفينة. أشعل غليونه؛ إن ظل الطقس كما هو الآن ستكون الرحلة أثمن مافي العمر. كان عدة أشخاص يتمددون على كراسي السفينة. الفتيان والفتيات، بحيوية صاخبة، يلعبون ألعاب الدحرجة(*) والبنغ بونغ والتنس البحري.

رتبت ألعاب بوكر في قاعة الاستراحة. تطلع القبطان في أرجاء القاعة فلم ير إلا وجهاً واحداً يعرفه، هو وجه السيناتور. فمشى إلى حيث يجلس.

ـ أوه. صباح الخير يا قبطان، كيف تسير الرحلة؟ هل عرفت متى سنصل إلى ريسيف؟

ـ سنرسو عند الفجر بمشيئة الله، وسنبحر في الخامسة بعد الظهر.

(*) دحرجة قطع نقدية أو أقراص خشبية إلى نقاط محددة.

ـ هذا يتيح لي أن أتغدى مع المحافظ وأناقش معه بعض المسائل السياسية. إنه يستمع إلي جيداً؛ الحقيقة أن محافظي الشمال الشرقي كلهم يأخذون كلامي ويطلبون نصيحتي. يعرفون التقدير الذي يكنه لي الدكتور واشنطن.

ـ إنه لشرف لي أن تكون على متن السفينة يا سيناتور، أجاب القبطان وهو يأخذ الكرسي المجاور للمشرّع: «شرف ومتعة».

ـ شكراً، أوتون هو الذي سينزل في ريسيف.

ـ من هو؟

ـ رجل مجلس الأمة الذي كان يجلس إلى يسارك. شاب ذكي لكنه مضلل تماماً. متورط مع التحالف الليبرالي، هو وآخرون غيره يجرّون بارييا إلى الفوضى ـ محافظة صغيرة تعتمد على الرئاسة في كل شيء ـ تصور! ولأنه يعرف أنهم سيخسرون في الانتخابات يخترع الانقلابات والثورات.

ـ سأعترف أنني قلقت قليلاً يوم أمس لهذا الحديث عن المتآمرين في الخارج.

ـ ولد له مستقبل ويدمر مستقبله. يشرب بكثرة أيضاً ولايستطيع تحمل رؤية تنورة تمر قربه... منذ الصباح الباكر وهو يحوم حول هؤلاء الممثلين...

ـ أي ممثلين؟

ـ صعدوا في ريو. فرقة من الدرجة الثالثة ذاهبة لكي تعرض في ريسيف. مجموعة صغيرة، أربع نساء وأربعة رجال. النساء لم يكن في صالون الطعام ليلة أمس. ولهذا لم تعرف بهن. ثم زم شفتيه: «هاهم مع أوتون، أسألك: هل هذا سلوك عضو في مجلس الأمة؟ يتجول مع الممثلات على مرأى من الجميع؟!

تابع القبطان نظرة السيناتور، ثلاث بنات، اثنتان منهن ترتديان البنطلون الفضفاض، وهو شيء لم يكن معروفاً بعد في تلك الأيام،

والثالثة بلباس رقيق متماوج، يشكلن حلقة حول عضو مجلس الأمة.

- أين الرابعة؟

- عجوز تلعب دور خادمة. لابد أنها في مكان ما هناك تطرز.

رآهما أوتون، ولوح لهما عضو مجلس الأمة ثم جاء نحوهما والممثلات معه.

- هيا لمقابلة قبطاننا الجديد.

هز السيناتور برأسه دون أن ينهض عن كرسيه، لايحب أن يُرى علناً وهو برفقة جماعة المسرح، ووقف فاسكو وانحنى على أيدي الفتيات.

- من دواعي السرور البالغ أيها القبطان، ابتسمت السمراء ذات الثديين النافرين والتي كانت تقف إلى جانب أوتون.

- قل لي أيها القبطان: هل ستظل هذه السفينة البهيمية تتأرجح كما فعلت أمس؟ عمري لم أواجه تعاسة أكبر، إنها أول رحلة بحرية لي، قالت الشقراء النحيلة ذات العينين الواسعتين.

- أَعِدُ بطقس ممتاز حتى نهاية الرحلة، وسآمر لك ببحر من الأزهار!! لم يكن عبثاً ذلك الوقت الذي قضاه القبطان في قاعات الرقص في مجلس الشورى وبنسيون مونت كارلو، أو عبوره المحيطات وهو يقود عابرات المحيط التي تنقل الركاب من نابولي وجنوى إلى الشرق. إنه يعرف كيف يتصرف مع الجميلات الفاتنات.

- القبطان ساحر، قالت الثالثة ذات الشعر الأجعد والغمازتين.

- أوتون... الدكتور أوتون قال لنا إنك طفت العالم كله، وإنك نلت أوسمة. هل هذا صحيح؟

- لقد قمت بعدد لابأس به من السفرات طوال أربعين عاماً.

- هل ذهبت إلى هولاندا؟ سألتْ صاحبة الغمازتين التي اسمها ريجينا.

- نعم ياسيدتي.

- هل التقيت هناك بعائلة تحمل اسم فان فريز؟ إنها تعيش - لحظة... دعني أرى إن كنت أستطيع أن أتذكر - في ساسغا نجيت... شيء من هذا القبيل.

- فان فريز؟ لا أظن أنني أتذكرها. كان معظم تعاملي مع أصحاب السفن والذين لهم علاقة بالشحن. فهل هي بالمصادفة ضمن هذا الإطار؟

- لاأظن ذلك، تيون قال لي إنهم يزرعون التوليب (الخزامى).

- ومن هو هذا التيون الذي يزرع التوليب؟ سأل عضو مجلس الأمة الذي كانت يده ترتاح بتآلف على ذراع الفتاة.

- شخص كانت مجنونة به، أوضحت الشقراء النحيلة.

ألقت الفتاة السمراء ذات الصدر البارز نظرة ناعسة على أوتون وقالت: «الإنسان يقع في الحب وبعد ذلك يعاني منه».

نهض السيناتور، كان سطح السفينة قد امتلأ بالناس وهو لايريد أن يُرى مشتركاً في محادثة غير لائقة.

وتابعت ريجينا: أجمل رجل شاهدته في حياتي، كنت مجنونة به، يشبهك قليلاً يا قبطان. لكنه أطول...

- أترى أيها القبطان؟ قال عضو مجلس الأمة وهو يضحك: «إنك تحقق انتصاراً».

- ... وأفتى طبعاً.

- وما الذي يمكن أن يتوقعه رجل عجوز مثلي؟

- لا، لاتأخذها على هذا المحمل أيها القبطان. لم أقصد أن أزعجك، أنت لست عجوزاً، ماتزال قوياً وجميل المظهر.

- مايزال القبطان قادراً على إرضاء امرأة وتعويضها عن جهدها للوصول إليه.

أضافت النحيلة التي كانت تتابع بعينيها خروج السيناتور من القاعة:

- ماذا كنت أقول أيها القبطان؟ أنت فعلاً محطم قلوب، وانزلقت أصابع أوتون على فخذ السمراء المصقول، فأمسكت يده وأبعدتها وهي تتطلع حولها.

ضحكت الفتيات سعيدات بشمس الصباح والبحر الهادئ.

- متى يبدأ عرضكم في ريسيف؟ سأل فاسكو.

- غداً ليلاً، في سانتا إيزابيل.

- من المؤسف أنني لن أستطيع رؤية العرض، سآتي لرؤيتكم في طريق العودة إذا قضت السفينة الليل في المرفأ، سيسرني أن أصفق لكم.

قطع نباح الكلب عبارته، تطلع حوله فرأى السيدة الحسناء ترتدي ثوباً ينحسر عن الصدر وله أكمام قصيرة وقد لفت شعرها بمنديل وهي تؤنب الكلب البكيني بانفعال.

وعلقت السمراء: تكاد تظن، من طريقة لباسها أنها في السادسة عشرة.

- إنها لاتفارق الكلب أبداً، عمري لم أر هذا التعلق، تظن أنه طفل.

- إنه أكثر من طفل، قال عضو مجلس الأمة.

- ما هوإذن؟ سألت صاحبة الغمازتين.

- سأهمس لك في أذنك.

- في أذني أنا، قالت السمراء.

همس أوتون شيئاً ما وفمه يلاصق أذنها، وخنقت ضحكتها بيدها مصدومة: «فظيع! أنت رجل غير معقول!».

- ماذا قال؟ إحكي لي.

انحنى فاسكو للسيدة صاحبة الكلب التي كانت موضوع الحديث بين عضو مجلس الأمة والممثلات. ابتسمت له بالمقابل. ثم رأت

المجموعة المحيطة بالقبطان وسرعان ما أدارت ظهرها. قلق فاسكو، وكان يريد أن يساعدها على فتح الكرسي، فسألته الشقراء: هل تظن ذلك أنت أيضاً؟

- ماهو يا آنسة؟

- ما يقوله الدكتور أوتون؟

- لا أعرف ماذا قال. اعذريني من فضلك.

وابتعد بسرعة متجهاً نحو السيدة ليأخذ منها الكرسي الذي لم تستطع أن تفتحه بيد واحدة، حيث اليد الأخرى ممسكة بالكلب البكيني.

- اسمحي لي يا مدام.

شكرته:

- إزعاج كبير، أنا ممتنة إلى أبعد الحدود.

- صدقيني إنه من دواعي سروري. تفضلي بالجلوس.

جلست ووضعت الكلب في حضنها فكشّر عن أسنانه للقبطان وهو ينخر، واتكأ فاسكو على الحاجز القريب منها.

- اهدأ يا ياسمين، يجب أن تبدي الاحترام للقبطان، هكذا يتصرف مع الجميع في البداية، يغار علي، وبعد ذلك يتعود.

ثم بصوت ممازح ممزوج بنبرة حادة قالت: أصدقاؤك يفتقدونك أيها القبطان، انظر كيف يراقبوننا ويتحدثون عنا.

تطلع القبطان إلى الممثلات وعضو مجلس الأمة الذين كانوا يضحكون، وغمزت له النحيلة.

- ليسوا أصدقائي، لقد تعرفت عليهم قبل قليل.

- يقولون إنهن ممثلات، من الدرجة الثالثة بالتأكيد. يبدو عليهن كأنهن من البغايا المتحرشات في الشوارع، هكذا كانت تسير الأمور منذ أن غادرنا ريو، الرجال يطنون حولهن مثل الذباب، فضيحة.

الدكتور أوتون هذا لايفارقهن لحظة، كأنما ليس هناك غيرهن على السفينة.

ـ هذا غير ممكن يا مدام، لابد أنك تبالغين، بوجودك على السفينة كيف يمكن لأي إنسان أن ينظر إلى امرأة أخرى؟

ـ يا الله أيها القبطان، أنت تحرجني.

ـ هل ستغادرين في ريسيف أيضاً؟

ـ سأستمر إلى بيليم، أنا أعيش هناك، وأطلقت تنهيدة.

كان القبطان قد تطلع الآن إلى يدها ولاحظ أنها لاتضع خاتم زواج.

ـ هل سافرت إلى ريو في رحلة ترفيه؟

ـ كنت أزور أختي هناك، زوجها مهندس في وزارة الطيران.

ـ ألا تحبين أن تعيشي هناك؟

ـ ليس هذا ممكناً، البيت مليء، عندها خمسة أطفال، أنا أعيش مع أخي في بيليم. متزوج هو الآخر لكن ليس لديه إلا ولدان.

ـ والمدام...؟

ـ أنا؟ وأشاحت برأسها وغامت عيناها في الأفق: «أنا لم أرغب في الزواج أبداً».

تبع ذلك صمت قصير، وأحس فاسكو أنه كان عديم اللباقة وربما كان فظاً. ظلت شاردة بحزن. وفي النهاية سألته: هل تعيش أسرتك في باهيا؟

ـ ليست لدي أسرة.

ـ أرمل؟

ـ عازب، لم أجد الوقت للزواج طوال عمري، بهذه الحياة في البحر ودائماً على السفن.

ـ ولم تفكر في الزواج أبداً؟ أبداً؟

أمسك القبطان بغليونه وغامت نظرته هو الآخر في السماء الممدودة بلا حدود.

ـ لم أجد الوقت....

ـ أكان هذا هو السبب الوحيد؟ بسبب ذلك فقط؟ وأطلقت السيدة تنهيدة أخرى وكأنها تريد أن توضح أن أسبابها أكثر جدية وإيلاماً.

وتنهد القبطان بدوره:

ـ لماذا نوقظ الماضي؟

ـ أنت أيضاً؟ وتنهدت من جديد، عالم تعيس.

ـ تعيس لمن يعيش وحيداً، أجابها.

صارت الضحكات والقهقهات الصادرة عن المجموعة المحيطة بالممثلات أعلى. وامتلأ سطح السفينة، واحتلت الكراسي كلها، ومر عريسان متشابكي الأيدي، ونبح الكلب البكيني عليهما. وأعلنت السيدة: أنا لاأثق بالرجال، كلهم منافقون.

كانت معلمة بيانو، واسمها كلوتيلد.

القبطان يقود، السيدة تتنهد، الراقصة ترقص، والسفينة تبحر على بحر من الزهور والعذارى

كانت المومسات مسترخيات في الطابق الأسفل، يعتنين بأظافرهن ويقرأن «المسرح الصامت» و«فن السينما» ويسرحن شعورهن ويستدفئن بالشمس كالسحالي. ونزل الطلاب من الدرجة الأولى وتحلقوا حول النسوة وراحوا يستدرجونهن إلى الأحاديث، خالقين جواً من الألفة معهن. كان أحدهم يعزف على الغيتار وقد عزف لواحدة منهن نغمة شعبية شائعة في ذلك الحين ومتعلقة بالانتخابات.

آه يا مستر تونيكو

من بلاد الحليب الوفير

الأفضل أن تنتبه لخطواتك

لأن البوليستا شخص صلب

وقد حمل بندقيته

ووقف بثبات في الطريق

ومع تحامقه في كل مكان

سيتحول الحليب إلى لبن

وطافت نظرة القبطان في الدرجة الثانية وهو يطل من منصة القيادة، عليه أن ينزل إلى هناك ويتحادث مع هؤلاء الناس فهم ركابه أيضاً. ولم يكن راغباً في الاعتراف لنفسه برغبته في

الانضمام إلى المجموعة الظريفة التي تحتوي على نساء قليلات الفضيلة. فهو يحمل لهن ذكريات حارة منذ أيام شبابه في المواخير ودور الترفيه في باهيا ومن مغامراته في المرافئ الجانبية في الباسفيكي، وكان يعرف كيف يحادثهن، فالحديث معهن لايتطلب جهداً، وليس عليه أن يزن كلامه كما هو الحال مع رجال الدرجة الأولى، الصبايا والسيدات من العائلات المرموقة وبعضهن متشامخات مغرورات. ووصل إلى نتيجة مفادها أن السفينة عالم صغير يمكن أن تجد فيه كل شيء من الأغنياء والأقوياء والسياسيين ورجال المعارف إلى النساء الفقيرات اللواتي رأسمالهن هو جمالهن؛ وأدوات عملهن هي إغراؤهن وأجسادهن. وهو الحاكم المطلق لهذا العالم، القبطان، أعلى سلطة على سطح السفينة، كلمته قانون وسلطته لاتنازع.

نقل إلى رئيس الخدم احتجاجه حول مسألة عشاء ليلة البارحة. إذا سمح له رئيس الخدم فإن هذا الحساء وذلك السمك ليسا بالطعام الذي يقدم حين يكون البحر هائجاً. إن البواخر الأجنبية الكبيرة تولي هذه التفاصيل اهتماماً كبيراً. ونائب القبطان، الذي كان يقف قريباً، أيد القبطان تأييداً كاملاً مع إصراره وتأكيده اللذين كانا إلى حد ما مبالغة بالنسبة لمسألة صغيرة كهذه.

- إنك محق تماماً أيها القبطان. هذا خطأ مزعج يجب أن لايتكرر. كنت أقول دائماً إن أهم شيء في السفينة هو القبطان الذي يعرف شغله.

- لايعني أنني أريد أن أتدخل، ولكن السيناتور، مثلاً، بالكاد لمس طعامه.

كان رئيس الخدم يستمع مقطباً، ولكن بالنظر إلى الموقف الصارم الذي أخذه وكيل الربان غير موقفه وطوى أشرعته واعتذر.

- الحقيقة أيها القبطان أنني نسيت استشارة مكتب الطقس قبل

إعداد قائمة الطعام. لن يحدث هذا مرة أخرى، ولكن منذ الآن سيكون أفضل شيء أن أقدم لك قائمة الطعام لأخذ موافقتك مسبقاً.

ـ نعم، سيكون هذا أفضل، قال وكيل الربان.

ـ لا يا سادة، ليس هذا ضرورياً، أبداً، وأكرر: لا أريد أن أتدخل في أي شيء، أنا هنا فقط من أجل...

ـ أنت القبطان.

أعجبه ذلك ـ وأكثر من أي شيء آخر أعجبه موقف وكيل الربان المتكامل. شاب لطيف هذا الجيرماتوس. سيوصي به ويطريه عند كوست وايز لاين عندما يرفع تقريره.

خلال هذه الساعات القليلة من الإبحار والرفقة ترسخت شعبيته بين الركاب. كان يتحدث مع هذا وذاك، يخبرهم عن السرعة التي يسيرون بها ـ ثلاثة عشر ميلاً في الساعة، أميال بحرية بالطبع ـ وعن ساعة وصولهم إلى ريسيف، كما أبدى تواضعاً لائقاً، عندما لمحوا إلى مآثره البحرية وسألوه عن سبب منحه الوسام. متواضع ولكن دون أن يضطر للتملق.

ولذا فإنه، بعد الظهر، وجد نفسه في قاعة الاستراحة محاطاً بمجموعة كبيرة تنتظر التهام سرده لمغامراته المسلية. حكى لهم في البداية عن عاصفة في خليج البنغال على سفينة شحن إنكليزية الجنسية وطاقمها كله تقريباً من اللسكرية(*). وكانوا في طريقهم من كلكوتا إلى أكيابا بموازاة شاطئ بورما. وكان هذا الطريق دائماً محفوفاً بالمخاطر، عرضة للرياح الموسمية وتيارات بحرية غادرة. إلا أنه خلال المرات العديدة التي أبحر فيها في هذه المناطق الخطرة لم يسبق له أن رأى الطبيعة هائجة هذا الهيجان. بعض النساء العجائز ألقين أدوات تطريزهن وحياكتهن وقد استغرقن في انفعالات حكايته. كيف يستطعن الانتباه إلى عملهن

(*) جنود وبحارة من جزر الهند الشرقية.

والقبطان يشق طريقه على ظهر السفينة مغامراً بحياته ومهدداً أن تقذفه عن ظهر السفينة أمواج كالجبال، وهو يسعى لكي يسحب من تحت عمود السارية، الذي كسرته صاعقة، بحاراً هندياً هزيل الجسم انكسرت أضلاعه وساقاه؟

حتى ضابط الإبحار وقف يستمع إليه بصمت مفعم بالاحترام، فاستند إلى الباب، وهو يدخن سيجارة؛ والقبطان لايراه بسبب استغراقه في قصته، وكان المهندس الرئيسي يمر من الخارج فأشار إليه ضابط الإبحار، ووقف الإثنان يستمعان.

وحين عاد القبطان قبل المساء إلى منصة القيادة فاجأ ضابط الإبحار وهو يعلق على مغامراته ويحكيها لوكيل الربان والضباط الآخرين والطبيب، ولم يلتقط إلا جزءاً من عبارة: «... وتقدم يزحف على ظهر السفينة مثل الأفعى».

صمت الرجال حين رأوه ثم تكلم وكيل الربان: «عظيم أيها القبطان، كنا نستمع إلى مآثرك. في إحدى الليالي القادمة سنفتح زجاجة ونسمع منك هذه الحكايات المجيدة. لقد قضينا حياتنا ونحن نبحر ذاهبين راجعين على هذا الشاطئ الذي لايحدث فيه شيء أبداً. أنت يا سيدي» ومد إصبعه مشيراً إليه «ستحكي لنا عن رحلاتك دون أن تترك أي تفصيل».

ـ أشياء صغيرة وتافهة لاتستحق أن تعاد حكايتها، هذه تنفع في تسلية المسافرين، لكن أنتم أيها السادة، وأنتم أنفسكم رجال بحر...

ـ لن نتركك بهذه السهولة أيها القبطان، إننا نصر على ذلك.

ومن مكانه وقف يتطلع إلى المومسات في الطبقة السفلى. وكان صوت جميل لفتاة خلاسية يعلو إلى المنصة في أغنية سياسية.

السيد جولينهو قادم

السيد جولينهو قادم

الرجل القادم من ميناس

لاينتبه لنفسه

السيد جولينهو قادم

السيد جولينهو قادم

قادم ولكن كثيرين

سوف يبكون.

دار وهو يعبر الدرجة الثانية ونزل إلى الدرجة الثالثة. كان هناك ركاب عائدون إلى الشمال الشرقي في حالة الفقر نفسها التي جاؤوا بها، في سنوات الجفاف، إلى أراضي الجنوب التي زُيِّنت لهم وقيل إن فيها مالاً وعملاً. إن الأمل بتحسين ظروفهم، ذات يوم، قد قاد هؤلاء الرجال والنساء ليتجرجروا سيراً على الأقدام بين الغابات ذات الأشجار القزمة عابرين المناطق النائية والأنهار الكبيرة والسهول الشاسعة حتى يصلوا إلى سان باولو. والآن لم يبق لديهم إلا الرغبة في العودة إلى مواطنهم الأصلية، المجدبة والفقيرة، لكنها مواطنهم التي ولدوا فيها ويريدون أن يموتوا عليها. كان منظراً محزناً. فعاد القبطان إلى الأغاني العاطفية والسامبا في الدرجة الثانية.

السيدات ذوات الفضيلة الخفيفة حين رأينه يقترب، تجمعن حول بعضهن وجلسن باحتشام أفضل فسحبن تنوراتهن على ركبهن وأبعدن الطلاب، وتوقفت الخلاسية عن الغناء فظل الغيتار وحده يرسل نقراته. كان صوت المغنية جميلاً والقبطان غير راغب في إفساد متعة أحد.

ـ على رسلكم جميعاً، لِمَ توقفت هذه الفتاة التي هناك عن الغناء؟ استمري من فضلك، كنت أستمتع بغنائك.

ـ القبطان شخص طيب، قالت، ضاحكة، إحدى النساء اللواتي كن ناجحات قبل سنوات.

- رفيق جيد، قال أحد الطلاب. الليلة السابقة لوصولنا إلى فورتاليزا، وسوف تغني له.

- شكراً جزيلاً يا صديقي.

لكن الفتيات لم يتخلين عن حشمتهن القسرية، ولم تستأنف الخلاسية غناءها: «يا للأسف» قال فاسكو لنفسه ثم انسحب من المجموعة.

في الدرجة الأولى كان الركاب قد بدأوا بالظهور بعد حمّام المساء - القمصان الخفيفة والبناطلين الضيقة والأثواب القطنية استبدلت ببذلات الكشمير وبذلات السهرة. هو أيضاً سيكون عليه أن يبدل ملابسه، وأن يلبس أزرق ويضع وسامه.

لكنه أَجَّل ذلك لدقائق، فكلوتيد كانت قادمة تشع على سطح السفينة، معطرة وشعرها معقوف ومرتب إلى درجة أنه لابد قد استغرق منها فترة مابعد الظهر كلها، في ثوب ساحر ومنديل حريري في يدها، وعيناها عينا شخص يعاني من حزن دفين، ودون الكلب البكيني (وهي إشارة مشجعة). وبدأ قلب القبطان بالخفقان. كانت قد رأته فلوحت بتحية كانت في الوقت ذاته نداء. فاقترب منها:

- ربة البحر...

- أوه أيها القبطان. وغطت عينيها بمنديلها ثم تركته يسقط ثم طلبت بصوت حيي: هل تحب أن تتمشى قليلاً على السطح لتنشيط الشهية؟

- لا أُفضِّل على هذا شيئاً، ولكن علي أن أغير ملابسي لكي أصبح جديراً بأناقتك. فلو أنك تنتظرينني فإنني سأقابلك بعد دقائق في قاعة الاستراحة.

- سأنتظر، ولكن لاتتأخر أيها المجامل.

حين عاد كان البيانو في قاعة الاستراحة يرتفع صوته لمواكبة

أغنية من «لابوهيم». إن فاسكو يحترم الموسيقى الكلاسيكية لكنه ليس معجباً جداً بها، بل إنه لايحبها. ذات مرة، وتحت إصرار العقيد بدرو دو ألنكار، حضر عرض أوبرا في مسرح سان جون قدمته فرقة إيطالية منحطة جاءت لتعرض في باهيا بعد جولة غير موفقة على دور الأوبرا في أميركا اللاتينية، وكان العقيد شغوفاً بالأوبرا، لديه غراموفون ومجموعة من التسجيلات لأغنيات بصوت كاروسو. وأقنع فاسكو أنها فرصة نادرة وضعها القدر في طريقه لكي يسمع الجهير(*) الأول والصادح والسوبرانو الساحر والرنان الذي لايقل عنه سحراً في عرض «لابوهيم» مع المناظر والمرافقات الأخرى. فقرر الذهاب دون اهتمام بالتحذيرات المتكررة التي وجهها إليه جيرونيمو وجورج لأن ذلك يتيح له فرصة الظهور بلباسه الرسمي الكامل وعليه وسام المسيح. لكنه كان عرضاً مملاً من أسوأ الأنواع، تعذيباً حقيقياً لأنه كان يتعرق مثل جزار. كانت مغنية السوبرانو تزن ما لايقل عن 250 باوند، ولكن للتلاؤم معها كان مغني الصادح نحيلاً مثل عود الثقاب. وأحس فاسكو بالرغبة في الضحك حين سألت المقوقية الضخمة:

Mi Chiamano Mimi
Ma Perche?
Nom so.
Il mio nomee Lucia

أما العقيد بدرو دو ألنكار فكان في غاية الاستمتاع، وكان يحفظ قسماً من الأوبرا غيباً. وراح فاسكو، وهو يكاد يختنق من الحر، يلعن الغرور الذي جعله يقبل الدعوة لمجرد التباهي ببذلته ووسامه. وحين سقطت مغنية السوبرانو، ببدانتها وباونداتها، من أجل أن تُزَفَّ، مرهقة بين ذراعي مغني الصادح الأعجف، الذي كان من الواضح أنه لايستطيع أن يحملها انفجر فاسكو بالضحك، الأمر الذي أساء العقيد كثيراً فقال عنه إنه حمار جاهل. ومنذ ذلك الحين

(*) الجهير ـ الجهير الأول ـ الصادح، ترتيب علو الأصوات الرجالية. الرنان ثم السوبرانو للأصوات النسائية.

صار يبقى مسافة محترمة بينه وبين ما يسمى الموسيقى «المثقفة» التي تستحق كل الإعجاب دون شك لكنها أعلى من مستواه بكثير وخارج نطاق فهمه. والآن، ووسط المعزوفات الصادرة عن البيانو، تعرف على إحدى الأغنيات التي أعادت إلى ذهنه تلك الذكرى غير السارة، وإذا كان لم ينسحب فذلك لأن كلوتيلد كانت تنتظره لتتمشى على السطح قبل العشاء بفستانها التفتا وشعرها معقوف حول أذنيها وعالم كامل من الأمل في صوتها الخدر. حاول أن يتجنب الدخول إلى القاعة خشية أن يجبره البروتوكول، بصفته القبطان، على البقاء لفترة لكي يبدي إعجابه بعازف البيانو. تطلع نحو الأرملة مديراً ظهره إلى زاوية القاعة التي فيها العازف لكي يتجنب تبادلاً مساوماً للنظرات مع الموسيقي. ولم تكن كلوتيلد في القاعة، فلم يرها. أين يمكن أن تكون قد ذهبت؟ وبدا أن الفنان قد تلقى زخماً جديداً فصارت الموسيقى أعلى. أين ذهبت السيدة اللطيفة؟ وغامر بنظرة نحو البيانو فابتسمت له كلوتيلد دون أن ترفع كفيها عن لوحة المفاتيح وكانت تحني رأسها، وعيناها منتشيتان وتجعيدات شعرها تصعد وتنزل مع إيقاع الموسيقى. كانت معلمة بيانو، وقد أخبرته بذلك عندما تحادثا في الصباح، لكن فضيلة التواضع، وهي المعروفة بأنها أم الفضائل كلها، جعلتها تحجم عن ذكر قدراتها ومواهبها الفنية ومكانتها كعازفة بيانو قادرة على عزف الموسيقى الكلاسيكية. كان يظنها معلمة بسيطة تصاحب بيانو من النوع القديم لتعلم مبادئ العزف للصبايا الباحثات عن أزواج وبما يكفي لتمكينهن من اقتراف المارشات والسمبا والفوكس تروت وفي الحد الأقصى الفالس. لم يتخيلها أبداً قادرة على تجاوز عزف الموسيقى الراقصة في الحفلات في بيوت الأصدقاء حيث لاتوجد أوركسترا، ولكن ها هي تهز رأسها وتبعثر خصل الشعر التي أخذت كل ذلك الوقت والجهد، وتقلب عينيها وهي تقتحم الأوبرا، فنانة حقيقية. ملأه هذا بالفخر. لقد دخل القاعة في الوقت الملائم لينضم إلى المستمعين في الغرفة وهم ينفجرون تصفيقاً تحية لمواهبها

كعازفة بيانو، وربما لإنزال غطاء البيانو كإشارة إلى انتهاء العزف.

اندفع القبطان نحو العازفة المتواضعة التي يُهلّل لها والتي كانت تغطي وجهها بمنديلها، ومد لها يديه: «كم هو جميل، هذه الجهورية، هذا التنفيذ المتقن، يا لها من لحظة إلهية!».

- هل تحب الموسيقى الكلاسيكية؟

- هل أحبها؟... عندي مجموعة من التسجيلات أستطيع القول دون غرور إنها واحدة من أكبر المجموعات في باهيا وربما في البرازيل كلها.

- والأوبرا؟

- أعبدها. قبل أن أتقاعد، في كل ميناء كنت أنزل فيه، يكون أول ما أسأل عنه هو ما إذا كان هناك دار أوبرا...

خلال هذا الحديث كله كان مايزال ممسكاً بيديها، وبغتة وعت ذلك فسحبتهما بنترة عصبية قليلاً وضحكة قصيرة. وقف مضطرباً قليلاً غير عارف ماذا يفعل بيديه، فقامت هي بالتقاط خيط الحديث:

- لم يسبق لي أن رأيت بيانو أسوأ في دوزانه من هذا البيانو على سفينتك.

- أهو سيئ إلى هذا الحد؟

- رهيب، العزف عليه غير ممتع أبداً.

- سأتخذ الإجراءات الضرورية، سأطلب مدوزناً (مُوَلِّفاً) من ريسيف. والآن ماذا عن مشوارنا؟

ولكن لم يبق وقت، لقد قرع جرس العشاء، فسارا نحو غرفة الطعام وهما يناقشان «لابوهيم». كانت مولعة ببوكشيني، وأصر على أن إعجابه وحماسه يفوقان ما لديها.

مشوارهما على السطح تم بعد العشاء، وقبل أن تبدأ لعبة البنغو في صالة الاستراحة. كانا يسيران بخطوات منتظمة. هي تلعب

بمنديلها وهو ينفخ غليونه ويتحدث عن ريو التي تحبها كثيراً وعن باهيا التي هي، بالنسبة له، مدينة جميلة يعاش فيها، وعن بيليم دو بارا، التي ينزل المطر فيها كل يوم في الساعة ذاتها. بين حين وآخر كان أحد الركاب يقاطعهما ليحيي القبطان أو ليسأله سؤالاً. تحدثا عن ريسيف التي سحرتها مياهها في رحلة الذهاب، ولسوء الحظ لم تستطع مشاهدة الكثير من العاصمة البرنامبوكية لأنها كانت تمطر بغزارة شديدة، ولم يكن معها من يريها المواقع الجميلة. غداً سيختلف الأمر، قالت ذلك مع ابتسامة، سيكون لديها القبطان تحت تصرفها ليأخذها إلى الجسور والشواطئ والحارات والحدائق.

ـ المشكلة أنني أنا أيضاً لاأعرف ريسيف.

ـ ماذا تعني بأنك لاتعرف ريسيف؟ يجب أن تكون قد مررت بها عشرات المرات بصفتك قبطان سفينة.

ـ هذه هي المسألة بالضبط، لقد مررت بها لكن دون توقف كافٍ يتيح لي معرفتها كما كنت أرغب بحيث أستطيع خدمتك كدليل. حين أقول إنني لا أعرفها فهذا يعني أنني أعرفها معرفة سطحية، ولقد مرت سنوات على مروري فيها آخر مرة. حدثت تغييرات كبيرة فيها منذ ذلك الحين.

ـ «واضح أنك لاتريد مرافقتي، ربما كانت لك حبيبة هناك ولاتريد أن تظهر معي»، ثم ضحكت ضحكتها الحادة العصبية مرة أخرى.

وقف القبطان وأمسكها من ذراعها: أرجوك لاتقولي ذلك. منذ زمن طويل انتهت تلك الأيام بالنسبة لي؛ منذ أن تقاعدت. حتى أنني كنت أظن بأنني لن أنظر إلى امرأة أخرى بعد ذلك، ولكن الآن...

ـ ماذا؟

وتوقف أحد المسافرين قربهما ليبلغهما: «لعبة البنغو على وشك أن تبدأ، وهم ينتظرونك يا سيدي!».

تنهدت السيدة، وشد فاسكو أصابعه على ذراعها لوهلة ثم تقدما نحو القاعة. كانت تسير وعيناها مثبتتان على السماء المرصعة بالنجوم وعلى المياه المخضرة وهي تلوح بمنديلها باسترخاء. لقد سمع كلمات الراكب الحشري ولكن دون أن يستوعب معناها لأنه تحت سطوة العطر الذي يفوح منها وهو يحس برعشة جسدها على رؤوس أصابعه. وقبل أن يدخلا القاعة احتواها بين ذراعيه لأن كلوتيلد، السابحة في أحلامها، لم تنتبه لأنبوب التصريف الممدود على السطح، وتعثرها به ألقاها على القبطان. أمسك بها ولجزء من الثانية تفجر عالم من الانفعالات، ثدياها على صدر فاسكو وخصلات شعرها على وجهه، حتى أنه أحس بحرارة رحمها المجدبة.

جلسا على الطاولة مع السيناتور، الذي كان معه ورقتا بنغو أمامه، وكان يلقي بنظرة امتعاض على الطاولة المجاورة حيث كان عضو مجلس الأمة أوتون والممثلات يطالبون بأصوات عالية أن تبدأ اللعبة. وأدارت سيدات رصينات ظهورهن للجماعة المسرحية الصاخبة بتعبير واضح عن انزعاجهن. وكان الأطفال يصخبون طالبين السكاكر. الركاب، جميعهم احتشدوا في القاعة، وجاء خادم فاشترى القبطان ورقتين، واحدة له والأخرى لكلوتيلد.

- ستساعدني على إيجاد الأرقام، أليس كذلك أيها القبطان؟

وأعلن مسؤول الحسابات عن الجوائز، من مكانه قرب البيانو ومعه حقيبة الأرقام: خمس جوائز دفعة واحدة، الأولى، لأول من عبأ صفاً بالعرض، وهي زجاجة كولونيا، وبإشارة من المحاسب رفع الخادم الزجاجة، الجائزة الثانية لأول من عبأ صفاً عمودياً، وهي حمالة مفاتيح فضية جميلة. وعلق المحاسب تعليقات ممازحة على الجوائز مثيراً الضحك والتعليقات الجانبية لدى المشاهدين، بينما كان الخادم يرفع حمالة المفاتيح ليراها الجميع. الجائزة التالية منفضة سجائر وعليها ختم الشركة مع صورة (إيتا) التي يسافرون على متنها. كانت هذه هي الجائزة الثالثة. الرابعة التي كان

المحاسب يلفت الانتباه لأهميتها ستمنح لأول ورقة مملوءة تماماً. وكانت قطعة من الخزف على هيئة أريكة صينية، طراز لويس الخامس عشر، يجلس عليها عاشقان متماسكا الأيدي ويتطلع كل منهما في عيني الآخر. التعبير الأقصى عن ذوق البورجوازية الصغيرة أثار الآهات بين الرجال والنساء، الشبان والكبار، ومن السيناتور وكلوتيلد. الجميع كانوا يريدونها، وحملها الخادم بحماس بالغ ودار بها من طاولة إلى أخرى لأن الجميع كانوا يودون أن يروها، ابتداء من الممثلات.

وتنهدت كلوتيلد: «آه لو كنت محظوظة وكسبتها».

الجائزة الأخيرة، للصليب الرابح، وكانت مفاجأة، شيئاً أكبر قيمة وجمالاً حتى من الشيء المدهش الذي سبقه. هي ذي على البيانو ملفوفة بورق شفاف، رزمة مربعة كبيرة، ربما علبة، أثارت الفضول والتعليقات. طلب المحاسب من الجميع أن ينتبهوا لأن اللعبة على الجائزة الأكبر على وشك أن تبدأ. ورجا الأطفال «هؤلاء الملائكة» قليلاً من الهدوء، وبدأ بإعلان الأرقام. كانت زجاجة الكولونيا قد كسبها مربّي ماشية له لحية صغيرة، ويرتدي سترة من الخيش العشبي، قال وسط التصفيق: «سآخذها إلى الزوجة في كراتو».

وراحت حمالة المفاتيح إلى فتاة في الثالثة عشرة من عمرها على أساس أنها صاحبة أكبر مجموع، بينها وبين لاعبين آخرين عبآ صفوفهما في الوقت ذاته. وراحت منفضة السجائر إلى الممثلة السمراء التي قدمتها إلى عضو مجلس الأمة تحت نظرات الامتعاض من بعض العائلات ومن السيناتور. ثم جاءت اللحظة المثيرة لـ «عين العجل» أول من يملأ ورقته ويتلقى الأريكة مع العاشقين «هذا العمل الفني، هذا الشيء الجميل، ذلك الذي لانظير له» حسب كلام المحاسب. وساد صمت مطبق عند النداء بالأرقام، ووصلت كلوتيلد، التي كانت نهداتها بعد كل جائزة تفشل في الحصول عليها تسبب الحزن للقبطان، إلى ذروة توترها، فتشوشت تماماً بالنسبة لورقتها

وصار على القبطان أن يلمس ذراعها كل لحظة يستدعي انتباهها إلى رقم أعلن وإلى أنها نسيت أن تضعه.

وبغتة هتفت: لم يبق عندي إلا فراغ واحد لإملائه.

ولم تكد تنهي كلامها حتى صاح رجل يجلس قرب البيانو: «بنغوا».

كان زبوناً يلبس بطريقة رياضية، كثير الكلام، قال عن نفسه إنه رأسمالي في إجازة، يقوم بهذه الرحلة ليتعرف على المدن والمناطق في الشمال، الأمر الذي كان دائماً يحلم بالقيام به وها هو ينفذه الآن. ولكن على ما يبدو لم تثر اهتمامه مشاهد البحر أبداً، لأنه كان يقضي نهاره وليله على مائدة البوكر، ليكسب أموال المزارعين ورجال الأعمال. بعد ظهر هذا اليوم بالذات وقف القبطان ليتفرج على اللعبة وأحس أن ذلك جعل الرجل عصبياً، وكأن وجود فاسكو خرب له حظه ونَحَسَه. وبالفعل بدأ يخسر ولذلك فإن القبطان، الذي يعرف جيداً اللعبة وأحابيل اللاعبين، انسحب بلباقة.

خاب أمل كلوتيلد كثيراً حتى كادت أن تبكي: «كله من أجل رقم واحد فقط... وكنت أريد هذه الذكرى من كل قلبي».

هدأها فاسكو، إن كانت الأريكة تعنيها إلى هذا الحد فستظل لها، وليس لها أن تحزن.

- ولكن كيف طالما أن الرجل ربحها؟ هذا الوحش الكريه.

وضربت كعبها على الأرض وجحظت عيناها.

كانت لدى فاسكو فكرة، لكنه أبقاها لنفسه. وبدأ المحاسب يعلن الأرقام من أجل الجائزة النهائية، المفاجأة. وربحتها العروس الشابة، التي تظل متعلقة بذراع زوجها، والاثنان يتبادلان القبل والعناق في كل زاوية من زوايا السفينة وينادي كل منهما الآخر بأسماء التدليل: «يا قريدسي الصغير»، «يا بقة جوزتي»، «يا كتكوتي العزيز»، جاعلين نفسيهما عرضة لِلابتسامات والتعليقات الحاقدة.

والتف الجميع حولها وحول زوجها ليروها وهي تفتح الرزمة التي ظهر منها صندوق، ومن الصندوق رزمة أخرى، ومن الرزمة صندوق آخر ثم رزم أخرى وصناديق أخرى إلى أن وصلت في النهاية إلى رزمة صغيرة كانت تحتوي، عند فتحها، على مصاصة أطفال. وحدث احتفاء وضحكات وتعليقات بارعة، والرابحة تبتسم بارتباك والزوج منزعج.

وتكلم الدكتور أتون بصوت مرتفع: «الحظ يعرف ما يفعله».

وأضافت السمراء الناهدة بصوت منخفض: «إذا استمرا على ما هما عليه سترزق بتوأمين على الأقل».

خلال لعبة البنغو كان القبطان يأمل أن يعود إلى السطح مع كلوتيلد لإكمال مشوارهما وحديثهما، كان يحس أنه رومانتيكي ومستثار، وكان على وشك أن يقترح عليها أن يغادرا القاعة، مدعياً أن الجو صار حاراً، ويعرض عليها نسيم البحر ونجوم السماء الصافية حين اقتربت مجموعة من الشبان من الطاولة.

- اعذرنا أيها القبطان، ثم التفتوا إلى كلوتيلد، «هل تتلطف المدام فتعزف لنا شيئاً ما لنرقص؟».

وأخذت كلوتيلد وضعية المغنية الأولى في الأوبرا:

- لا أحب أن أعزف موسيقى راقصة، أنا أعزف ما أحبه فقط.

- أوه! تأوهت فتاة ربما كانت في الثامنة عشرة من عمرها، زهرة الجميلات السمراوات في برنامبوكو: «إنه آخر يوم على السفينة، على الأقل كرمى لي، كنا نريد أن نرقص قليلاً»، وابتسم لكلوتيلد شاب يقف قرب الفتاة وهو يرجوها بعينيه.

- «رجاءً، اعزفي قليلاً، كوني لطيفة»، رجتها فتاة أخرى برونزية ذات شعر أسود مرسل، من الجمال الهندي المختلط، بعينين كاللهيب.

واستمر الشبان والشابات بالرجاء. هذا الشباب كله، الذي في

بدء حياته، المتشوق والشديد الحماس أثر في القبطان فتخلى عن المشوار الذي كان يأمل فيه وأضاف رجاءه إلى رجاءاتهم: «اعزفي، أحب كثيراً أن أسمعك».

ـ طيب، في هذه الحالة، كرمى لك فقط أيها القبطان.

ومشت نحو البيانو ترافقها المجموعة المرحة وهي تضيف: «ليس كثيراً، ياسمين ينتظرني».

ماكادت النغمات الأولى تصدر حتى كانت السمراء من برنامبوكو تدور بين ذراعي حبيبها الرياضي، الذي قابلته في الرحلة، حالة حب من أول نظرة. كان في طريق العودة إلى فورتاليزا حيث يعمل في بنك، وقد وعدها أن يأتي لرؤيتها في ريسيف في عطلة عيد الميلاد.

الفتاة المختلطة الدماء ذات العينين المتأججتين التفتت إلى القبطان وانحنت له انحناءة طريفة: «أيها القبطان، هل تمنحني شرف هذه الكدريل»(*)؟

نهض فاسكو وأمسك بيد الفتاة. كان راقصاً بارعاً، معروفاً عنه بأنه الأبرع في الرقصات الخفيفة منذ أيامه في بنسيون مونت كارلو، وشهرته كراقص مايزال يذكرها البحارة الذين أبحروا معه إلى الشرقين الأوسط والأقصى وإلى البحر الأبيض المتوسط وبحر الشمال. كان هناك أسلوبان للرقص: «الرقص الحار» جسداً لجسد، خداً لخد، والراقصان يثير كل منهما الآخر بهذا الالتصاق الحار. هذا أسلوب بنسيون مونت كارلو وكباريه التنين الأصفر في هونغ كونغ، والقبو الغامض، والنيل الأزرق في الإسكندرية، و«أسلوب المجتمع الراقي» حيث رؤوس الأصابع لاتكاد تلمس ظهر الشريك وبينهما مسافة على مدى الذراع، وضعية محتشمة تسمح بالتحدث مع السيدة. بهذه الطريقة كانوا يرقصون في حفلات الترفيه الرسمية،

(*) رقصة لأربعة أزواج من الراقصين.

وفي حفلات الترفيه في الأربعمئة في باهيا، وفي الرقصات على عابرات المحيط المرتحلة بين أوروبا وأستراليا. بهذه الطريقة بدأ الرقص مع الفتاة ذات الدم المختلط التي كان جمالها الشاحب مربكاً. لماذا كانت تذكره بدوروثي على الرغم من أنهما ليستا متشابهتين أبداً؟ ولكن هناك بشكل عام شيئاً مشتركاً بين الفتاة الريفية القادمة من فيرا دو سانت آنا وهذه الصبية من بيليم: العينان القلقتان المصفرتان، الرغبة الضمنية المكشوفة، في كل لمحة فورة، حتى أخف الحركات تفصح عن توق ونهم للحب. هما، هاتان المرأتان، النساء كلهن.

ثم أحس بها ملتصقة به: فخذها يلامس فخذه، وثدياها على صدره، وشعرها الأسود الطويل يمس وجهه، أغمضت الفتاة عينيها وعضت شفتها السفلى، وخاف فاسكو. عن البيانو كانت كلوتيلد تنظر إليه مقطبة، حاول أن يبقي مسافة بينه وبين ذلك الجسد الجائع لكنها تشبثت به. وفهم، من التواضع الذي تعلمه من المجنون دوروثي، أنه ليس هو، فاسكو ذو الستين عاماً والشعر الأبيض، الذي تلتصق به وتمنحه نفسها في الرقصة؛ بل أي رجل، بغض النظر عن عمره ولونه وخلقه أو مظهره.

ولحسن الحظ لم تستمر الموسيقى طويلاً، قطعت كلوتيلد المعزوفة بشكل مفاجئ، وانفصلت أزواج الراقصين.

انحنى فاسكو: شكراً جزيلاً يا آنسة.

- إنك راقص بارع أيها القبطان، أنا التي يجب أن أشكرك.

واتجه إلى كلوتيلد عند البيانو، فأشارت بحدة: «لهذا إذن طلبت مني أن أعزف؟!».

لن يكون هناك مشوار الليلة، وحين سمح لها الشبان أخيراً، بأن تنهض وتغادر، كان الوقت قبل منتصف الليل وكانت كلوتيلد قد صارت قلقة على كلبها البكيني الوحيد في الحجرة. رتبا أن يزورا

ريسيف في اليوم التالي، كانت ماتزال مستاءة قليلاً وقالت عن شريكته في الرقص إنها قحبة.

دخل فاسكو غرفة الألعاب. كان الشبان يلعبون الكونكان وثلاث طاولات يتم عليها لعب البوكر. على واحدة منها كان الرأسمالي المزعوم في رحلة الاستمتاع في عزه، وقطعة الخزف التي كسبها إلى جانبه. اللاعبون الآخرون مزارعون ورجال أعمال. الثلاثة كانوا يخسرون. سحب فاسكو كرسياً وجلس إلى جانب اللاعب المحظوظ.

- أتسمحون لي؟

- ما هذا السؤال أيها القبطان؟ بكل سرور، أجاب أحد اللاعبين.

- هل تعرف اللعبة أيها القبطان؟ سأل الرابح.

- ليس تماماً، لا أفهمها، لكنني أحب أن أتفرج، من يربح؟

- ألا ترى؟ أجاب شخص آخر من الخاسرين: «الدكتور ستينيو، عمري لم أر مثل هذا الحظ. رابح بالفطرة».

ضحك الدكتور ستينيو الآنف الذكر برضى، ربما من التلميحة وربما لاعتراف القبطان بجهله بالبوكر. وجلس فاسكو قليلاً وهو يطرح بين حين وآخر سؤالاً بليداً عن قوة الأوراق وقيمة الرهان. وراقب لعب ستينيو باهتمام شديد.

- أين ستنزل يا دكتور ستينيو؟

- في بيليم. سأبقى هناك عدة أيام وربما ذهبت إلى ماناوس على متن فاتيكانو. طريق عودتي على الميرانت جاسغي من لويد. ورد على رهان أحد المزارعين: «آتي بـ 32 وأزيد إلى 64».

قبيل الواحدة والنصف اقترح أحد اللاعبين الذي وصلت خسارته إلى عدة كونتوسات أن يعتبروها ليلة كاملة. وظل فاسكو يراقب وهو يرى الحسابات تختتم والوداعات تحدث. وشكا أحد

المزارعين الذين سينزل في ريسيف بأنه لن يستمر ولذا فإنه لن يستطيع استرداد خسارته. وضع الدكتور ستينيو مرابحه في جيبه وكان على وشك أن يأخذ قطعته الخزفية والذهاب. لكن القبطان بعد أن ودع اللاعبين الآخرين قال له: «مايزال الوقت باكراً. دعنا نتحدث قليلاً يا دكتور...».

- أكاد أموت من النعاس أيها القبطان، فلنؤجل ذلك إلى الغد.

- بل اليوم، والآن، اسمع أيها الغشاش، أنت لست ذاهباً إلى بيليم، ستنقطع رحلتك في ريسيف.

- ولكن ما معنى هذا أيها القبطان؟

- كما قلت لك تماماً، اسمع يا عزيزي، لقد ولدت وأنا ألعب البوكر، وجبت البحار أربعين عاماً؛ قضيت عشرين منها في قيادة السفن في آسيا، أعرف كافة ألاعيب مقامري السفن المحترفين. فانصرف بهدوء إن كنت لاتريد أن تنزل من السفينة إلى السجن.

- لكنني دفعت ثمن بطاقتي...

- وكان استثماراً رابحاً. لقد حصلت على مردود جيد لقاء نقودك. ما رأيك؟

- إن كانت هذه أوامرك... ولم يجادل. تلك كانت إحدى قواعد لعبة حياته. سينتظر سفينة أخرى تأخذه إلى بيليم.

نهض فاسكو وأمسك بقطعة الخزف الصيني ومشى نحو الباب.

- ليلة سعيدة.

- ولكن عفواً أيها القبطان، هذا الشيء الذي تحمله معك لي.

- لك؟ ماهو؟

- هذه الحلية الصغيرة، ربحتها بالبنغو بحظي وحده ودون أي خداع.

- دون احتيال، ربما، ولكن هذه تجلب حظاً كبيراً في البوكر كما رأيت الآن، الأفضل أن تتركها معي.

غادر المقامر الغرفة وهو يلعن حظه، لِمَ بحق الشيطان يضعون مكان قبطان ميت كلب بحر عجوز ماكر يعرف كل حيلة من حيل الغش في اللعب؟ هز كتفيه مستسلماً. سيحاول محاولة أخرى في ريسيف. هناك مالكو مطاحن السكر المحملون بالسكر والمغرمون بالبوكر. ما أسف عليه هو خسارته للأريكة الصغيرة الجميلة التي عليها العاشقان. كان يريد أن يأخذها إلى دانييلا، زوجته، كهدية، فهو متزوج وسعيد في حياته الزوجية ولديه أربعة أطفال، صبيان وبنتان، كان يعبد أسرته وليس هناك زوج أو أب أفضل منه.

تنهد القبطان. التقط قطعة الخزف ثم خرج إلى هواء الليل.

القبطان يستغرق في حلم يقظة وما شاهده بالمصادفة في ظل قارب النجاة

كان القبطان غارقاً في حلم يقظة في ساعات الفجر على سطح السفينة، وضع الخزف الصيني بعناية إلى جانبه؛ وبين حين وآخر كان يبعد عينيه عن النجوم، التي كانت مثل مروج لانهائية تسرح فيها الأحلام، وينقلهما إلى العاشقين الجالسين على الأريكة البورسلين. حياته كلها كانت حياة وحدة وانتظار طويل متباطئ. في البحر، كما هو في هذه اللحظة، يدخن غليونه وحيداً تحت الرياح ونار القديس إلمو، من مرفأ إلى آخر، يبدل دائماً السفن والنساء. بيته سرير ضيق. ولم يأت أبداً يوم مينائه الأخير الذي تنتظره فيه الأسرة على الرصيف. زوجته أذبلها الانتظار وأولاده متشوقون لرؤية الهدايا التي جلبها معه من الأماكن القصية الغريبة. لم يسبق أن كان له بيت خاص في أي ميناء. لقد ظل يسند رأسه المتعب على الوسادة المستعارة في المباغي؛ ويسند قلبه المحترق على أثداء النساء الغريبات؛ كان وحيداً في هذا العالم، وحيداً مع سفينته، وحيداً مع رحلاته.

وهل يستطيع امرؤ أن يعيش وحيداً دائماً على هذه الصورة؟ بيت بريس لم يعد بيتاً منذ موت أبيه وأمه. وتراءت الشخوص في الذاكرة. لقد ترعرع في المكتب وفي المخزن؛ بين البالات وقوائم التحميل، بين لحم العجل المقدد والرسائل إلى الزبائن. علاقات الحب لدى اليافعين، النظرة الوجلى، البسمة الخجلى، الوداع الذي يلوح له عن بعد، لمسة اليد السريعة، القبلة المسروقة وراء باب. لم

يكن له أي شيء من هذا، لا في المكتب ولا في البحر حيث كان الخادم الفتي للكابينات ينظر من بعد إلى المسافرات الجميلات المتعجرفات. وحين حررته وفاة جده كان قد قارب الثلاثين وكانت أيام الآهات الرومانسية والألم العذب والعذارى في بدء تفتحهن قد تجاوزته. وحيد حتى بين أصدقائه. وحين استطاع أن يصبح واحداً منهم غادروه واحداً بعد الآخر، مثلما تتابعت النساء إلى سريره في بيت بريس. البعض يظل فترة أطول. دوروثي تركته واسمها والقلب موشومان على ذراعه. ولكنهن كن كالمسافرات على متن عابرة محيطات تبحر قدماً ووراءها امتداد لانهائي من المياه المتموجة. ماذا تعني المغامرات والافتتان المؤقت في المباغي والعبث في بيوت اللهو؟ وماذا تعني العلاقات العابرة المفاجئة في السفرات والليالي الصاخبة في الموانئ الضبابية الغامضة؟ الحب، الحب الثابت المستمر، الذي يبني بيتاً وحياة، والذي يزهر أطفالاً يحملون اسمه، وشوق زوجة، صوت طفل يناديه، رأس صغير أجعد يحتمي في برج صدره؛ هذا ما لم يكن له أبداً. لم يكن لديه الوقت لذلك: كان دائماً في البحر في السرير في بريس وفي المباغي، وعلى متن سفن الشحن والبواخر. وحيد دائماً، في سفينته، مع سفراته، وتحطم السفن والعواصف والتيارات البحرية والرياح والأعاصير.

هو الآن مثل منبوذ في آخر رحلة له. فهو يعرف أنها الأخيرة. لن يعود أبداً إلى سطح السفينة المتأرجح، سيظل يراقب دخول السفن وخروجها من المرتفعات الصخرية في بريبري من خلال تلسكوبه، ودائماً أكثر وحدة وأكثر انحناء تحت ثقل ذكرياته، ثقل حياته العابثة، دون أن يكون معه أحد يشاركه إياها. وبلا مكان يريح عليه رأسه، وبلا كتف أخرى إلا كتف الطباخة النكدة مثلما كان أيام الشهوة الجامحة يعري نفسه في غرفة روزا الزنجية التي لانوافذ لها في ذلك المخزن عند سفح لاديبرا دا مونتانها.

وصحيح أن حياة القبطان على متن سفينته جميلة ويحسد عليها كما يعيشها الآن، على متن هذه الإيتا، مع هذا العدد الغفير

الذي يعتمد عليه، وهذه المصائر العديدة التي تتحدد تحت يده القوية، هذا القدر من الضحك والآمال الجامحة والسياسيين الهامين، والمزارعين والصناعيين الأثرياء، والسيدات المتزوجات الحذرات الواثقات من حضورهن، والمومسات مع توقعاتهن الغامضة ومستقبلهن المشكوك فيه، والشبان الذين هم في بدء حياتهم، والمقامرين المحترفين المجازفين بحريتهم؛ هؤلاء جميعاً يتكلون عليه ويعتمدون على أوامره كقبطان.

ليس للقبطان حتى الحق في أن يسيره ما يحب وما لايحب. لديه واجبه الذي عليه أن يؤديه، وليس هناك مفرّ منه. لقد كان لديه ضعفه الدائم أمام المقامرين المحترفين الذين يعيشون دائماً على الإغراء الصعب والخطر للورق المعلّم، يغشون ويوزعون الورق من تحت، ويعتمدون على براعة أيديهم وعقولهم. عاشر العديدين منهم خلال سنوات عمره الطويلة، ويستطيع أن يشهد على حقيقة كونهم كرماء وودودين، على طريقتهم، ويعرفون كيف يبتلعون الهزيمة حين ينجح حادث عابر صغير في تحويل مغامرتهم الدائمة إلى إهانات وضرب وسجن. لقد تمرن معهم وتعلم حيلهم في ليالي الاستعراض الحميمة. ولو لم يكن هو القبطان وعلى رأس سفينته ولديه واجب عليه أن يؤديه لاستطاع ستينيو أن يغنم كل ما لدى تجار الماشية والمزارعين والصناعيين والتجار وأصحاب مطاحن السكر، ولما كان هو قد اهتم من قريب أو بعيد، كان سيكتفي بالابتسام؛ بل ربما كان غمز بعين مشجعة إلى الغشاش الماهر. لكن القبطان ليس سيد إرادته، وليس الذي يفعل ما يحب وما لايحب، إنه ملتزم بحماية مسافريه من أخطار البحر وأحداث الدنيا العارضة.

لقد أخذ منه الأريكة البورسلين التي عليها العاشقان باللون الأرجواني والأبيض، واللذان يمسك كل منهما بيد الآخر، والتي لم يسرقها ستينيو بل ربحها دون غش. ولكن ما نفع عمل فني بالنسبة له؟ لاشك أنه، مثل القبطان، دون مأوى ولا أسرة، دون مرفأ، بل هو

تحت رحمة المد والجزر. سيتركه في أية غرفة في مبغى، بين يدي أول امرأة ينام معها. وكلوتيلد تريده وتتمناه.

أما يزال هناك وقت لتبديد وحدته وإنهاء انتظاره الطويل؟ إنه في الستين من عمره، شعره أبيض، ولم تعد لديه القوة التي كانت لديه في ما مضى، حين كان يستطيع حمل صناديق اللحم المجفف والسمك المملح وبراميل الزبدة، ويمسك بعجلة قيادة السفينة بثبات وسط العاصفة، مدير دفة لانظير له. لكنه مازال قوياً بشكل مدهش بالنسبة لسنه، وقلبه مايزال قلب صبي، لم يعرف الصبا، نقياً ومستعداً للحب الكبير والمحدد، حب عمره. نعم، مايزال هناك وقت. عنده بيت قرب الشاطئ، نوافذه الخضراء تطل على البحر، وينقصه سيدة. في هذا البيت رجل يعيش وحيداً، وأمامه الحياة كلها ليعيشها، والماضي ليشارك فيه غيره ولكن ليس لديه أحد يساعده في هذه المهمة، ولا يد يستند إليها حين يصح الطريق مرهقاً في ما بعد. إلى متى سيستطيع البقاء برأس مرفوع دون استسلام للحزن، ودون أن يصبح سجيناً داخل الجدران الصماء لعزلته؟ آه لو أنها ترضى بنقل شخصيتها اللطيفة، وموسيقاها وبيانوها ومفاتنها الناضجة الحيية، وخصلات شعرها وضحكتها المختصرة إلى ضواحي بريبري. لو أنها ترغب في أن تزرع في القلب المجروح والمتحرر من الأوهام غرسة حب جديد... آه سيظل هناك وقت لتهديم جدران وحشته المدمرة ولجعل حدائق مرفأ راحته تزهر في نهاية رحلته الأخيرة والممدودة. وإضافة إلى ذلك قد لايكون فارق السن بينهما كبيراً. ولقد قدر أن عمر كلوتيلد يجب أن يكون حوالى الخامسة والأربعين.

الآن فقط، حين قابلها، أحس أن حياته كلها لم تكن إلا وحشة وانتظاراً طويلاً.

صوت مخنوق، كالآهة، كشخص يجهد كي يتنفس، نقله إليه النسيم. جاء من الطرف الآخر، من ظل قارب النجاة. القبطان، الذي يقوم بواجبه دائماً، والساهر دائماً، راح يصغي باهتمام بأذنيه

المعتادتين على الصمت وعلى صوت البحر، وراح يتقدم بهدوء. وعندها رأى في ظل قارب النجاة الممثلة النحيلة والسيناتور المبجل. كانت ممددة وثوبها قد ارتفع بينما هو دون سترة ومعوك ويلهث في تلك اللعبة الممتعة.

تراجع القبطان لكي يفكر، من منطلق العدالة الصارمة. إذا تصرف بقسوة حاسمة مثلما فعل في حالة المقامر، سيكون عليه أن ينتزع كلاً منهما من بين ذراعي الآخر ويطالب بسلوك أكثر احتشاماً، على متن سفينته، ومن راع لبلده. ولكن القبطان يجب أن يكون مرناً أيضاً، ويتجنب الفضائح التي يمكن أن تلحق بسفينته سمعة سيئة. أكثر من ذلك كيف يستطيع، وهو الذي كانت لديه مغامرات عديدة، أن يصب جام غضبه على العشاق، حتى لو كانوا عشاقاً للحظة، وفي ساعة طقوس الحب المقدسة؟ اتكأ مجدداً على الحاجز وتذكر ذلك القبطان الآخر، جورج دياس نادرو، من البحرية، حين جاؤوه بشكوى على بحار قبض عليه في لحظة الممارسة مع مومس سمراء في زاوية معتمة من المرفأ، اكتفى بالضحك وقال: «إذهبوا واشتكوا إلى القس، أأنا المسؤول عن قضيب أخي؟»، ثم ألم يحتضن هو نفسه، فاسكو موسكوسو دو أراغان ذات ليلة قبل زمن طويل، وعلى متن سفينته هو، جسد دوروثي المرتعش والمقتحم بحمى الحب؟

أولم يكن يحلم هناك، في حلم يقظته، بلمس يدي كلوتيلد وشعرها وبالهمس بعبارات عاطفية في أذنها، وبسحق فمها تحت ضوء هذا النجم المتلألئ وبامتلاك جسدها على متن سفينته هو؟

الشبان على جسور ريسيف وفي شوارعها والمشهد المفاجئ والسريع

جلب لها خوخَ منجابا وزعروراً في روانوفا، وكاجا صفراء وبرقوقاً على رصيف روا أورورا، وكرزاً برازيلياً أحمر في روادو سوسيغو، وحليب جوز الهند على شاطئ بوافياجيم. وانذهلت كلوتيلد بفواكه الشمال الشرقي، وبالمانغا والبلاذر، وبالأناناس المليء اللذيذ، والتفاح اللامع أو الأنواع المختلفة من الغوافا. مشت متراقصة وهالتها الوقور جانباً والقبطان يحمل مظلتها العديمة النفع. كانا مثل مراهقين وهما يعبران الجسور والساحات والشوارع في ريسيف يضحكان دون أن يعرفا لماذا أو على ماذا. «مُهرِّجان عجوزان» حسب ما علق به عابر متضايق، وقد انزعج من الطيش الولّادي الذي يتصرف به القبطان وعازفة البيانو.

كان عضو مجلس الأمة من بارايبا والممثلات قد نزلوا على الشاطئ ذلك الصباح. وكذلك الدكتور ستينيو، الذي سحره منظر مدينة الكونت موريس من ناسو إلى درجة إغرائه، كما قال، بقطع رحلته والبقاء فيها عدة أيام لكي يتآلف معها أكثر. وحين خطا على المعبر ألقى نظرة لوم على القبطان. ليس لأنه كشف حيله في البوكر فالقبطان كان كريماً متسامحاً بهذا الخصوص، إذ لم يسلمه للبوليس ولم يقل كلمة واحدة حول هذا الموضوع ولاحتى لمربي الماشية المستغفلين. اللوم كان كله من أجل الأريكة الصينية. أين سيجد شيئاً جميلاً كهذا ليأخذه هدية لزوجته؟ كثيرون أيضاً نزلوا

إلى الشاطئ فالإيتا تُنزل ركاباً وتأخذ ركاباً في كل ميناء. حتى السمراء التي كان أهلها ينتظرونها على الرصيف نزلت. بالنسبة لها كانت الرحلة قصيرة جداً وقد انتهت. وحال نزولها إلى البر قدمت الصيرفي الرياضي الشاب من سييرا لوالديها وعماتها. قبيل المساء ستأتي إلى المرفأ لوداعه وعيناها ستتابعان السفينة بحزن.

بعد أن وقّع القبطان بضعة أوراق جلبها له وكيل الربان وبعد أن تحرر وذهب للبحث عن كلوتيلد كانت قد صارت على الرصيف مع المسافرين الآخرين. انطلقوا في مجموعة كبيرة معاً مما أزعج فاسكو بشكل ملحوظ. كان يحلم بأن تكون معه وحده هذا الصباح وفي فترة ما بعد الظهر لأن عليه أن يعود إلى السفينة مبكِّراً نسبياً من أجل توقيع أوراق أخرى. ووجد نفسه محاطاً بجلبة عائلات بأكملها مع حشود من الأطفال وكلهم يسألون أسخف الأسئلة وأبلدها وكأنه نوع من الموسوعة المتنقلة التي لاتعرف فقط الشوارع والمطاعم والبارات، بل وأيضاً ثمن الأشياء بما في ذلك حفاضات الأطفال.

لم يستطع أن يحذو حذو العريسين اللذين تصرفا وكأنهما وحيدان في جنة عدن وكأن الآخرين غير موجودين. لقد كانت معجزة أنهما لم يتمددا على مقعد في حديقة عامة، وهناك، وعلى مرأى من الجميع يتابعان شؤون حبهما حتى النهاية. القبلات والضمّات والمداعبات كلها مسموحة من قبل الدولة والكنيسة لأنهما حصلا على موافقة القاضي والكاهن.

لعن فاسكو الجزء الأول من المشوار في المدينة. وخاصة حين قفز ياسمين - وهو العيب الجدي الوحيد في كلوتيلد - من بين ذراعي سيدته لكي يشارك، دون أية فرصة في النجاح، في السباق الذي يقوم في وسط المدينة للتقرب من كلبة في حالة نزاء، من نوع كلاب صيد الثعالب ومتحدرة من سلالة مشكوك فيها. وما لم يكن ياسمين معتمداً على نسبه الشرقي وجماله الغريب لكسب الأنثى

المرغوبة التي تكبره ثلاث مرات في الحجم وجرها من قدميها فكيف له أن يأمل في منافسة كلب من نوع (بوكسر) يكشر أنيابه وكلب صيد آخر يبدو أن له حقوقاً زوجية وهو مستعد للدفاع عنها، إضافة إلى كلبين مهجنين آخرين؟ أحدهما، جزئياً هوداني(*)، وكان يزمجر في وجه البوكسر، كبير الحجم؛ والآخر ذو هيئة لايمكن تصور نذالة بعدها. هو كلب مهجن من الطراز الأول بعينين شكاكتين وبوز مقبول. كان هذا الأخير مع كلب الصيد الذي له سمة الزوج ينتحيان جانباً منتظرين ما سيؤول إليه العراك بين المتبارين من الوزن الثقيل. قد ينتهي الأمر بالانسحاب فيخرجان من المنافسة واسماها مشطوبان من لائحة المرشحين. وفي الوقت نفسه فإن كلب الصيد والهجين الأصغر كان كل منهما يتفحص الآخر استعداداً للجولة الثانية التي ستقرر من سيحصل على الكلبة. أما هي فكانت تبدو سعيدة بهذا النزاع طلباً لودها ـ القحبة.

وتغير الوضع تغيراً مفاجئاً حين قرر ياسمين أن يلقي بقبعته في الحلبة، بادئاً ترشيح نفسه بقفزة استعراضية وسط المتعاركين. التفتت إليه الكلاب الأربعة وهم يزمجرون في وجه القادم الجديد. وابتسمت له الكلبة، وقد تعاظم غرورها، وشجعته. للحظة سريعة تمنى فاسكو من كل قلبه أن يقوم البوكسر والهجين بتمزيق الكلب الصيني إرباً، وبمعونة كلب الصيد والهجين الآخر. لكن الأمور لم تسر على هذا النحو. بدا أن هؤلاء الخاطبين لديهم الكثير من الوقت ولم يكونوا متعجلين للقتال. كل ما فعلوه هو الزمجرة والتكشير والنباح المتقطع. والأدهى من ذلك أن أكثرهم عدوانية كان ياسمين.

وحين رأته كلوتيلد وسط الحلبة بين المتعاركين الأربعة كادت تجيئها النوبة. انطلقت من شفتيها صرخات هستيرية قصيرة ومدت ذراعيها وهي تشهق: «ياسمين! ياسمين!» ثم انهارت على مقعد وهي

(*) كلب قوي ناعم الشعر.

على وشك أن يغمى عليها. التفتت إلى القبطان ورجته قائلة: «أنقذ هذا الصغير المسكين بحق الله».

عيناها الراجيتان، وصوتها، الذي كان صوت شخص على وشك التعرض لنوبة من نوع ما؛ هذا ما دفع القبطان إلى التحرك. لقد كان طلباً أحمق. كيف سيدخل وسط دائرة الشهوة والكراهية لينقذ ذلك البكيني الصغير المقدام الذي وصلت شجاعته حد الجنون؟ التقط غصناً مرمياً قريباً منه، ومع صرخات كلوتيلد، التي تمزق القلب، تملأ أذنيه، تقدم مثل فارس من فرسان العصور الوسطى يواجه تنيناً له سبعة رؤوس وينفث النيران منها كلها، رمحه في يده تلبية لأوامر سيدة قلبه.

سبَّبَ ظهوره المفاجئ ارتباكاً واضطراباً. تراخى البوكسر قليلاً وتراجع خطوة. فاستغل الهجين الكبير ذلك وانقض عليه من الخلف، أما ياسمين فحين أحس أنه هو المستهدف من مناورة القبطان اندفع إلى الأمام واصطدم بكلب الصيد، فتدحرج الإثنان على بساط الزهور، واستغل الهجين الأصغر الذكي ذلك كله ليبتعد بالكلبة المرغوبة إلى زقاق قريب أكثر هدوءاً وملاءمة لممارسة الجنس. واستطاع القبطان أن يمسك برسن ياسمين ويقتلعه من بين أنياب كلب الصيد، الذي كان يتطلع حوله بشراسة بحثاً عن قرينته. وحينما التقط رائحتها واندفع نحو الزقاق كان الأوان قد فات. بطن من الجراء الصغيرة كان قد صار في الطريق.

لم تستطع كلوتيلد حتى أن تشكر القبطان، ضمت الكلب البكيني إلى صدرها ووجهها وقبلته من بوزه المجروح وتحسست عظامه دون أن تبدي أدنى اهتمام بالقتال الكبير الذي كان مايزال دائراً بين البوكسر والداني المزيف، ذلك القتال الذي يتم رغبة في القتال وحده الآن ودون كلبة للفوز بها.

إنها الريح غير المؤاتية التي لاتأتي بالخير لأحد. نتيجة لهذه المأثرة، التي أثارت ضحك المسافرين الآخرين والفضول الحاقد

لدى مجموعة من أولاد الشوارع، قررت كلوتيلد أن تعود بياسمين إلى السفينة لأن المدينة مليئة بالغوايات والمخاطر بالنسبة لهذا البريء المسكين، وبفضل ذلك تحرر فاسكو من الرفقة الكريهة المعرقلة لرفاقه المسافرين الآخرين.

وبما أنه كان قد اقترب موعد الغداء، وفيما هم ينتظرون صوت الجرس، شغلت كلوتيلد نفسها بوضع الدواء على آثار أنياب كلب الصيد على إحدى قوائم ياسمين.

هكذا، في ذلك العصر الحار، حدث أن راحا يتجولان في الشوارع مثل مراهقين. لقد ارتاحت من انفعالات الصباح الكلبية، وارتفعت مكانته في نظرها بسبب الشجاعة التي أبداها والسرعة التي لبى فيها رجاءها.

وبعد التجول في الشوارع والساحات طافا في صالون للأيس كريم حيث كانت تريد أن تتذوق كل المأكولات الخاصة بالمحل لتقارنها بالأيس كريس في بيليم الذي تراه الأطيب في العالم كله. وكان فاسكو يبدي إعجابه بشهيتها عندما، بغتة، كاد قلبه أن يتوقف. صدف أن تطلع نحو جسر الإمبراطور (صالون الأيس كريم في روا أورورا ومنه يمكن رؤية الجسر العظيم) وعندها، وبين الحشد العابر، رأى امرأة بدينة ترتدي السواد وعلى رأسها منديل يغطي شعرها وهي تمسك طفلاً من يده. لم ير إلا لمحة سريعة من وجهها، لكنه كان واثقاً من أنها كارول، وكانت تبتسم للطفل مثل جدة عجوز وحنون. نسي فاسكو الضيفة التي إلى جانبه، ونسي مركزه كقبطان في الخدمة، والأيس كريم الذي يجب أن يدفع ثمنه وانطلق من الباب راكضاً نحو روادا امبراتريز الذي ضاع فيه المشهد العابر. لكنه لم يلحق بها على الرغم من أنه نادى باسمها بصوت مرتفع مما أثار دهشة العابرين. وعندها أدرك أنه قد ترك كلوتيلد وحدها في صالون الأيس كريم فرجع مسرعاً.

كانت غاضبة، ولم تكن تريد حتى أن تتكلم معه. حاول أن

يوضح الأمر لها لكن كانت لديها صياغتها الخاصة بها لما قد جرى. لِمَ لم يخبرها بصراحة أنه كان يبحث عن عشيقة سابقة ضيع عنوانها؟ إنه يمشي معها في الشوارع وعلى الجسور وأفكاره بعيدة عنها وعيناه تتفحصان وجه كل امرأة يمران بها.

ـ يجب أن لاتظني هذا الظن، لقد بدا لي فعلاً أنني رأيت شخصاً لم أسمع عنه منذ عشرين عاماً.

ـ امرأة؟

ذات يوم سيحكي لها كل شيء، ولكن ليس الآن.

ـ امرأة؟! من أين لك هذه الفكرة، صديق، زميل خدم معي عشر سنوات على أكثر من سفينة. كنا صديقين حميمين مثل الأخوة، لكنه ترك عمله بسبب وفاة قريب له في برنامبوكو، في غارانهونس، مدينة في الداخل، ترك له بعض الأملاك، ولم أسمع عنه بعدها أبداً.

يجب أن تغفر له الانفعال الذي تملكه عندما رأى، بين الجموع التي تعبر الجسر، وجه صديقه المفقود. لقد كانا مثل الأخوة، ومتوحدين حتى أنه إذا ترك أحدهما العمل فإن الآخر كان يتركه أيضاً.

كلما ازداد عنف مشاجرات العشاق، كانت المصالحات أحلى. خرجا من صالون الأيس كريم يداً بيد وتوجها نحو المرفأ. لقد بكت قليلاً، دمعتين نشفهما بمنديله الحريري الذي نقشت على طرفه مرساة تزيينية، وحين أمسك يدها عند الباب ليساعدها في نزول درجات المدخل لم تسحبها بعد ذلك، فمشيا على هذا النحو، بصمت معبر أكثر من الكلام، إلى رصيف التنزيل حيث كانت إيتا تحمَّل شحنة ومسافرين.

من منصة القيادة كان وكيل الربان وضابط الإبحار يراقبانهما وهما يقتربان يداً بيد بخطوات إيقاعية والشمس والرضى على وجهيهما.

ضحك ضابط الإبحار وقال: قبطانك يستشعر البهجة اليوم.

التفت إليه جيرماتوس، وكيل الربان: «قل لي هل سبق أن رأيت قبطاناً يؤدي واجبه بهذا الإتقان؟ قبطان بهذا المقدار؟ لا أحد إلا أمريكو، ذلك المحتال، يمكن أن يكتشف لؤلؤة مثله».

«لؤلؤة البحر... البحر الياباني... بحر الصين... الطرق البحرية في الشرق...».

كانت الرافعات الضخمة ترفع أكياس السكر، والحمالون السود ينزلونها في العنبر.

الراوي يقطع الحكاية مرة أخرى بلا مبرر ولكن بمخاطرة كبيرة

أستميح القارئ عذراً لهذه المقاطعة، وللنواقص التي يمكن أن يكون قد لاحظها في الفصول السابقة. فإذا كنت مازلت أكتب، على الرغم من كل شيء، فلأن الموعد الذي حدده لي الأرشيف العام لإعادة المخطوط الأصلي (مع نسختين بالكربون) ينتهي خلال أيام قليلة. لكنني لا أعرف حتى ماذا أقول فكيف لي أن أهتم بالأسلوب وبالقواعد في وقت كهذا، يوشك العالم فيه أن ينهار على رأسي؟

لا، لا أعني القنبلة الذرية أو الهيدروجينية، أو الحرب الباردة، أو المشكلات الخطيرة في برلين ولاوس والكونغو أو كوبا، أو إنزال منصة لإطلاق صواريخ على القمر يمكن أن ينزل منها الدمار على العالم. أريد فقط أن أعرف متى سيحدث ذلك لكي أنزل في الفراش مع دوندوكا وأموت إلى جانبها.

أعني ما حدث هنا في بريبري خلال الأيام الماضية، مع بدء العام الجديد، والدخول الاحتفالي الملائم إلى عام 1961 الذي حييته بآمال بالمجد والمكاسب، بفضل عملي هذا، وبالسعادة الهنية بعد السلام والوئام اللذين سادا البيت الصغير في زقاق الفراشات الثلاث حيث تستقبل دوندوكا فضيلته في الصباح وخادمكم المتواضع في الليل.

نعم، لقد اكتشف كل شيء، والدولشافيتا ـ دون ذنب ـ غرقت في النزيف. أكبر اضطراب يتملك هؤلاء الثلاثة الذين وقعوا في نوبات

العاطفة والغيرة، وعواصف الاتهامات والتعطش للانتقام. لقد وقع البلاء الأعظم: صراخ ولعنات، إهانات، اتهامات، توبيخ، اعتذارات، غفرانات، علاقات مقطوعة، قطع العلاوة والهدايا، دموع، نظرات استعطاف، ونظرات كراهية قاتلة، تهديدات بالانتقام وحتى الضرب.

وبما أنني مؤرخ مع واجبه بجدية، فيجب أن أجد وسيلة لمعالجة القصة، لكنني لا أعرف كيف أقوم بذلك، فقلبي محطم ويتملكني صداع جهنمي. ولابد أن لدى الدكتور سكويرا صداعاً مماثلاً أيضاً لأن رأسه هو الذي كان متوجاً بمجموعة متناثرة من القرون وليس رأسي، ويجب أن يكون هذا مصدر راحة بالنسبة لي، لكنه لم يكن. كيف أستطيع أن أرتاح وأنا مهدد بأن لا أرى حبيبتي دوندوكا ثانية، وأن لا أمر في طريقها ثانية، وأن لا أسمع ضحكتها الكريستالية المرحة ثانية، وصوتها الرخي يرجوني أن أحكي لها حكاية أخرى عن القبطان؟

حدث الأمر بشكل مفاجئ، على الرغم من أن الشك كان موجوداً في الجو وفي عيني القاضي وموقفه. ولقد سبق أن ذكرت في فصل سابق التغير الملحوظ الذي طرأ على علاقة فضيلته بي وبدوندوكا. ذات يوم وجد العصفور الجريح المسكين الدليل الشرعي وهو يشم ملاءات سريرها ليرى إن كان يستطيع اكتشاف رائحة غريبة أو عرق رجل آخر، وكان قد صار فظاً وجافاً في تعامله معي، فيحدق فيَّ بقسوة وثبات ودون أن يلين أمام مدائحي، التي ألقيها بلا حساب، مثلما كان يحدث في السابق وإلى درجة أنه كان يمدح كتابتي بالمقابل. وعلى الرغم من أنني، وبجهد كبير مني، أصبحت لاعق أحذية ممتازاً، ووصلت إلى حد الإعجاب ببيجاما مخططة شنيعة. كان فضيلته قد قدم خلال تلك الأيام هدية عيد الميلاد جلبها من زبلين، منطاده، ولكن على الرغم من ذلك كله ظل أنفه مشمئزاً. وصرنا، أنا ودوندوكا، قلقين جداً فاتخذنا كل احتياط ممكن إلى حد استخدام شرشف ووجه مخدة في فترة ما بعد الظهر وغيرهما في الليل. وتوقفت عن مرافقة الدكتور سكويرا في زياراته بعد الظهر

لحبيبتنا. في السابق كنت آتي إما معه وإما بعد أن يكون قد صار هناك لشرب فنجان قهوة أو للتحادث والتسلية، ثم كنت أنسحب خلسة. في النهاية هو الذي يدفع الفواتير وبالتالي فله بعض الحقوق. وأنا لاأستطيع قضاء فترة ما بعد الظهر كلها هناك وأنا ملبوخ مثله. هذا إذا لم نذكر الوقت اللازم للبحث التاريخي من أجل العمل الذي أكتبه، لكنني الآن تواريت عن الأنظار، وظللت في الخلفية، فلا أذهب لرؤيته إلا في الليل لنتحادث قليلاً في الممشى ولإجراء استقصاءاتي الحذرة: حركات راعي القانون الشريف كانت مقيدة بهراوة قرينته العظيمة دونا أرنستينا الملقبة بابتذال باسم زبلين.

لكن ما من شيء من ذلك كان مفيداً. قبل أربعة أيام وفي ليلة حارة وحالما تمددت في السرير وبدأت أستمتع بإجاصة من الإجاصات التي جلبها معه القاضي من سَفره إلى باهيا؛ ودوندوكا، ضمن لعبة كانت تستهويها كثيراً وتجدها مسلِّية جداً، كانت مفرشخة على صدري وكأنها تمتطي جواداً وهي تنحني لتقبل عينيّ أولاً ثم أذني أو لتقضم قضمة من الفاكهة من فمي - وسط هذه الملاطفات الحلوة وفي اللحظة التي أحطتها فيها بذراعي لأشدها إلي - من الذي سيظهر في باب الغرفة المفتوح إلا الدكتور ألبرتو سكويرا الخطير مرتدياً قبعة من اللباد واسعة الحواف ونظارة سوداء وهو يضحك مثل دراكولا ويقول بصوت جنائزي: «صحيح إذن!».

هكذا يبدو، على أية حال، فإنني كنت مستعداً، لو أنه أعطاني الوقت، لمناقشته في الموضوع، فأنا بارع جداً حين يتعلق الأمر بالحقيقة. ولقد تعلمت، وأنا أجمع ذكريات القبطان هذه، أنه من المجازفة بالنسبة لأي إنسان أن يدعي أن لديه الحقيقة لمجرد أنه يرى نفسه مالكاً لأدلة وثائقية محددة، أو أنه شاهد بعينيه، مما يعطي عادة قيمة أكبر من حجمه. ولماذا نذهب بعيداً؟ وذاك اليوم كانت دونا كاكولا ودونا بكوانا زوجة تنكو بدريرا وكنته، تتباهيان

بأنهما رأتا صحناً طائراً فوق بريبري رأتاه بأعينهما التي سيأكلها الدود ذات يوم. وأثارتا ضجة إلى درجة أن مراسلين من صحف العاصمة جاؤوا لإجراء مقابلات معهما وظهرت صورة السيدتين المسنتين، وهما تشيران إلى السماء، في الصحف. وفيما بعد تبين أنه لم يكن صحناً طائراً أو شيئاً مدوراً له لون الفضة، ويتحرك بسرعة وله مصباحان ساطعان. كشف المد على الشاطئ عن طائرة ورقية مقاومة للماء كانت تبدو في ضوء الشمس كأنها من الفضة، ولها عجلتان، طائرة ورقية شردت، انقطع خيطها ووقع ذيلها وحملتها الريح فتحولت أمام عيون العجوزين الشمطاوين إلى صحن طائر من المريخ أو من الاتحاد السوفياتي حسب ما ترجحه الصحيفة.

ولكن لم يكن هذا وقت اعتبارات من هذا النوع، ويجب أن أعترف أنني في البداية لم أدرك خطورة هذا التقدير، فقد سيطرت علي النظارة السوداء والقبعة ذات الحواف العريضة. نظارة وقبعة مصممتان لإخفاء هوية القاضي عن أي متسكع ليلي في بريبري، وهذا يبين لكم كم طالت تخطيطات القاضي المسبقة. صرخت دوندوكا، وهي تقفز عن صدري إلى الطرف الآخر من السرير، هي التي نبهتني إلى الأبعاد الكاملة للدراما. ابتلعت قطعة الإجاص ولم أستطع أن أجد ما أقوله.

هناك، بباب الغرفة، ويده اليسرى على السقاطة لكي يبقيه مفتوحاً ويده اليمنى تشير إلى السرير، وسبابته مرفوعة، وصوته مرتجف ومخنوق... هكذا كان القاضي البارز يقف، صورة مجسدة للفضيلة الغاضبة، وللثقة في غير مكانها، والصداقة المغدورة. باختصار كانت الصورة الكاملة للديوث التقليدي، عطيل الخالد. ولم أستطع إلا أن أعجب به.

ولكنني لم أستطع الاستمرار في التمدد على السرير، وأنا أتطلع

فاغر الفم إلى فضيلة الديوث. نهضت ولبست خف غرفة النوم فسمعت صرخة خرجت من أعماق الروح، من قلب جريح: «اخلع خفي أيها الوغد».

خلعتهما ووقفت حافياً على الأرض الباردة، لقد كانت حقارة هذا الرجل الهام هي المسؤولة عن الرشح الذي أصابني ولم أشف منه بعد. وكان المشهد الذي أنا المشاهد والممثل فيه، مرتباً على الشكل التالي: عند مدخل الغرفة يقف القاضي المتقاعد مأسوياً وموجهاً الاتهام ومن الجهة الأخرى، قرب النافذة كانت دوندوكا تنتحب ويداها تحاولان إخفاء عورتها في إثبات متأخر لخفرها واحتراسها، وبينهما السرير مسرح الجريمة مايزال دافئاً، وأنا بتعبير أبله على وجهي أتطلع إلى سرتي. أظن أننا كان يمكن أن نظل واقفين بلا حراك على هذه الصورة ساعات وأياماً لولا أن دوندوكا رفعت عينيها الجميلتين إلى القاضي وقالت بصوت حنون: «برتي! ألبرتو! يا قطعة السكر...».

كان لهذه الكلمات تأثير لايوصف. ظننت أن القاضي سيصاب بالسكتة الدماغية؛ وسيقع وكأن صاعقة ضربته - تصوروا هذا الوغد - أو أنه سيخرج مسدساً ليطلق منه طلقتين واحدة على دوندوكا وواحدة علي. احمرَّ واصفرَّ وارتجف جسده وكأنه يُجلد وحاول أن يخطو نحو دوندوكا فلم يستطع؛ حاول أن يتكلم وكل ما استطاع التفوه به ضجيج حلقي، شيء ما بين النحيب والتجشؤ. حدق في الفتاة البريئة بعيني حيوان جريح ينازع ثم حول نحوي نظرة عدائية مهددة ومثقلة بالكراهية، واستطاع أن ينعب: «كلب! شويعر!».

أحنيت رأسي مفضلاً عدم الإجابة.

- أفعى.

هذه كانت لدوندوكا إلا أنها لم تصمت كما فعلت.

- برتي، حبيبي، سامح قطتك الصغيرة.

- «أبداً»، ثم أنزل حافة قبعته وبصق باتجاهي، وأدار ظهره لنا ومضى. ومن الباب الخارجي ألقى بالمفتاح إلى الصالون، وظللنا واقفين حيث كنا عاريين ومذهولين.

كان حزن دوندوكا أكبر من أن يجد عزاء، كانت قد تعودت على حياة الدلال التي تؤمن فيها كل ما تريد من بيت وطعام وملابس وحلويات. وأنا كنت تعودت على خفيّ القاضي وعشيقته. لم يغمض لنا جفن تلك الليلة وليس بسبب ما تفكرون به، بل بسبب سوء الحظ الذي وقعنا ضحيته. ماذا يخبئ الغد لدوندوكا؟ أن تعود إلى كوخ أبويها البائس وبنات بدرو توريسمو ومساعدة أمها في الغسيل والكي؟ كيف تستطيع أن تقوم بذلك بعد هذا الزمن كله مع الأظافر المدهونة والحرير والعطور، ودون أن تفعل شيئاً تقريباً ومع المزيد من التدليل؟ وبالنسبة لي فإن مسألة مساعدتها، وإبقائها في الحالة التي كان حساب القاضي في البنك قد حققها لها، غير واردة. فراتبي الهزيل لايكاد يكفي للحد الأدنى من نفقاتي، وهو الذي يجعلني مضطراً للعيش في الضاحية مع أهلي - ولقد ذكرت لكم أنني لاقيت التشجيع من حقيقة أن مدير الأرشيف، هو الآن الدكتور لويز هنريك الشهير والذي كان رأيه في عملي السابق «كمية من المعلومات المفيدة» - كل ما كنت أستطيع تقديمه لها هو هدية، قطعة قماش، خف، حلق، وربما خاتم. ولنفترض أن دكتوراً ما لم يظهر بشكل مفاجئ ويجردني من الشرف والشيك، على أية حال هذه العشرون ألف كروزيرو لن تكفيها إلا لفترة وجيزة.

وظلت دوندوكا حزينة طوال الليل وهي موزعة بين الحب ووسائل الراحة، كانت تبكي بين ذراعي وفي النهاية نامت على صدري.

في اليوم التالي ازدادت الأمور سوءاً، بدرو توريسمو الذي ذهب، كعادته، ليطلب من القاضي - المال اللازم للشراب - طُرد من

غرفة المكتب التي كان القاضي يكتب فيها دراساته عن التشريع بصمت وتأمل. هناك اعتاد أن يستقبل والد دوندوكا لأن المبدأ الساري هو أن دونا إرنستينا كانت تحترم الساعات المكرسة للفكر. وصل بدرو توريسمو بثقة ليقدم فروض الاحترام للقاضي المعتبر وليسأل عن صحة زوجة القاضي، ولقد قيل له من قبل دكتور مقطب اسمه سكويرا بأنه بعد اليوم غير مسموح له بدخول المنزل وأن ابنته مومس من أحط المستويات تحتقر الثقة التي تعطى لها. أما المال فيستطيع أن يذهب ويطلبه مني أنا، وذلك لأنه إذا كان هناك من يجب أن يدفع له ثمن مشروبه ورعاية ابنته فهذا الشخص هو أنا.

- «ولكنه لايملك سنتاً واحداً باسمه...» أجاب بدرو توريسمو مقدماً وصفاً دقيقاً لحالتي المالية.

ولم ينفع هذا الجدل مع فضيلته، فصفق الباب في وجه الأب الساخط، وتوجه السكير مباشرة إلى منزل دوندوكا. وبسبب تأثره على شرفه وعلى مصدر تموينه بالمشروب نزل عليها ضرباً من النوع الذي يزرق له الجلد وكسر على أضلاع الطفلة البريئة عصا المكنسة الجديدة. خسارة أخرى في لحظة عصبية كهذه.

وحين ظهرت هناك بعد الظهر، بعد التأكد عن بعد من أن القاضي في غرفة مكتبه، وهو يحاول معالجة آلام الغيرة بدراسة عقوبات التغرير، كانت دوندوكا في حالة غم كبير، وأضلاعها وذراعاها ماتزال حمراء من أثر الضرب الذي تلقته. تأثرت حتى البكاء ورحت أعتني بالجسد المعبود وأغطيه بالقبلات والملاطفات محاولاً أن أسكن آلامه. ولكن المشكلة الأساسية ظلت دون حل: كيف سندفع الفواتير؟ كانت نهاية الشهر قريبة، وإيجار البيت مستحق، والمال لازم من أجل التسوق والحاجات الضرورية والحاجات الكمالية.

وبغتة بدا أن الأمور تسير نحو الحل. بعد مرور يومين

استطاعت الأم المنكوبة لدوندوكا أن تقابل القاضي، فأخبرته كم أن ابنتها نادمة، وكيف أنها قد انخدعت بملق شخصية من يسمي نفسه شاعراً، وكان يرسل لها الأشعار ويأتي لزيارتها في بيتها بعد أن كان القاضي نفسه قد جلبه إليه.

ـ أنت نفسك يا سيدي من أخذته إلى البيت...

(لم يكن هذا الكلام دقيقاً لكن فضيلته لم يكن يعرف)، ودوندوكا التي تقضي لياليها وحيدة، هي الضحية وليست المذنبة. أنا أخذتها بالقوة تقريباً لكن الوحيد الذي تفكر فيه هو معبودها ألبرتو، «برتي» الجاحد كما كانت تقول طوال أيامها الباكية. ويا ليت الدكتور يستطيع، فقط، أن يرى كم تعاني هذه المسكينة، التي تبكي طوال النهار، نادبة حظها، رافضة أن تأكل، وهي تشحب وتهزل؛ وذلك كله لأنها لم تعد تراه... يجب أن يذهب ليراها على الأقل من قبيل الشفقة، وليمنع تلك الشقية من ارتكاب عمل جنوني لأنها لم تعد تتحدث عن أي شيء آخر. هي، الأم، صارت تنام هناك خوفاً مما يمكن أن تفعله بنفسها؛ ربما سكبت زيت الكاز على ملابسها وأشعلت فيها النار لتموت بين النيران.

تأثر ركن العدالة العظيم وقلق أيضاً. إذا ما قامت الحمقاء الصغيرة بأي عمل مجنون مثل محاولة الانتحار فسيكون من المستحيل تجنب الفضيحة والثرثرة والبوليس وسيصل الأمر في النهاية إلى مسامع دونا إرنستينا وهو لايريد حتى أن يفكر كيف سيكون رد فعل زبلين... «من قبيل الشفقة فقط» قال وتوجه إلى زقاق الفراشات الثلاث.

سوي الخلاف، هذا صحيح، ولكن تمت التضحية بي، سمح لي بلقاء أخير مع دوندوكا على أن لانكون وحيدين. كان بدرو توريسمو في المطبخ مسلحاً ببقية عصا المكنسة لكي يضمن الاحترام الأخلاقي والملكية الشخصية للقاضي. وأخبرتني دوندوكا، والدموع تجري على خديها، أن برتي قد غفر لها هذه المرة ولكن

بشرط أن لاتكلمني مرة أخرى أبداً. ماذا تستطيع التعيسة المسكينة أن تفعل؟ وأسوأ من هذا كله الشرط بأن يأتي أبوها وأمها للعيش معها في غرفة في طرف المنزل الخلفي، حارسين على الاستقامة الأخلاقية للفتاة وليضمنا الأخلاص الكامل للقاضي.

ـ دعي بضعة أيام تمر وسنجد طريقة يا حلوتي.

سهل أن تقول «دعي بضعة أيام تمر». حين التقى بي بدرو توريسمو في الشارع تطلع إلى بنظرة تهديد قاتلة، وأعلنت الأم للجيران بأنها ستطردني بعصا المكنسة إذا تجرأت على المرور في زقاق الفراشات الثلاث، فكيف سأتمكن من رؤية دوندوكا ثانية؟

وهأنذا الآن بلا امرأة في الليالي الطويلة البطيئة، لم يسبق لي أن اشتهيت أو أحببت أخرى مثلما أحببت واشتهيت الخلاسية الذهبية ذات الشفتين النهمتين، ولم يسبق أن كان عندي وقت مثل هذه المرة؛ الساعات التي كنت أكرسها سابقاً للثرثرة مع القاضي لم يعد فيها شغل لأن فضيلته قلص علاقته مع هذا المعجب به بلا شروط إلى مجرد هزة بالرأس. وفي الوقت ذاته كان الشغل يمشي ببطء وعناء. صارت التعابير تأتي بصعوبة، والأحداث عادت إلى التشابك في ذهني، لم أعد أستطيع التركيز على القبطان وعانسه الناضجة المحبوبة كلوتيلد. وهناك مصطافة ناضجة ـ جيدة وناضجة ـ على الشاطئ تطاردني عيناها، أرملة تأتي إلى هنا للمرة الأولى لتقضي الصيف مع بنات أخواتها. إنها لاتستطيع أن تراني دون أن تفقد أعصابها، فتبدأ معي حديثاً، وتشجعني ـ كل شيء باستثناء القبض علي ـ ولكن كيف يستطيع شخص احتوى بين يديه نهدي دوندوكا الصغيرين اللامعين وفخذيها المستقيمين، والذي لمس بطنها التي تطلق الشرر، أن يحس، ولو من قبيل الفضول المعروف، بأدنى رغبة في هذا الخراب الذي لايحتاج إلا إلى شيء واحد، وبسرعة شديدة، وهو الجراحة التجميلية؟

كيف أستطيع التوصل إلى الحقيقة المتعلقة بالقبطان

ومغامراته طالما أن ما أريد الوصول إليه في هذه اللحظة، والإعلان عنه وتوضيحه تماماً، هو: كيف استطاع صاحب الفضيلة أن يكتشف أمر زياراتي الليلة لزقاق الفراشات الثلاث؟ لابد أنه من خلال رسالة مغفلة التوقيع. أحد صانعي النحس من أبناء الضواحي، واحد مثل تيليماكو دوريا، أو أوتونيل مندونكا، يحسدني على نجاحي في مجال الكتابة التاريخية وعلى مكاني في فراش دوندوكا. إن سلالو شيكو باشيكو لم تنقطع بعد في بريبري. آه لو أنني أكتشف الحقيقة... عندها لن أتحدى الكلب القذر إلى مبارزة كما فعل القبطان، بل سأجعله يبتلع أسنانه عند أول ناصية شارع.

بخصوص النظرية العلمية للمحبطات

- «ها هو القبطان يواكب صديقته السيدة المحبطة» قال المحامي القادم من بارا، الدكتور فرمينو موريس، الذي كانت لديه تطلعات أدبية ومكانة اجتماعية كبيرة. كان عائداً من ريو، حيث كان يقوم بعمله كمحام في قضية أمام المحكمة الفيدرالية العليا لصالح شركة مصدرة للمطاط. وقد درت عليه الرحلة مئة كونتوس.

كان هناك تجمع كبير في قاعة الاستراحة، في المركز جلس السيناتور مع كاهن هو الأب كليماكو وسيدة متقدمة في السن ذات شعر أبيض متماوج وحضور فاتن، لابد أنها كانت جميلة في أيامها، وهي تعرف كيف تتقدم في العمر محتفظة برزانتها ولباقتها. بين حين وآخر كان أحفادها يأتون لينحنوا على ركبتها فترتبت عليهم أو ينالون كلمة لطيفة أو قبلة. العريسان كانا جزءاً من المجموعة إضافة إلى الطالبين القادمين من فورتاليزا، والفتاة الهندية ذات الدم المختلط التي كانت جالسة قريباً من السيدة اللطيفة الكبيرة في السن، والتي كانت تبتسم لها بين حين وآخر وتبدي إعجابها بجمالها الجامح. آخرون ونساء أخريات كانوا يجلسون على كراسي منجّدة، وكانوا سعداء بأن يكونوا بهذه الإلفة مع أناس ذوي أهمية مثل السيناتور والمحامي المشهور والكاهن والسيدة التي كانت عائلتها وأبناؤها وأصهارها، معروفين في كافة أنحاء البلاد. وكانوا يرقبون القبطان وهو يتقدم على سطح السفينة بصحبة كلوتيلد.

ـ ربما كان في ذهنك نساء بلزاك، قال أحد الطالبين الواثق من نفسه بما يفوق سنه.

ـ لا، نساء بلزاك شيء، والمحبطات شيء آخر مختلف. كلوتيلد ماريادا أسوكانو فوغويرا واحدة من المحبطات...

ـ لها اسم طويل مثل النبلاء، قالت العروس.

ـ كان والدها وكيلاً تجارياً جمع أموالاً كثيرة، وأخوها قام بتوسيع الشركة، أحوالهم جيدة.

رفعت السيدة ذات الشعر الأبيض يدها، وكان فيها خاتم صغير يزيد من قيمته نعومة الإصبع التي تلبسه، والتفتت إلى المحامي بوجهها المتطاول وسألت وهي تبتسم: «قل لي يا دكتور موريس ماالفارق بين نساء بلزاك والمحبطات؟».

ـ ألا تعرفين يا دونا دومنغاس نظرية المحبطات؟ إنها نظرية شهيرة تقوم على دراسات علماء نفس ومحللين نفسانيين. مجلدات تعالج هذا الموضوع. حتى أنني أعتقد أن فرويد قد كتب عن الموضوع، وابتسم المحامي سعيداً بأن يكون محط الاهتمام.

أبحرت السفينة على مياه هادئة خضراء محاذية لخط الساحل الأبيض. وكانت مراكب الصيادين الشجعان قد غامرت بالدخول إلى الأعماق والمسافرون يقفون عند الحاجز يرقبون الأشرعة الصغيرة البعيدة، وقف القبطان وأشار إلى أحد المراكب بإصبعه ثم قدم المنظار إلى كلوتيلد.

ـ «الفارق كبير بينهن، يا دونا دومنغاس، وبين نساء بلزاك، التفاصيل الصغيرة تولد اختلافات كبيرة». كان المحامي معروفاً في بيليم بحبه للعبارات التي تحتوي على تناقضات. قبل سنوات قام بنشر كتاب تحت عنوان: «أفكار وحكم» امتدحته الصحافة المحلية كثيراً من أجل «أصالة مفاهيمه ونقاء أسلوبه، يذكر بهيركولانو وغاريت وكاميليو»، كما قال ناقد المنطقة. وكان خاتم تخرجه

بياقوتته المحاطة بالماس يتلألأ ويلقي أضواءه على الإطار الأسود للكتاب المقدس في يد الكاهن.

- فلنسمع النظرية يا دكتور، لاتجعلنا نرجوك، قالت دونا دومنغاس وهي تريح نفسها في جلستها على كرسيها لكي تستمتع بشكل أفضل بشروح المحامي الذي سبق أن التقت به في رحلة سابقة.

- النظرية، التي هي علمية تماماً كما قلت، لها علاقة بالنساء اللواتي وصلن إلى سن معينة.

- سني.

- جمالك لايعرف سناً يا مدام. كم من الفتيات يسعدن أن تكون لهن مفاتن هذه الجدة. المهم، نساء بلزاك، بشكل عام، كن في حوالى الثلاثين من العمر، واليوم بفضل التقدم وفن الماكياج تعتبر المرأة التي في الثلاثين ماتزال فتية. خذي، مثلاً، زوجة الدكتور هيليو، ذلك الدكتور من ناتال، يقول لي زوجها إنها في الخامسة والثلاثين، وهي ماتزال تبدو مثل فتاة صغيرة.

- إنها امرأة جميلة، قال السيناتور موافقاً، ومختلفة....

- مهدورة، زوجها حصان عجوز محطم، علق أحد الطالبين.

وقاطعه الكاهن: تذكر الرحمة المسيحية يا بني.

- وتذكر الوصية: لاتشته زوجة جارك، أضاف المحامي.

- سيدة لايمكن أن تجد من هي أكثر منها فضيلة، أضاف السيناتور وهو ينظر إلى الطالب المرتبك نظرة تأنيب. «الزوج مريض جداً. والطبيب في ريو لم يعد لديه أمل. وهو نفسه طبيب وليس لديه أية أوهام».

- فلنترك هذه السيدة المسكينة، التي تستحق الشفقة وشأنها ولنسمع نظريتك يا دكتور موريس. إنني مليئة بالفضول، قالت دونا دومنغاس.

- حسن، سنطلق اسم «البلزاكية» اليوم على السيدة التي في الأربعينات من عمرها، ألا توافقين يا دونا دومنغاس؟ حين تكون كثيرة - وبدا عليه أنه يبحث عن الكلمة المناسبة فرفع يده ليساعد نفسه - كثيرة المتطلبات، العمر البركاني.

- «تضخم» قال الطالب الذي لم يكن موقفه القوي لبقاً.

- أربعين؟ وقلب السيناتور المسألة في ذهنه بالسمة العارفة المتفهمة ذاتها، التي أمن بها التصويت على خط الحزب في كافة الإجراءات الحكومية.

- والآن، لدى البلزاكيات طريقتان، وسيلتان، أسلوبان لتصعيد حالتهن حين يحين الوقت. الأولى من خلال تحولهن إلى جدات، وهي الطريقة التي تتبعها دونا دومنغاس بشكل أمثل، فتضيف بذلك إلى جمالها الوقار الملائم لشعرها الأبيض...

- تلك مجاملة مبطنة إلى حد ما...

- أما الأخريات، الغالبية العظمى منهن على الأقل، فيعبرن من حالة البلزاكية إلى حالة المحبطة، وبهذا نصل إلى التعريف الكلاسيكي للمحبطة كما ثبته باحث من فيينا. المحبطة، يا دونا دومنغاس، هي البلزاكية حين تبدأ بالذبول. بمعنى: حين تصير في الأربعينات وتقترب من الخمسينات ولايعود الشكل متماشياً مع المضمون.

- فيم هذا كله؟ سألت الفتاة الهندية الجالسة باستقامة والصامتة في كرسيها وعيناها على المحامي.

- حين لايعود الشكل الخارجي متماشياً مع الحاجات الداخلية... حين تبدأ التجاعيد بالتحول إلى طيات متهدلة. وأسوأ ما في الأمر أن معظم المحبطات لايدركن ما حدث، فيتصرفن كأنهن بنات أو بلزاكيات. خذوا كلوتيلد مثلاً... أنا أعرف أسرتها جيداً، أخوها صديقي.

- لكنك تظلمها، علقت دونا دومنغاس، لم تصل بعد إلى هذه الحالة. إنها بلزاكية لكنها ليست محبطة. إنك ترتكب خطأ على الرغم من غزارة معلوماتك حول الموضوع.

- الخطأ، الخطأ الكبير، هو خطؤك أنت يا صديقتي العزيزة. إنك لم تستوعبي بعد مبادئ هذا الفرع من فروع العلم ومع ذلك فها أنت تصححين للمعلم. ولم يتح لي الوقت بعد لإيصال تام للنظرية الكاملة المتعلقة بالمحبطات. يا دونا دومنغاس، ما من عانس، في أية مرحلة، تعتبر في صف البلزاكيات، إنها تنتقل مباشرة من فتاة إلى محبطة.

ووصلت إلى مسامعهم أصوات الركاب المتجادلين حول النتائج في لعبة الشفلبورد. وأراحت العروس رأسها على كتف زوجها لكي تسمع بشكل أفضل.

- كيف ذلك أيضاً؟ سأل أحد الطالبين، لقد التقيت بأكثر من بلزاكية عازبة يمكن أن تتحول إلى امرأة ممتازة. في بنسيون كاتيت الذي تعيش فيه صديقة لي هناك واحدة - يا سلام ما أمتعها!

- هناك فارق يبرز واضحاً، يا دونا دومنغاس، البلزاكيات، المتزوجات، وأحياناً مع حبيب...

- فادي رترو(*)، قال الكاهن.

- يكنّ سعيدات وراضيات بحياتهن، ولايبدأن بالمعاناة إلا حين لايعود الرجال ينظرون إليهن نظرات الاشتهاء.

- لابد أن هذا محزن، قالت الهندية بصوت منخفض.

- وحين تتغير وضعيتهن الاجتماعية يهبطن إلى أحط مراتب المحبطات.

ابتسم الكاهن: نظريتك هذه ليست مسيحية تماماً.

- علمية يا أبانا.

(*) باللاتينية.

وقال السيناتور بنبرة خطابية: المرأة الفاضلة تحتفظ بجمال الروح الخالد.

- دعوا الدكتور موريس يكمل، وفرضت دونا دومنغاس الصمت على الجماعة. لابد أن هذا السيناتور أحمق.

- ما تقوله صحيح يا عزيزي السيناتور، ولكن الناس حين ينظرون إلى امرأة فإنهم لايتطلعون إلى روحها بل إلى ساقيها... ولاستكمال نظرية المحبطات: يا أبانا حين يتحلقن حول الكنيسة ويزيّنّ المذبح ويقمن بالاعتراف كل يوم فأنت تعرف هذا الجانب أكثر مني؛ يكن منغَّصات حزينات على أنفسهن مثيرات للنكد كثيرات الغِيبة، ينتمين إلى مجموعة العوانس، ومنذ اللحظة التي يجتزن فيها تخوم الثامنة والعشرين ويفقدن الأمل في الزواج فإنهن ينضممن فوراً إلى صفوف المحبطات، مجموعة «المحبطات العظيمات».

- ما هذا الكلام عن المجموعات؟

- هناك مجموعات كبيرة ومجموعات فرعية، والاختصاصيون الذين درسوا المسألة يقسّمون المحبطات إلى مجموعتين أساسيتين: المحبطات العظيمات، وهن العوانس اللواتي يكن نكدات معاديات، بشكل عام، للبشر. والمحبطات الحساسات، وهي المجموعة التي تأتي فيها المتزوجات أو الأرامل المحبطات، وتنبع معاناة المحبطة الحساسة من المعرفة....

- معرفة بماذا؟ تساءلت الهندية.

- ... معرفة المسألة كلها يا آنسة مويما، معاناة المحبطة الحساسة، كما قلنا يا دونا دومنغاس، تنبع من المعرفة وتترجم نفسها إلى توق ورعاية.

- هل هذه غمزة؟ أؤكد لك أنها لم تصلني.

- يارب السموات! ولكن أنت تنتمين إلى الصنف الآخر، صنف الجدات الجميلات المرتَّبات، ثم قبَّل يدها التي ماتزال جميلة

وأضاف: «في حالة المحبطات العظيمات، العوانس، تنبع المعاناة من عدم المعرفة وتترجم نفسها إلى الحاجة للاكتشاف».

ـ لابد أن هذا رهيب، تمتمت الفتاة وهي تشد على يد دونا دومنغاس، كأنما لتدفع شر الفرضية المخيفة.

ـ اكتشاف ماذا؟ ولا مرة استطاع الطالب أن يضرب المسمار على رأسه (أن يوفق في طرح موضوع أو تعليق).

ـ فادي رترو، قال الكاهن.

ـ اكتشاف طعم الخطيئة...

ـ المحبطة الحساسة، عادة، متسامحة مع ضعف الآخرين ـ فوبّا(*) ـ الحياة المتحللة قليلاً. تحب أن تساعد في قيام علاقات وفي ترتيب زيجات، ولكن يجب أن لايثق المرء فيهن ثقة كبيرة، فهن إذا سنحت لهن الفرصة... المحبطة العظيمة تكره الجميلات والعشاق والعرائس مثلك، يا دونا ماريا إميليا، والمرأة الحامل في نظرهن شيء لا أخلاقي.

ـ كم هذا كريه! قالت العروس وهي تلتصق بزوجها وتشد يده.

ـ كلوتيلد من المحبطات العظيمات، ولكن الصفة الأخرى للمحبطات، وخاصة العوانس، هي أنهن لايفقدن الأمل. وأحياناً، والحقيقة أن الأمر نادر، يصدف أن تنتقل المحبطة العظيمة إلى صف المحبطات الحساسات. وهذا ما تحاول كلوتيلد ـ التي يلقبها طلابها على البيانو تيلي الغماية(**) ـ أن تفعله.

ـ القبطان عازب، هكذا أخبرني ـ رد الكاهن ـ إنه لقاء روحين مستوحشتين تمنح كل منهما الأخرى سنداً في خريف العمر...

ـ أنت شاعر يا أبانا. ألم تكتب شعراً أبداً؟

(*) بالفرنسية: الزلة.
(**) كثيرة الإغماء.

- محاولات قليلة بائسة في تمجيد سيدتنا العذراء وابنها.

- أرأيت كم أنا محق؟ والآن، إن كلوتيلد ماريا دا أسونكاو فوغويرا حالة نموذجية للمحبطة العظيمة التي تحمل قلباً مجروحاً. هذا تصنيف تفريعي، يا دونا دومنغاس، وهو من أظرف التفريعات، وهو يشتمل على المحبطات العظيمات اللواتي كن على وشك الزواج وارتبطن بخطبة وكن مستعدات للخروج من الحالة الخاطئة للعانس...

- ما هذه الهرطقة؟ يا إلهي! ورفع الكاهن يديه.

ضحكت الآنسة مويما بمرح، وابتسمت دونا دومنغاس، وقام السيناتور بإشارة برلمانية يمكن تفسيرها بالموافقة والاعتراض معاً.

«... وذات يوم يختفي الخطيب، وتنتهي الخطبة. هذا ما حدث لكلوتيلد، وقد تسبب الأمر في دهشة دامت تسعة أيام في بيليم. كنت في العشرين من عمري تقريباً ولابد أنها كانت تكبرني بعامين، وأنا الآن في الثالثة والأربعين.

- لايبدو عليك ذلك، هتفت الآنسة مويما بسذاجة.

- ماذا حدث؟

- إحك لنا يا دكتور.

- كانت عائلة فوغويرا مؤلفة من الأبوين وثلاثة أطفال: ولد وبنتين. وكانت كلوتيلد أكبر الثلاثة، الأخ غني، دخل جو التجارة مع أبيه وحين توفي العجوز قام بتوسيع الشركة كثيراً. الأخت الأصغر تزوجت من مهندس وعاشت معه في ريو. وكلوتيلد، المتزنة والمثقفة، كانت مطلوبة جداً. درست البيانو مع سيدة بولونية، زوجة مصدّر مطاط إنكليزي. وكانت كلوتيلد موهوبة فعلاً في الموسيقى، وكان الوالدان مفتونين بالطريقة التي كانت بها ابنتهما تطلق الأنغام من البيانو. ولو شاءت الزواج في ذلك الحين لاستطاعت ذلك

ولحصلت على زوج ممتاز. لم تكن قبيحة ولديها الكثير من المواصفات الجيدة.

- ولِمَ لم تتزوج؟

- كانت كثيرة التدقيق في الانتقاء ومغرورة جداً، كانت تريد أميراً من الحكايات، وقبل أن تحقق ذلك كانت أختها الأصغر قد تزوجت وحملت. في ذلك الوقت ظهر في بيليم طبيب من سان لويس، شاب لبق اجتماعياً، فتح عيادة وراح ينتظر المرضى وخلال انتظاره صار يتودد إلى كلوتيلد، وفاز بها عن طريق الموسيقى فهو ملم بها إلماماً كبيراً بالفعل، وإضافة إلى ذلك لم تكن هي في ذلك الحين كثيرة التدقيق.

- واليوم هي أقل بكثير، القبطان أزعر عجوز.

- ليس سيئاً إلى هذا الحد، إن له مظهره الجميل...

- في ذلك الحين كانت في الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين. وفي تلك الأيام كانت الفتاة التي تتزوج في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة تكاد تعتبر عانساً. بعد شهر أو شهرين من المغازلات خطبا، والغزل القصير تكون له خطبة طويلة، ربما كان يفهم الموسيقى، لكنه كان فاشلاً في ما يتعلق بالطب. لم يتمرن طويلاً وبالتالي لم يكن له دخل يكفيه. صار يتناول وجباته في بيت خطيبته، وهو يعيش في ما يشبه الفندق (مكان يقدم فيه الطعام والمأوى أسبوعياً للنزلاء) وامتدت الخطبة أربع أو خمس سنوات.

- الخطبات الطويلة لاتنتهي نهايات جيدة...

- وفي النهاية جاء يوم واستطاع فيه بعض أصدقائه، وهم سياسيون من مارنهان، أن يدبروا له وظيفة في ريو؛ طبيب لدائرة البوليس أو شيء من هذا القبيل.

- فرحل ولم يعد بعدها أبداً...

- على مهلك يا سيناتور، أنا الذي أحكي القصة. جرت الترتيبات

لكي يتم الزواج في الحال، لأن عليه أن يرحل لكي يستلم وظيفته، عرس تقليدي وعائلة مشهورة. وكان من المفروض أن يرحل العريسان إلى ريو بعد الاحتفال بأيام قليلة. انتبهوا الآن إلى هذا التفصيل الهام: في اليومٍ ذاته الذي بدأ فيه العرس، انطلقت إحدى سفن إيتا من بيليم جنوباً.

مرة أخرى رأوا من كوة السفينة فاسكو وكلوتيلد يتمشيان على مهل، القبطان بغليونه وهي مع كلبها في حضنها. هو، بالتأكيد، يحكي لها حكاية مثيرة لأنها كانت تستمع بانتباه شديد. انتظروا إلى أن غابا عن الأنظار باتجاه مقدمة السفينة.

ـ كان المفروض أن يتم الزواج في بيت العروس، الاحتفالان، الديني والمدني، كما كانت عادة تلك الأيام. الناس المعتبرون هم الذين يتزوجون في بيوتهم. حفل كبير وبذخ في الطعام والشراب... وتناول الطبيب الغداء في البيت الذي سيصير صهره ثم ذهب لتغيير ملابسه وإرسال أمتعته إلى الفندق الذي سيقضيان فيه ليلة الزفاف. وتقرر أن يبدأ الحفل المدني في الخامسة، ويتبعه فوراً الحفل الديني. في الساعة الرابعة كان البيت قد امتلأ بالضيوف، وفي الرابعة والنصف جاء القس، وهو صديق قديم للعائلة. بعد عشر دقائق جاء القاضي والكاتب بالعدل.

ـ والعريس؟

ـ على مهلكم، تأخر العريس، ففي الخامسة إلا عشر دقائق، حين كانت كلوتيلد تنزل مرتدية ثوب الزفاف لم يكن قد جاء بعد. تجمع الضيوف حولها وأبدوا إعجابهم بخمارها وإكليلها، وبلغ تأخر العريس حدود نصف الساعة الذي لايغتفر له. أرسلوا مرسالاً إلى نزله، فقالت صاحبته إن الطبيب قد غادر ومعه حقائبه قائلاً: إنه ذاهب ليتزوج. وعاد المرسال في السادسة إلا عشر دقائق، وفي السادسة كان القاضي يهدد بالذهاب؛ والضيوف الذين انزعجوا

وصاروا مزعجين افترضوا فرضيات عديدة. في السادسة وعشر دقائق...

- هذا يوتّرني.

- ... ذهب شقيق العروس إلى مركز البوليس ومركز الإسعاف، وكانت قد قاربت السابعة حين عاد دون أي خبر. ولكن في السادسة والنصف كان القاضي قد ذهب غاضباً. وحين خرج آخذاً الكاتب بالعدل معه وقعت كلوتيلد في إغماءتها الأولى، وكانت مقدمة لما سيلي. في السابعة بدأ الضيوف بالانصراف. غادروا وهم مستغربون ومنزعجون. فالعشاء والمشروب لم يتم تقديمهما. في الثامنة والنصف غادر القس، الذي لم يوفر جهداً من أجل التخفيف عن العروس وأهلها ودون جدوى. في التاسعة عاد شقيق العروس، الذي كان قد خرج مرة ثانية في الساعة الثامنة لإجراء استقصاءات أخرى، ومعه خبر لايصدق: اللعين ذهب إلى ريو على متن إيتا دافعاً أجرته على السفينة لأنه وصل في اللحظة التي كانوا يرفعون فيها المعبر الخشبي، في الخامسة تماماً.

- رهيب...

- وهذه هي الطريقة التي تحولت بها كلوتيلد ماريا دا أسونكاو فوغويرا إلى تيلي الغمّاية داخلة بشكل مباشر في فرع (المحبطات العظيمات ذوات القلوب الجريحة).

- ألم يتقدم لها خاطب آخر بعد ذلك أبداً؟

- أبداً يا آنسة مويما، أولاً لأن كبرياءها جرحت بعمق إلى درجة أنها ابتعدت نهائياً عن الحفلات واللهو من أي نوع. انزوت في بيتها وصارت تقضي وقتها على البيانو. ثم، حين صارت راغبة لم تجد أحداً يرغب... إنها تعيش مع أخيها، وتقضي قسماً من وقتها مع أختها في ريو وتعطي دروساً على البيانو وتعتني بكلبها البكيني

- المحبطة العظيمة يكون عندها دائماً كلب أو قط - وتتعرض للإغماءات. ولكن كما ترون لم تفقد الأمل نهائياً. إنها محبطة نموذجية.

قالت دونا دومنغاس: قصة محزنة، حزنت عليها.

وعلق الكاهن: لم يكن الطبيب شخصاً صالحاً، هذا أقل ما يقال.

وكان رأي السيناتور المحترم: «لو حدث هذا في ناتال، لما كانت الأمور هينة عليه. وسيكون سعيداً لو انتهى الأمر بالضرب.

- وماذا عن العريس؟ ماذا حدث له؟ سألت الآنسة مويما وهي تبتسم مستغربة.

- تزوج ابنة شخص غني وهام في ريو. ظل في عمله في دائرة البوليس لكنه دخل مجتمع الطبقة الراقية مسلحاً بأموال حميه وجمال زوجته. ويمكن رؤيته بعد الظهر في مدخل نادي الجوكي فلديه خيول سباق. واليوم زوجته إحدى المحبطات الحساسات، واحدة من أكثرهن حساسية. فإن لديها ماضياً. وكما قيل لي إنها الأكثر شهرة بين أمهار التوليد في إسطبل زوجها...

- يا للسماء، هتف الكاهن بينما كانت دونا دومنغاس تضحك من أعماقها.

- أقارنك بأمهار فرعون يا صديقتي، رتّل المحامي، وأضاف: هذه من التوراة ياأبانا.

وفتح الأب كليماكو كتابه ثانية: الحق أقول لك يا دكتور إن الرب يتحرك أحياناً بطريقة غامضة. لعل الله كان يخبئها للقبطان.

- ولكنه أعطاه إياها متأخراً قليلاً يا أبانا. فاكهة مهترئة... وتوقف قليلاً وهو يهز رأسه ثم أضاف: «لا، ليس هذا هو الموضوع. الفاكهة المهترئة صورة تنطبق على المحبطة الحساسة. المحبطة العظيمة فاكهة تالفة، فاكهة لم تنضج أبداً».

ـ فاكهة تالفة، كم هذا محزن، تمتمت مويما.

تفرقت الجماعة، آن الأوان للتهيؤ للعشاء. مرة أخرى كان القبطان وكلوتيلد مازالا يتمشيان وهما يضحكان دون أن يعيرا النظرات الغريبة اهتماماً. كان الشفق قد بدأ يجعل البحر متلامعاً. لم يبق جالساً إلا السيناتور والمحامي وهما يرقبان بنظرات متشهية الحركات المثيرة للفتاة الهندية وهي تمشي مبتعدة. وقال المحامي لنفسه هنا يكمن الخطر؛ شرشحة أي رجل، من أجلها أي نوع من الجنون متوقع؛ هجران الأسرة، الزوجة والأولاد، الوظيفة، الموقف، الواجب. ولم يكن السيناتور يفكر. أعتمت عيناه برغبة مكتئبة.

رواية أحداث بسيطة تافهة ظاهرياً، لكنها، كلها، ساهمت في الأحداث الدرامية النهائية

حك المحاسب رأسه مغتاظاً: لاأعرف إن كان هناك مولّف (مدوزن) بيانو في ناتال... أنا لاأعرف حتى بوجود بيانو.

وضحك جيرماتوس: إنك تهين أهل الولاية كلهم وتظهر قلة احترام لثقافة عاصمتها. لو سمعك السيناتور...

ـ ولكن هل سبق لك أن رأيت مثل هذا يا جير؟ دوزنة بيانو... عمره لم يكن عازف البيانو يرى ذلك ضرورياً. إنه معنا منذ ثلاث سنوات، وهو يعزف طوال النهار على هذا البيانو البائس ويراه ممتازاً. والآن يأتي هذا القبطان النظري ويطلب مدوزناً. وهو غاضب لأنني لم أؤمن الموضوع في ريسيف ويعمل لي حفلة مطنطنة...

ـ ولماذا لم تعثر على مدوزن في ريسيف؟ أوامر القبطان أوامر. دبر أمورك في ناتال.

ـ حتى القبطان الذي تراه في أوبرا كوميدية؟ يجرجر عانساً على سطح السفينة في غزل مضحك؟

ـ اسمع أيها العجوز. قد يكون القبطان أي شيء مما تقوله؛ ولكنه هو الذي كان نصيبنا، الوحيد المتوافر في باهيا. الآن هناك شيء مؤكد واحد: العانس التي هي إضافة إلى ذلك معلمة بيانو وتعرف ما تتحدث عنه، وأنا والقسيس الذي هناك ومسؤول الوقود، وأي ولد من خدم الكابينات، نعرف عن البيانو أكثر من العازف الذي

تتحدث عنه، وبودي لو أراهن أن هذا الشخص لم يسبق له أن عزف حتى تسجيلاً من فونوغراف (فكترولا) قبل أن يأتي إلى هذه السفينة. حين يبدأ العزف يكون الأمر كابوساً منظماً. أكثر من ذلك طبيب السفينة وعازف بيانو السفينة... خذ مثلاً طبيبنا... لولا ممرض مستشفى السفينة لما كان قادراً حتى على وصف حقنة شرجية.

- معك حق. والآن ومع هذا القبطان فإن هذه الخرية السفينة اكتملت أمورها تماماً. ولاحتى لويد....

- ولكن قبطاننا مبجل كالشيطان بهذا الوسام على صدره الذي هو أكبر من منظاره... أنت نزق أيها العجوز. افعل مثلي: متع نفسك. إنني آخذ وقتي في حياتي. والأحسن سيأتي فيما بعد... وضحك مستبقاً التعليق.

- ما الذي ترتبه؟

- اذهب واهتم بعملك واترك الباقي علي. واعثر على مدوزِن. أحسن مدوزِن في ناتال.

حدث هذا الحوار على منصة القيادة نتيجة توبيخ قاس من القبطان للمحاسب من أجل البيانو. فحين كانوا ينتظرون في ريسيف لِمَ لم يستأجر مدوزناً لكي يأتي ليجعل بيانو السفينة في الشكل اللائق؟ لقد نزل إلى الشاطئ وهو يتوقع أن أوامره ستنفذ. والآن الآنسة كلوتيلد، عازفة البيانو المحترفة، والمعلمة الخريجة، الضليعة في شوبان وألحان الأوبرا والمقطوعات الصعبة تخبره أن البيانو مايزال كما كان، علبة تنك عتيقة. من أجل القرقعة بالسامبا والموسيقى الراقصة لابأس به. الشبان لايهتمون بمسألة أنه غير مدوزَن. كل ما يهمهم هو التزحلق في أطراف القاعة وتحريك أقدامهم وضم كل منهم للآخر. ولكن ماذا عن المحبين الحقيقيين للموسيقى أمثال دونا كلوتيلد؟ أليس لهم حقوقهم؟ ألم تضمن لهم الكوست وايز استخدام البيانو؟

- هذه العانس الشكسة، أيها القبطان، كثيرة الطلبات شكّاءة، في آخر رحلة لنا كان معنا عازف بيانو من سان باولو حتى أنه قدم حفلة موسيقية، ولم يشكُ من البيانو.

وانفجر القبطان ساخطاً: يا محاسب! ستتفضل علي بمعاملة ركابنا باحترام، ولا تستخدم هذه التعابير المبتذلة. أما هذا العازف من سان باولو فلا شك أنه متبطل هارب من دائنيه. ستؤمن مدوزناً في ناتال ولا أقبل أعذاراً.

العانس الشكسة... ما هذه القلة الاحترام؛ ماهذه السوقية؟ طبعاً هي ليست فتاة ولكنها ليست عجوزاً أيضاً. لقد اعترفت له أنها في السابعة والثلاثة - أصغر بقليل، مما كان القبطان يظن، كان يقدر عمرها في حوالى الخامسة والأربعين جاعلاً الفرق بينهما خمسة عشر عاماً، لأنه اقترب من الستين. لكن هذا الفارق ليس كبيراً. مرة وفي سياق حديث بينهما، عندما أشارت إشارة عابرة إلى ربيعها السابع والثلاثين، وجد نفسه مضطراً لتصغير عمره قليلاً، فأنزله إلى الخامسة والخمسين. لكن هذه تفصيلات تافهة. خمس أو سبع سنوات زيادة أو نقصان لاتعني شيئاً، ما يهم، كما يبدو له، هو أن اثنين مشتاقين قد تلاقيا، اثنين يتوقان للتفاهم والحب، توأمين يرغبان في أن يمسك كل منهما ذراع الآخر ليسيرا جنباً إلى جنب، وجراحهما القديمة قد شفيت في عيد للحب لاينتهي. كان القبطان غارقاً فعلاً في الحب وقد منحته هذه الحالة قوة وتصميماً. لن يتسامح تجاه أي تقصير في تنفيذ أوامره.

استمرت الرحلة دون أي حادث معرقل، باستثناء الجدل السياسي العنيف، عشيّة وصولهم إلى ناتال، والذي اشترك فيه الركاب والضباط. بدأ على العشاء وعلى المائدة التي يترأسها الضابط المساعد للإبحار. مؤيدو التحالف الليبرالي من جهة، ومؤيدو الحكومة من جهة أخرى. امتدحوا المؤهلات التي تدعو للاحترام والتي يتمتع بها جيتوليو فارغاس، وجوليو بريستيس، وفرصهما القادمة في صناديق الاقتراع أو في الميدان. وكشف

ضابط الإبحار عن نفسه بأنه مؤيد إلى أبعد الحدود لجيتوليو. كان من الرعاة الفرسان الجنوبيين، وقد أقسم بفلوريس دو كونها(*) وتحدث عن دخول قوات ريو غراند دو سول إلى ريو دو جانيرو وهو على ظهر حصانه وسيفه في يده - لأن السيف هو السلاح التقليدي للرجل في سهول البامبا - لقطع رؤوس أولئك السياسيين العفنين اللصوص.

ووصلت أصداء الجدل إلى مائدة القبطان حيث كانت كلوتيلد تحتل الكرسي الأيسر الذي شغر بنزول عضو مجلس الأمة في ريسيف. تململ السيناتور على كرسيه، وكأن سيوف الرعاة الفرسان، التي تأتمر بإمرة الجنرال جان فرانسيسكو، كما كان ضابط الإبحار يتنبأ، قد دخلت حلقه، وبدأت المناقشة تمتد إلى الموائد الأخرى.

وردت دونا دومنغاس، أم وزير وعضو مجلس الأمة، عن مائدة القبطان، معترضة على رماح وسيوف فرسان ريو غراند بالبنادق القصيرة والطويلة لدى الجاغونكو في الشمال الشرقي «بعصبتين أو ثلاث من المسلحين نضع نهاية لهذا الهراء كله. ولامبيان يستطيع أن يدبر جنرالكم جان فرانسيسكو. لن تكون هناك حاجة إلى أي ضابط نظامي، وأكثر من ذلك أن هؤلاء الألمان والإيطاليين في الجنوب، هؤلاء الغرينغو، يحتاجون إلى من يلقنهم درساً...» وسيطر صوتها الصافي المتزن المعتاد على إصدار الأوامر على الجو وفرض الصمت على الفريقين، حتى ابنها الوزير كان ينصاع لها حين يكون متمدداً بهدوء إلى جانبها عندما ترفع صوتها وتعلن قراراً.

وأجاب ضابط الإبحار المساعد: «نحن برازيليون مثلنا مثل أحسن الناس».

كان الطلاب في معظمهم من مؤيدي التحالف، وكانوا

(*) القديسة إيزابيل دو فلوريس.

يستشهدون بعبارات من خطابات الخطباء الذين يشاركون في الحملة لصالح جيتوليو، والتي تتحدث عن إحياء البلاد والإصلاحات اللازمة، موجة جديدة.

وابتسم السيناتور الذي لارغبة لديه في خوض النقاش، وهو شاحب الوجه مترفع. انحنى نحو القبطان الذي كان على الحياد ويشغل نفسه بالاعتناء بكلوتيلد، وسأله بصوت خافت: «منذ متى تستأجر كوست وايز لاين المشاغبين وهي الشركة الخاضعة للحكومة؟».

- لاأعرف يا سيناتور، كما سبق وتشرفت بإخباركم أنا لست من طاقم كوست وايز. أنا أسدي لهم خدمة فقط بتسلم قيادة هذه السفينة إلى بيليم.

- صحيح، نسيت، ولكن على أي حال لايبدو لي ملائماً أن يعقد ضابط سفينة اجتماعاً سياسياً على مائدته ليثير المسافرين ويهدد النظام العام. في النهاية أنا سيناتور في الجمهورية، وعضو في الحكومة وهذا الشاب يبشر بالثورة وبالتخلص من مجلس الشيوخ والبرلمان وباغتيال المسؤولين...

- معك حق في ما تقوله يا سيناتور...

استمرت المناقشة بعد العشاء في صالة الاستراحة حيث كان الشبان يحاولون إقامة حفلة رقص لوداع أولئك الذين سينزلون في ناتال في اليوم التالي. في إحدى الزوايا كانت جماعة جالسة وهي تهاجم رئيس الجمهورية وتشكو من التكاليف الباهظة للانتخابات، تلك الانتخابات التي كانت دائماً مرتبة. وتتحدث عن الحاجة إلى الإحياء. وغادر السيناتور القاعة غاضباً.

كان ضابط الإبحار أكثرهم عنفاً: «هؤلاء الأنذال يجب أن ينتهوا، وإذا حاولوا أن يسرقوا الانتخابات القادمة وأن يمنعوا بضربة قلم انتصار مرشح الاتحاد الليبرالي، ستكون العاقبة وخيمة عليهم. الناس لم يعودوا قادرين على تحمل الظلم وتأييد الأوغاد

وهم في مقاعد الحكومة. ستصدح أبواق الثورة في ريوغراند لكي تدعو البرازيليين، الرماح والسيوف...

وقاطع خطبته العصماء أحد الخدم: القبطان يريد أن يراك ياسيدي...

- قادم!

كان يعبر ولايات سانتا كاتارينا وبارانا؛ وإيزدورو وميغل كوستا قد أثارا سان باولو، وكان ضابط الإبحار يدخل ريو دو جانيرو إلى جانب فلوريس دو كونها وجان فرانسيسكو. نهض بامتعاض تلبية لنداء القبطان.

- «ما الذي يريده الآن هذا المغفل الأحمق بحق الشيطان؟» وفي اللحظة ذاتها التي كانت مويما لاترفع نظرها عنه.

- يا صديقي الشاب، ليس عندي شيء ضد أفكارك، لكل شخص آراؤه. وأنا لم أعد أتدخل في السياسة. لقد أخذت كفايتي منها هنا وحتى في الخارج. هنا، عندما كان جوزيه مارسيلينو، الطيب الذكر، والذي كان لي الشرف بأن أكون صديقاً له، يحكم باهيا، وفي البرتغال عندما اغتيل الملك دون كارلوس. فلأن الجريمة استفزتني وضعت نفسي في خدمة العائلة المالكة. ولكن منذ ذلك الحين تنحيت عن السياسة. أنت لديك أسبابك وأنا لاأنكرها عليك...

- هذه الحكومة تقود الأمة إلى الدمار.

- أنا لا أجادلك. قد تكون على حق. ولكن أرجو أن لاتستاء إذا قلت لك إنني لا أراه ملائماً لضابط سفينة أن يحرض المسافرين. أنا لاأؤنبك. معاذ الله. لكن السيناتور كان منزعجاً، حتى أنه كان يريد أن يرسل رسالة رسمية للشركة. أظن، يا صديقي الشاب العزيز، أن عليك أن تتجنب محادثات كهذه.

- هذا السيناتور واحد من أسوأ الجميع، وأعرف عدة أمور تورط فيها وهي انتهاكات. وما جرى في ميناء ناتال وحده كاف

لزجه في السجن طوال حياته. ثم تلك الفتاة التي وظفها في مجلس الشيوخ. لقد كتب ماريو رودريغو مقالاً عن الموضوع قبل سنتين. ألم تقرأه؟

- هو راكب على هذه السفينة وهذا كل ما يعنينا. وعلي أن أطلب منك أن لاتشارك في محادثات كهذه بعد الآن.

- أنا مواطن برازيلي. وأنا أمارس حقوقي... سأقول ما أشاء حيث أشاء.

تطلع فاسكو موسكوسو دو أراغان إلى البحر أمامه ثم ركز نفسه على سطح مؤخرة سفينته: ولكن أنا القبطان، وإنني أوجه إليه أمراً. ليلة سعيدة.

ابتعد ضابط الإبحار مذهولاً - «هذا الفتى الصغير ثارت أعصابه» - دون أن يعرف ماذا يفعل. فكر أولاً في العودة إلى القاعة، لكن غضب السيناتور، والتهديد بإرسال رسالة إلى الشركة، جعلاه يتوقف ويفكر في المسألة... فصعد إلى منصة القيادة لينفس عن غضبه.

وجاء فاسكو إلى القاعة حيث كانت كلوتيلد تتلفت بحثاً عنه في قلق.

- انتظريني لحظة، سأعود حالاً.

لم يستطع أن يرى السيناتور ولذلك ذهب إلى غرفة اللعب. وهناك كان يجلس عضو الهيئة الحاكمة المهيبة يقرأ مجلة وعلى وجهه سمة الوقار.

- ألن تأتي وتشاركنا في القاعة يا سيناتور؟ غيابك ملفت للنظر.

- لست راغباً في الاستماع إلى إهانات وتهديدات. أنا سيناتور جمهوري.

- تستطيع أن تأتي مع كل ضماناتي، لقد اتخذت الإجراءات اللازمة.

- طيب، طيب، لكن أنت لاتعرفني، أنا أيضاً حاد الطباع. لو ظللت أسمع مهازل هذا الوغد الشاب فمن الممكن أن أفقد السيطرة على نفسي وأنا ألكمه في وجهه.

- لاتفكر في الموضوع أكثر من ذلك. في سفينة أقودها يعرف عنصر الطاقم مكانه. في الهند كانوا يسمونني اليد الحديدية.

رقص مع كلوتيلد حتى منتصف الليل، وحكى لها الحادث بكل تفاصيله، ثم بعد ذلك - والأمور تلحق بعضها - حكى لها عن القتال بين الملكيين والجمهوريين في البرتغال، وإحساسه النبيل بالامتنان للملك كارلوس الأول. ومن البرتغال أبحر إلى الهند حيث كان الطاقم يسميه «اليد الحديدية والقلب الذهبي» فعلى الرغم من كونه لطيفاً مثل النسمة وصديقاً لطاقمه من البحارة يمكن أن يصبح في حالات العصيان عنيفاً كالإعصار ويداً حديدية لاتتزحزح.

الخطبة والتعاهد على الحب الأبدي، أو كيف ألقى القبطان المرساة تحت ضوء القمر في قلب المحبطة العظيمة

أول كلمة متعلقة بالخطبة والزواج قالها القبطان، بوجل، في ناتال. كان الإثنان، هو وكلوتيلد، يمشيان على شاطئ أريابرينتا وكان جمال المشهد وسحر المدينة عظيمين فلم يكن هناك مناص من الإحساس بهما والتعليق عليهما بالوصف وصرخات الدهشة. لم تتوقف إيتا طويلاً في الميناء وسرعان ما تحركت نحو فورتاليزا. بتوق الشباب كانا يريدان رؤية كل شيء. وأطلقت كلوتيلد صرخات الغبطة عند رؤيتها لمنعطفات الشاطئ والبيوت البيضاء وبرج الحكماء الثلاثة والنهر الفضي اللألاء تحت الشمس.

ـ أظن أنك رأيت الكثير، أشياء كثيرة جميلة في العالم حتى مللت منها، إنها لم تعد تلفت انتباهك. قالت ذلك وهي تقف لتتأمل بإعجاب منظر أشجار جوز الهند والرمال.

ـ فعلاً، لقد رأيت الكثير، العالم كله. لكن المرء لايلقي إليها انتباهاً كبيراً حين يكون وحده، حتى أنها ليست ممتعة.

ـ آه! تنهدت المحبطة العظيمة، هذا صحيح، حتى أنها ليست ممتعة.

ـ ما أتعس من يعيش وحيداً.

ـ آه!

ـ قولي لي: ألم تفكري في أنه إذا ما صادف ذات يوم...

ـ ماذا؟

ـ إذا قابلت ذات يوم رجلاً متمرساً بالحياة ووحيداً... قلباً محباً... ألن تدرسي إمكانية ضم حياتك إلى حياته، وأن يكون لك بيتك الخاص بك وأن تعيشي سعيدة؟

ـ أخاف. أظن أنني لن أكون سعيدة أبداً...

وأخفضت رأسها وغرقت في ذكرياتها، وراح القبطان يبحث عن كلمات لكن الأمر كان صعباً. لم يسبق له أن عرض الزواج على أية امرأة، كانت تجربته الوحيدة أثناء ذلك الفالس الذي رقصه مع مادلينا بونتس مندس عندما لم يجد حتى الفرصة للكلام، فكيف يفعل ذلك الآن؟

ـ إذا قيض لي أن ألتقي بسيدة فتية وتستطيع أن تفهم رجلاً عجوزاً...

ـ أنت عجوز؟ لاتقل ذلك...

ـ فسأكون قادراً على...

ـ قبطان، أيها القبطان.

كان السيناتور وشخصان آخران يتقدمان نحوه.

ـ هذا المخلوق الكريه، همهمت كلوتيلد.

ـ ماذا قلت؟

ـ هذا السيناتور، لقد نزل لتوه إلى الشاطئ، ما الذي يريده الآن؟

ماكان السيناتور يريده هو ملاطفة القبطان الذي أثَّرت فيه قوة إدارته ومعرفته البحرية. قدم له صديقيه؛ أحدهما عضو مجلس أمة والآخر مزارع من الداخل، زعيمان سياسيان بارزان من المنطقة، وعضوان في حزبه.

- هذا هو القبطان فاسكو موسكوسو دو أراغان رجل الرحلات الكبيرة والمغامرات العديدة. لقد طاف العالم كله، بطل.

انحنى السياسيان وابتسما وعبرا عن إعجابهما بالبطل الذي يقدمه لهما السيناتور المبجل.

- تعال معي، أريدك أن ترى إحدى إبداعات ناتال الهامة. شيء لايوجد إلا هنا، الشيء الفريد من نوعه في البرازيل، شيء فوق التصور. يجب أن تراه أيها القبطان، وأنا واثق أنك في رحلاتك كلها لم تر له شبيهاً.

وأخذهما لزيارة مدرسة علوم تدبير المنزل: مؤسسة ممتازة هدفها تهيئة بنات الولاية الغنيات للزواج وتزويدهن بكافة الخبرات اللازمة. ذهبا على مضض، القبطان يلعن حب السيناتور له - وقد قاطع حديثه مع كلوتيلد في اللحظة التي كان قد بدأ يدخل الموضوع، وبدأ العثور على الكلمات المناسبة. وكلوتيلد، بنظرة رومانسية في عينيها وفي حالة من الاستغراق والانفراد، راحت تتابع حركات الغيوم المتسارعة.

أسرعا عائدين إلى السفينة؛ لأنهما قضيا وقتاً أطول مما توقعا. لم تفوت المديرة أي تفصيل: أرتهم كل شيء وشرحت كل شيء، وهي فخورة بمدرستها وبتعليمها وطالباتها وإنجازاتهن.

- قل لي الآن أيها القبطان... هل سبق لك أن رأيت ما يشبه ذلك في الأمكنة الأخرى التي زرتها؟ أفضل منها أو حتى يقارن بها؟ ولم تنتظر الإجابة بل تابعت: لايوجد مثل هذا في العالم كله، حتى السويسريون - السويسريون يا سيدي - يعترفون بذلك. لقد وصلتنا رسائل من سويسرا يطلبون فيها معلومات عن المدرسة. من سويسرا، نعم يا سيدي.

ووافق القبطان: «إنها مؤسسة هامة، هامة جداً» وهو مغتاظ لأنه فقد الفرصة الوحيدة، تلك اللحظة المؤاتية التي كانت فيها كلوتيلد تحت تأثير جمال الشاطئ.

ولكن في تلك الليلة، بعد العشاء وبعد توقف قصير في قاعة الاستراحة، حيث جربت البيانو وقد تمت دوزنته من قبل مدوزن بارع في ناتال، سألته كلوتيلد ما إذا لم يكن راغباً في جولة حول سطح السفينة.

ـ القمر بدر، قالت وهي تضحك ضحكتها القصيرة.

وقفز قلب فاسكو، هذه هي الفرصة التي كان يتوق إليها، صعد إلى السطح العلوي الذي كان خالياً.

وكان القمر الواسع، المزيج من الذهب والدم، يشرق فوق البحر.

ـ انظر، انظر... قالت وهي تمشي نحو الحاجز.

كان القمر يخرج من بين المياه التي نام وارتاح فيها، مستعداً ليكشف في جولته عن العشاق والمحبين على الشواطئ وفي الشوارع، على أرصفة باهيا، وفي الموانئ البعيدة وعلى سطوح السفن، وانتشر الزيت الكثيف لضوء القمر على المياه الشمالية الشرقية الخضراء، وهبت الرياح الشمالية الشرقية، ونسائم البر من برنامبوكو، والريح الشمالية الغربية من سييرا، جاءت كلها من الجنوب والشمال لتحيي القمر بدوامات النسائم اللطيفة. وكانت (إيتا) تحت ضوء القمر تتابع طريقها في تلك الليلة الساحرة عندما أمسك القبطان، الواقف وراء كلوتيلد، بيديها بين يديه ثم تحدث بصوت محب خجول: كلوتيلد... آه... كلوتيلد الشريرة...

ـ أنا شريرة؟ ارتعدت ولم يعد صوتها أكثر من تمتمة: لم تقول ذلك أيها القبطان؟

ـ ألا ترين؟ ألا تفهمين؟ ألا تسمعين؟

ـ فقدت ثقتي بالرجال...

ـ وأنا لم أكن أصدق النساء أيضاً... ولكنني الآن أصدقك أنت، أنا أموت من الحب.

ـ فقدت الثقة، أنا خائفة.

لكنها لم تسحب يديها من يديه وكانت تنحني عليه وتستطيع أن تحس بأنفاسه. ودون أن يعرف أحد كيف حدث ذلك ـ أحد أسرار البحر في ليلة يكون فيها القمر بدراً ـ أراحت رأسها على كتف القبطان العريضة، المزينة بالكتفية وبالمرساة. أحاط خصرها بذراعه فارتعشت وتنهدت. شدها إليه فالتقت شفاههما في قبلة طويلة تتلهف لإطفاء الظمأ منذ سنوات، وتنطلق من قلوب فتية تحمل جوعاً قديماً يبحث عن الشبع.

ـ أوه، تنهدت حين استطاعت، وهي ماتزال بين ذراعيه، أن تتنفس، «يا إلهي ماذا فعلت؟ كم أنا خجلة... والآن ماذا سيحدث؟».

ـ سنتزوج إذا رضيت بي.

وعندها حكت له تجربتها التعيسة وسبب لعنة عزوبيتها الحزينة: ذات يوم أحبت رجلاً، ومنحته قلبها العذري، وعلقت عليه، بمنتهى البراءة، ثقتها الكاملة. كان طبيباً غنياً جداً وشهيراً جداً جاء من ريو إلى بيليم. كان لديه عدد كبير من المرضى وبصعوبة كان يستطيع العناية بهم كلهم. أفضل عريس في بيليم وكان متيماً بها. عاشق كبير للموسيقى حتى أنه كان يعزف على البيانو قليلاً. كانا يعزفان الدويتات(*) معاً. والتحمت روحاهما في الموسيقى، ورصعت كلوتيلد حكايتها بتنهيدة: خطبا، وأقسما على الحب الأبدي وحددا موعد زواجهما. كانت في السابعة عشرة في ذلك الحين، فتاة ريفية خجولة ساذجة. منحت الطبيب قلبها واثقة من حبه واستقامته...

ماذا يمكن أن يكون قد حدث؟ سأل فاسكو نفسه بقلق. لاشك أنه في ليلة تلك الليالي التي كانا يعزفان فيها الدويتات، وربما كانت الأسرة خارج البيت، استغل براءتها الطفولية وأغواها ثم هرب. تركها مع عارها وخذلانها، ولكن ليس هناك ما يجعلها تقلق، لن

(*) الألحان التي يعزفها اثنان.

يقل احترامه لها من أجل ذلك. على العكس، هذا سيؤجج حبه ويعزز قراره بأن يقدم لها يده للزواج.

واثقة من استقامته وحبه... ولكن الرجال كذابون. كلهم تقريباً. تصور ماذا حدث مساء العرس... إنها لاتكاد تستطيع تحمل الحديث عن الموضوع، إنها عملية فتح جرح قديم، ماتزال تحس بالوجع في قلبها، عرفت أنه قد غرر بفتاة فقيرة في ريو، خياطة، ورزقت المخلوقة التعيسة بطفل وكان يرسل لها الأموال كل شهر. وحين عرفت المسكينة بخطبته وزواجه الموشك على الحدوث كتبت رسالة إلى كلوتيلد حكت لها فيها كل شيء ووضعت مصيرها ومصير ابنها بين يديها. ماذا يمكن أن تفعل؟ كان الأمر شبيهاً بتمزيق القلب، لكنها فسخت خطوبتها على الطبيب وأمرته بالعودة إلى ريو ليتزوج أم ابنه. فأطاعها، واليوم هو طبيب شهير في ريو، غني ومعتبر، وعضو في نادي الجوكي، وتحولت الخياطة إلى سيدة عظيمة، أما هي فأقسمت أنها لن تتزوج أبداً ولن تنظر مرة أخرى إلى رجل، ولكن في هذه الرحلة...

تأثر القبطان بنبل روحها وكرمها، إنه ليس جديراً بها ولاحتى بتقبيل طرف ثوبها، ولكن بما أن الحب يسمو بالإنسان فقد سما بنفسه إلى سوية عينيها ووجهها وفمها النهم وغطاها كلها بالقبلات تحت ضوء القمر.

ثم حكى لها بدوره عن سبب حياته وحيداً لماذا لم يتزوج في السابق. كان اسمها دوروثي، إنه يحمل اسمها مع القلب موشومين على ذراعه.

- موشوم؟ تعني أنه لن يختفي أبداً؟

- أبداً، لقد نفذه رجل صيني، أستاذ في هذا الفن، في سنغافورة.

- تعني أنك لم تنسها؟ إنك ماتزال تركض وراءها؟

- ماتت، وتلت هذه الكلمة لحظة صمت فاجعة. كانت دوروثي

تقف هناك تحت ضوء القمر بجسدها الرشيق وتوقها المحموم للحب. ماتت قبل أن يتمكنا من الزواج، في مساء اليوم ذاته. كانت قد حصلت على طلاقها للتو، فقد وافق الزوج أخيراً على إطلاق سراحها...

- ها... كانت متزوجة إذن!

نعم كانت متزوجة حين قابلها وأحبها على متن بينيديكت العابرة الكبيرة على خط أوروبا - أستراليا. كانت عاطفة مفاجئة وطاغية مثل العاطفة التي يحسها الآن، ولكن ما الذي يمكن أن تفعله الأعراف والقوانين أمام الحب؟ هو ترك السفينة، وهي تركت زوجها ونزلا على الشاطئ في مرفأ آسيوي قصي منتظرين قرار الزوج...

- الفاجرة! امرأة متزوجة!

لا، كلوتيلد يجب أن لاتكون مجحفة أو سيئة الظن بها، لأنه لم يحدث بينهما شيء، لم يكن بينهما شيء. دوروثي حكت لزوجها كل شيء وهربت لسبب واحد فقط هو أن ذلك المخلوق الأناني لم يكن يريد أن يطلقها. لم يتجاوزا حدود بعض القبلات البريئة. هي أقامت في بيت مبشرة ورعة، اسمها كارول، وظلت تنتظر. بعد الطلاق فقط، وبعد الزواج الجديد سيكون كل منهما للآخر. دوروثي نفسها أصرت على ذلك. وفي النهاية استلمت ورقة الطلاق، وكانت إجراءات الزواج الجديد تتم عندما داهمتها الحمى، الحمى الآسيوية الرهيبة، التي كان محصناً ضدها، وقضت عليها في غضون ثلاثة أيام، قضت عليها وعلى عمله. لقد فقد عقله تقريباً فأقسم أن لايضع قدمه بعدها على سفينة. وإذا كان الآن في قيادة إيتا حتى بيليم فذلك لأن القانون يفرض ذلك. لم يكن بوسعه أن يتخلى عن واجبه المقدس وقسمه الذي أداه بعد الامتحان المذهل الذي استلم بنتيجته شهادة قبطان. لهذا لم يتزوج بعدها أبداً. لقد أقفل قلبه وألقى بالمفتاح، ولكن على هذه السفينة...

طلبت وقتاً تفكر فيه بالموضوع، قبل الوصول إلى بيليم

ستعطيه الجواب. إنها ماتزال مشوشة، وخائفة. وإضافة إلى ذلك سيكون عليه تأمين موافقة أخيها في بارا. وموافقة ياسمين، أضافت وهي تبتسم.

ظلت السفينة تتلامع في الليل المقمر، حيث البحر والسماء يوشيهما الذهب والفضة، وعلى سطح السفينة إلى جانب الحاجز تبادل القبطان وكلوتيلد العهد على الحب. ضحكا بلا سبب، وتنهدا، وتحدثا بكلمات غير مترابطة، واختلسا القبلات، واعتصرا الأيدي، إلى أن سمعا وقع خطوات على الدرج وانسحبا إلى ظل أحد قوارب النجاة. هناك اثنان آخران قادمان على سطح السفينة. في البدء تعرفا على هيكل الدكتور فرمينو موريس، المحامي من بارا. تطلع حواليه حذراً، أكمل النزول عن الدرج ثم أعطى إشارة لمن وراءه. وكانت مويما، الهندية، التي ظهرت بعد ذلك؛ وهناك تماماً ارتمى كل منهما بين ذراعي الآخر وراحا يتبادلان القبل بعنف وسرعة.

- «قليلة الأدب» تمتمت كلوتيلد، «وهو رجل متزوج».

- الحب، أجاب القبطان، «الحب لايعرف القوانين، إنه مثل الإعصار».

أمسك بيدها وأبعدها إلى الاتجاه المعاكس حيث انضما إلى المسافرين الآخرين في القاعة. وطلبت منه كلوتيلد أن يبقي عهودهما، التي قطعاها في ضوء القمر، سراً. كانت تريد أن تتزوج دون ضيوف، ودون إعلان عن الموضوع، ودون احتفال. هي فقط مع فاسكو وأخوها وزوجته، وإذا ما حدث ذلك فليحدث بسرعة. لن تقبل خطوبة وانتظاراً...

- الوقت الكافي لتحضير الأوراق فقط.

كان يريد العودة إلى بريبريٍ معها، مع الزوجة التي عثر عليها في البحر، والتي انتظرها طويلاً، على منصات قيادة السفن، وفي السفن البخارية المضاءة، والشاحنات البحرية على الطرق الموحشة والبعيدة. وتحت آخر شعاع من ضوء القمر رأت وحدتها تتلاشى وانتظارها الطويل يصل إلى نهايته.

فصل سخيف إلى حد ما وغير سعيد مع امتياز زيارة المحركات والعنبر وإرسال إشارة النجدة S.O.S أنقذوا أرواحنا

كان القبطان سعيداً، والمحبطة العظيمة كانت سعيدة، والاثنان يضحكان في الأركان الخالية من السفينة، يتبادلان نظرات الحنان والابتسامات الخجلة، ويعتصران الأيدي حين لايراهما أحد ويهمسان تفاهات حلوة، ويعودان معاً إلى الحياة بقبلات مسروقة ومشاريع.

هي كانت رومانسية وقد قاست كثيراً. والمعاناة جعلتها كثيرة الطلبات وعديمة الثقة. وطبيعتها الرومانسية تعبد الغموض. وبسبب هذا كله لم تخبر القبطان باسمها الكامل. هي كلوتيلد فقط، ولاتفاصيل عن عائلتها باستثناء المعلومات الغامضة حول أن لديها أخاً متزوجاً ولديه ولدان، في بيليم، وأختاً عندها خمسة أولاد، ومتزوجة من مهندس في ريو، لا بل إنها منعته من أن يسأل عنها بين المسافرين من بارا. كانت تريد أن تمتحن حبه.

- سأعرفك بأخي على المعبر في بيليم، سيكون هناك بانتظاري.

- ولكن يا كلو...

لقد سبق له أن عرف واحدة تبدأ بـ «كلو» قبل عشرين عاماً، شقراء ذات جسد ناعم حليبي أبيض. ولم يعد يستطيع أن يتذكر ماإذا كان ذلك في آيسلندا، بين الجبال الجليدية والمضائق أم في محل

كارول أم في محل سابينا. تلك الكلو الممتزجة بالجليد والمياه المعدنية الحارة، وهذه الكلوتيلد باسم «كلو» لم يكن يستطيع منع نفسه من تذكر ليالي الماضي، وذلك اللحم الأبيض الذي لاينسى.

- يجب أن تضعي في اعتبارك أنني لا أستطيع أن أنزل معك إلى الشاطئ يا حبيبتي، سيكون علي أن أبقى وأوقع على الأوراق. إنه آخر مرفأ للتوقف ونهاية الرحلة. سأكون سجيناً في السفينة...

وكانت تعبد الغموض.

- «حين نستعد للنزول إلى الشاطئ، سأعطيك ورقة فيها اسمي الكامل وعنواني. لقد كتبتها منذ الآن، إنها هنا»، وأشارت إلى قبة ثوبها، في دفء نهديها كانت تخبئ الورقة التي هي المفتاح الذي سيفتح الباب نحو عائلتها، نحو البيت الجديد للقبطان. «سأنتظرك في البيت، تستطيع أن تأتي للعشاء مع أخي وزوجته. سأبلغ الطباخة أن تعد سرطانات إسكالوب بنصف ظهورها، هذا أفضل بكثير، سيكون لدي الوقت لأتحدث فيه مع أخي...».

- ولكن لم هذا الغموض كله؟ وهذه السرية كلها؟

- أريد أن أختبر مشاعرك نحوي، أن أعرف أنك تحبني لشخصي وليس من أجل عائلتي.

- ولكن ألا تعرفين منذ الآن؟

- إنني أجري الامتحان...

صبراً، إن كانت تريد الأمور على هذا النحو فليكن. في الحقيقة هذا لايهم. هو لن يتزوج اسمها أو أقاربها. هي على حق، لكنه لايستطيع منع نفسه من التخمين حول هذا اللغز. لابد أن كلو تنتمي إلى عائلة راقية حذرة من علية القوم في مجتمع بارا، عائلة غنية ولها سمات نبل، مثل عائلة مادلينا بونتس مندس، بل إنه في بداية الرحلة حين كان ينتبه إليها لأول مرة سمع أحد الركاب يشير إلى الوضع المالي لأخيها. ربما كانت عائلة مليونير، قال القبطان

لنفسه، يملكون من الأراضي ما يعادل بلداناً، غابات من أشجار المطاط، جزراً في الأمازون، هنوداً وأسود كوجر أميركية وأفاعي يصل طولها إلى عشرين ياردة. من يدري؟ قد يكون هذا الغموض هو الشك الذي لديها عما إذا كان أخوها قد يعارض في زواج وريثة غنية كهذه من قبطان سفينة بسيط، ورئيس بحارة متقاعد. قد يظنون أنه مغامر، داهية لبق يريد أن يضع يده على ثروة زوجته.

ومن جهة أخرى، إن كانت غنية إلى هذا الحد لماذا تعطي دروساً على البيانو؟ هرباً من الملل، بالتأكيد، لتمضية الوقت وبسبب حبها للموسيقى، عند أول فرصة سيجعلها تعرف أن دخله ليس مقتصراً على تعويض تقاعده. إنه يملك بيتاً، وهو بيت جيد، في بريبري في أحد أفضل الشواطئ في سلفادور، إضافة إلى عدد كبير من صكوك التأمين الحكومية التي تضمن له - ولها - حياة طويلة ومريحة.

مدت كلو يديها إليه وقالت: حتى لو كنت فقيراً مثل الديك الرومي عند أيوب.

لم تكن السفن في تلك الأيام تتوقف في فورتاليزا حيث إنه لم تكن هناك أرصفة تحميل. ولذا كان مثيراً أن ترى المسافرين ينزلون قفزاً عن السلم المتدلي إلى جانب السفينة إلى قوارب شراعية. صرخات من السيدات وضحكات وترددات والجدافون بصدورهم ذات العضلات وبشراتهم البرونزية يثبتون قواربهم إلى جانب السلم. كان المحامي من بارا، الواقف في مقدمة أحد القوارب يستعرض وهو يقف بساقين مفتوحتين، أمسك مويما التي كانت تقف على الدرجة الأخيرة من السلم، من خصرها ورفعها في الهواء ثم أنزل جسدها المرتعش إلى جانبه. وظل الاثنان واقفين في المقدمة لفترة. وكان القارب يعلو ويهبط مع حركات الأمواج الجميلة والقوية والريح تسوطها. ولم يستطع القبطان أن يفعل مثله، ليس لأنه كانت تنقصه القوة أو الرغبة، بل لأن كلوتيلد الباسمة كانت أكثر

ثقلاً أن تجازف مجازفة كهذه إضافة إلى أنه لايبدو من اللائق فعل ذلك.

قبل ذلك حين كانا واقفين على المنصة جاءت دونا دومنغاس لتودعه ولتشكره على رعايته ولباقته: «لقد كنت قبطاناً متكاملاً ياسيدي، كان من دواعي السرور أن أسافر معك»، ومدت يدها الجميلة التي يتلامع فيها الخاتم، وقدمت تحية مجاملة إلى وكيل الربان وإلى الضباط وأضافت: «أيها السادة، أنتم محظوظون إذ تخدمون تحت إمرة ضابط قدير مثل القبطان فاسكو».

- ذات يوم سينصفونه، أجاب وكيل الربان بهذه العبارة الملتبسة، لسبب صعوبة السيطرة على السفينة في ذلك الحين.

وجاء أيضاً الرياضي، موظف البنك، ليودعه، لقد قضى الأيام الثلاثة من الرحلة وهو يكتب الرسائل إلى فتاته في برنامبوكو. وفي ناتال حشا صندوق البريد حشواً.

- سيدة فتية متميزة جداً، قال القبطان وهو يعانق الشاب المصاب بالحب.

في التوصيلة بين القارب والشاطئ ضحكوا كثيراً، المجاديف ترشق المسافرين بالماء، وكلوتيلد، لكي تتجنب البلل، التصقت بالقبطان، وذهبا لرؤية المدينة، وراء شاطئ إبراسيما، حيث اشترت كلوتيلد تخريمة «من أجل قمصان النوم» كما أوضحت وهي تخفي وجهها في منديلها. وكانت النتيجة، وتحت تأثير انفجار مباغت للرغبة - بسبب رؤية كلو الأخرى وثدياها ظاهران تحت قميص النوم المخرم - أن القبطان قبلها بعنف أمام الصيادين وصانعي التخريمات. وحين عادا من المدينة أرادت أن تصلي في كنيسة، وبرأس منحن نادم ركعت لتصلي. واستغل القبطان الفرصة لكي يختفي. حين انتهت من صلاتها وتطلعت حولها تبحث عنه ولم تجد له أثراً شعرت بقلبها يتوقف عن الخفقان. اندفعت الدموع إلى

عينيها وهي تتطلع في كل اتجاه والقلق يتملكها، وأخيراً رأته يتقدم نحوها مسرعاً، وخرج صوتها محشرجاً: أين ذهبت؟ تركتني هنا..

لكنه أمسك ذراعها وجعلها ترجع إلى صحن الكنيسة الخالي وقادها إلى حيث يسقط الضوء من نافذة ملونة، وأخرج من جيبه علبة صغيرة تحتوي على خاتمي الخطبة اللذين اشتراهما الآن. وهكذا وقّعا على خطبتهما في تلك الساعة وسط صمت الكنيسة، إلا أنه لم يقبلها حتى صارا في الخارج لأنها لن تسمح بذلك داخل الكنيسة، واتهمته بأنه كافر ملحد. ولم يكن إلا سعيداً، هذا القبطان.

في اليوم السابق لنهاية الرحلة ـ سيصلون إلى بيليم في اليوم التالي في الساعة الثالثة بعد الظهر وهناك ستقضي إيتا الليل ولن تنطلق في رحلة العودة حتى قبيل المغرب من اليوم الذي يليه ـ تسببت رغبة طارئة لدى المحبطة العظيمة في لغط كبير وارتباك في السفينة. أعلنت كلوتيلد عن رغبتها في رؤية داخل السفينة، أن تنزل إلى غرفة المحركات والعنبر لكي تتآلف مع الشغل الداخلي فيها. أولم تكن السفن بيت فاسكو لمدة أربعين عاماً؟ إنها رغبة رومانسية ولكنها مفهومة، وهي طبيعية بالنسبة لمخطوبة تريد أن تتعرف على كل ما له علاقة بزوج المستقبل. هكذا شرحت له المسألة ومع قبلة وعدها بتحقيق رغبتها.

كان من الواضح أن القبطان، ضعفاً منه أمام عاطفته، نسي صعوبات تحقيق ما تعهد به. وليس ذلك بسبب الإشارات على الأبواب السرية التي تقول: «ممنوع الدخول»، فمن الطبيعي أنها غير ملزمة في حالة القبطان وضيف معه. ولكن كيف حدث أنه، وهو رجل البحر القديم، لم يفكر في الأدراج الخطرة والمظهر غير اللائق للوقّادين؟ وهكذا قبل نهاية الرحلة بأربع وعشرين ساعة أمسك يد حبيبته، وانطلق بها إلى أعماق السفينة. فتح باباً صغيراً يمنع فتحه، وتحتهما كانت الهاوية الغامضة، والسلم الحديدي الضيق والشديد الانحدار المتدلي عمودياً فوق الهاوية. أطلقت كلو صرخة «آي!»

لكنه بدأ النزول وهو يمد يده لها. إن السبب في عدم سقوطهما وكسر رقبتيهما هو سر يثبت، إن كانت هناك حاجة إلى إثبات، بأن هناك رباً يحمي العشاق.

نزل حنك كبير المهندسين. وكانت شروحاته مقتضبة. وحدث ارتباك وفوضى في غرفة المحرك. الوقادون والمزيِّتون، العراة، ارتبكوا عند الظهور المفاجئ لهذه السيدة بينهم. وضرب نائب كبير المهندسين رأسه بيده. أما كلوتيلد ففي فورة حماسها وإثارتها طلبت أن تلقي برفش من الفحم في الموقد المتأجج. كانت الحرارة تخنقها. وساعدها القبطان قائلاً إن هذا يذكره بالأيام التي كان فيها صبياً يخدم الكابينات، حين كان ينزل أحياناً للعمل مع الوقادين.

وذهبا إلى العنبر المعبأ بالحمولة. ونزل المحاسب، الذي أرسل على جناح السرعة، ولون وجهه قد صار مثل الشحم. ما الذي يمكن أن يحدث إذا ما خطر لهذا القبطان المجنون أن يرتب للمسافرين كلهم جولة في داخل السفينة؟ مع هذا الرجل كل شيء متوقع. ولكن القبطان اكتفى بتحيته دون أن يلقي إليه أي اهتمام. وصعد المحاسب إلى منصة القيادة وقال لوكيل الربان: «قبطانك يجول مع هذه العانس في كافة أرجاء السفينة. لقد دخلا إلى غرفة المحرك والمرجل، أنا لا أتحمل أية مسؤولية».

- منذ متى لايحق للقبطان أن يتجول مع أحد الضيوف في أرجاء السفينة؟ وخاصة مع تلك التي يحبها. أتركه وشأنه...

- سيسقطان عن أحد السلالم ويقتلان نفسيهما.

- هذا يعني أن ندفن قبطانين في هذه الرحلة. رقم قياسي.

ما كادا ينهيان حديثهما، هذا، حتى ظهر فاسكو وكلوتيلد على المنصة. ولم يستطع وكيل الربان والمحاسب حبس ضحكاتهما. كان هباب الفحم يغطي وجهها وذراعيها وكانت سترته البيضاء تستحق أن يتفرج عليها الإنسان.

- أخذت الآنسة كلوتيلد في جولة داخل السفينة. سآخذها الآن إلى غرفة الاتصالات.

- ألا تحب أن تريها غرفة القيادة.

- ربما فيما بعد.

نزل المحاسب السلم وهو يشد يديه. وتوجه فاسكو إلى غرفة الاتصالات. وقفز عامل الاتصال الذي كان مستلقياً حين رأى القبطان.

- من هنا ترسل إس. أو. إس(*) حين تكون السفينة في خطر؟

- من هنا. نعم يا سيدتي.

ماذا لو طلبتْ إرسال إس. أو. إس الدراماتيكية؟ خطر الخاطر لفاسكو. ولكن الفكرة كانت أكثر من مخيفة بالنسبة له. ستكون مهزلة.

وفي الطريق دلها على كابينته، بيت القبطان. أطلت برأسها إلى الداخل لتتطلع دون أن تدخل. على الطاولة كانت هناك صورة امرأة ذات شعر فضي وهي تبتسم ومعها ولدان يقفان إلى جانبها. الأول يقارب الرابعة عشرة من العمر والثاني أكبر منه بقليل.

- من هذه؟ سألت كلوتيلد متشككة.

- زوجة القبطان، الذي توفي، وولداه.

وفيما كان ينزلان الدرج قالت له: «ما كنت أتمناه فعلاً هو أن أتزوج قبطاناً...».

- وأنا ماذا؟

- أعرف. نعم. ولكن أقصد أن أتزوجه وأعيش معه على السفينة، أن أذهب معه إلى كل مكان على متن سفينته، وأرى العالم كله... مدينة بعد أخرى.

(*) S.O.S اختصار لعبارة «أنقذوا أرواحنا»، وهي إشارة متفق عليها لطلب النجدة.

- ممنوع اصطحاب الزوجات. هل فكرت في المخاطر؟ أيام وأيام في البحر فوق سفينة الشحن مع طاقم من الرجال الأجلاف - ألم تري الوقادين - وزوجة القبطان في السفينة... هل فكرت في ذلك؟

- لقد عملوا فيلماً يحتوي على فكرة مثل هذه. قبطان يبحر مع زوجته. كان فيلماً جيداً لكنني لم أستطع رؤيته.

ابتسم القبطان. ذات يوم حين سيعيشان في البيت ذي النوافذ الخضراء المطلة على البحر في بريبري، في أمسياتهما الهادئة، وفيما هي تطرز وهو يدخن غليونه سيحكي لها عما جرى له ذات مرة وهو يقلع من شواطئ تركيا حين تخفت فتاة مسلمة سخيفة ومشبوبة العواطف في سريره ولم يكتشفها إلا بعد أن صارت السفينة في عرض البحر. سيحكي لها قصصاً عديدة عن الإشارات المشؤومة لطلب النجدة والأخطار التي تعرض لها في موانئ الأفيون والمهربين. إن لديه حياة مثيرة سيقدمها لها. سيكشفها لها لتشاركه فيها. في اليوم التالي سيتعرف على عائلتها وسيتعشى في بيتها وسيطلب يدها رسمياً.

حول المعرفة الكاملة والمتنبئة لعلم الملاحة

في صباح ذلك اليوم من آخر مراحل الرحلة، حيث مياه الأمازون الموحلة تخترق المحيط ويسمع صوت اقتحامها إلى مسافة بعيدة، اقترف القبطان فاسكو موسكوسو أراغان، لأول مرة في حياته الطويلة والصاخبة، أول سرقة. فيما بعد تصرف بأقصى الانضباط، كابحاً فضوله الشديد، وافياً حرفياً بوعده في أن يكون حكيماً ومتحفظاً.

حدثت السرقة في صالون الاستراحة، الذي كان خالياً في تلك الساعة المبكرة التي يبدأ فيها القبطان تفتيشه للسفينة. لقد أحب هذه السفينة إيتا. لم يحدث أي شيء يستحق الذكر في هذه الرحلة؛ لم يحدث خطر غرق، ولم يتمرد البحارة، ولم تبرز أية مشكلة ملاحية جدية حين تجن الإبرة المغناطيسية وتخرج آلة السدس دعامتها. حتى أنه لم يعثر على أي ثوريين في السفينة كما كان قد قال عضو مجلس الأمة من باريبا. لكنه ضبط النظام وأبحر بسفينته بأمان وعثر على امرأة العمر. سيعود إلى بريبري معها ليعيشا هناك مع أصدقائه ورأسه يعلو أكثر مما كان إذ من الذي يستطيع الآن أن يشكّك في لقبه أو إنجازاته ومآثره؟ في تلك اللحظة خطرت له فكرة السرقة. كان يحب إيتا. وكان يريد أن يكون بين الأدوات الملاحية على الطاولة الكبيرة في صالونه ذكرى عن آخر رحلة قام بها كقبطان. حين يعود سيكون راكباً مميزاً بالطبع يُعامل كما يستحق أن يعامل قبطان جاب المحيطات والبحار. والشركة مدينة له بجميل؛ لكن مصير السفينة والبحارة والركاب لن يكون بين يديه. تذكار

صغير، شيء غير ثمين، ليذكره بالأيام السعيدة على متن هذه السفينة. إحدى هذه المنافض، مثلاً، وعليها ختم كوست وايز لاين، وصورة إيتا محفورة عليها. منفضة كتلك التي قدمت جائزة في لعبة البنغو، مثل الأخريات الموجودات على طاولات المدخنين. تطلع فاسكو حوله فلم ير أحداً. واختفت المنفضة في الجيب الأيمن من سترته. وبما أن المرء عليه أن يكتسب العادة غابت منفضة أخرى في الجيب الأيسر. لم تكن تلك نوبة من نوبات الكلبتو مانيا (هوس السرقة) بل ذكرى زكوينها كرفيلو الطيب والوفي. أهناك هدية أفضل يمكن أن يأخذها له؟ أو دليل أفضل على الصداقة؟

بعد تنفيذ السرقة بهذه السرعة والدقة لم يحس القبطان بأي ندم. الشركة الوطنية للملاحة كوست وايز شركة غنية؛ ومنفضتان لاتعنيان شيئاً بالنسبة لخزينتها. وما كان ليفكر بسرقتهما لو أنهما معروضتان للبيع في السفينة. ولقد استفهم عن ذلك من المحاسب وعرف منه أن آخر منفضة من الشحنة التي تسلموها قد وضعت جانباً كهدية للعبة البنغو. ما أثار القليل من الندم هو تلك الهدية القسرية إلى حد ما، القطعة الخزفية التي أخذها من الدكتور ستينيو النصاب. على أية حال هذه ليست سرقة، ولقد أفرحت كلوتيلد كثيراً. ولقد قالت له ليلة أمس بالذات وهما يلقيان نظرة الوداع على القمر والبحر إنها أدركت حبه لها منذ اللحظة التي جلب لها الأريكة الصينية التي يجلس عليها العاشقان الرومانسيان.

كانت هذه الأمور كلها في ذهنه وهو يتوجه نحو منصة القيادة حيث التقى بالمحامي من بارا، الدكتور فرمينو موريس. كان المحامي يتكئ على الحاجز غارقاً في تأملات عميقة، التفت حين سمع وقع خطوات القبطان وحياه ثم دخلا في حديث. كان الراكب المعروف بدماثته متوتراً وقلقاً، فتعلق بالقبطان وكأنه كان في حاجة إلى من يخلصه من التفكير، ومن البقاء وحيداً مع همومه ومشاكله فوقع على القبطان.

- إذن سنكون اليوم في بيليم دوغران بارا أيها القبطان.

- في الثالثة بعد الظهر يا دكتور موريس، وتطلع إلى ساعته وكانت السابعة. «خلال ثماني ساعات».

- كانت رحلة جيدة، ممتعة.

- هادئة، أكثر رحلة تسلمتها هدوءاً.

- هادئة؟ سأل المحامي نفسه، «أكانت كذلك؟».

- ألم تكن كذلك؟ لم نواجه عواصف أو أعاصير.

- ربما كانت هناك عواصف أخرى... في أرواح الركاب أيها القبطان.

أكانت تلك تلميحة إلى قصة حبه مع كلوتيلد؟ تختفي وراءها الكراهية، في محاولة لمعرفة الصلات الجنسية المحتملة، ذلك اللائق الشبيه بسلوك المحامي مع الفتاة مويما؟

- بالنسبة لي يا دكتور لقد كنت دائماً أتصرف بشكل لائق، وإذا كنت قد تاثرت بأي شعور فقد كان طاهراً وبريئاً، وبمقاصد شريفة.

أهي إشارة من القبطان لمغازلته مع مويما، المشيات على السطح تحت ضوء القمر، وأحاديثهما وهما وحيدان على منصة القيادة، وابتعادهما عن بقية الركاب في فورتاليزا؟ لايشك المحامي أن علاقته بالفتاة، تلك الترنيمة الممنوعة، قد أثارت تعليقات حاقدة. ما الذي سيحدث الآن بعد وصولهم إلى بيليم؟ كان يعرف أن الامتناع عن رؤيتها مسألة غير واردة بالنسبة له. هذه العذراء المجنونة الخليعة قد تغلغلت في جسده، لم يعد قادراً على التفكير في أي شيء آخر أو رؤية أي شيء آخر إلا وجهها. لم يكن يريد من الدنيا كلها شيئاً إلا أن يأخذها ولو مرة واحدة على الأقل، حتى لو كان عليه بعدها أن يقتلها ويقتل نفسه لكي لايعاني من العار والندم ويواجه دموع زوجته، واستفظاع ابنته التي كادت أن تصير صبية. لم لم

يمسك هذا القبطان بعجلة القيادة ويحول الاتجاه ويندفع نحو البحار المديدة دون اتجاه محدد في رحلة لاتنتهي أبداً؟

كان يائساً إلى درجة الإحساس بالحاجة إلى التصرف بوضاعة كأنه يريد أن ينتقم لنفسه من الورطة التي وجد نفسه فيها. يستطيع أن يراهن أن تيلي الغماية، المحبطة العظيمة ذات القلب المجروح (حين كان يشرح نظريته بدأت قصته مع مويما) لم تحك للقبطان شيئاً من القصة المضحكة التي هُجرت فيها وهي على باب الكنيسة، سيحكي له عن ذلك وربما خفف هذا عن قلبه المثقل.

- وما هي المشاعر غير الشريفة التي يمكن أن يحس بها قلبك أيها القبطان؟ أظن أنك سوف تتزوج، وسيكون زواجاً ممتازاً وصلة مع عائلة تستحق كل تقدير، لكنني أخاف من شقيق كلوتيلد، إنه...

قاطعه القبطان بحدة: «أرجوك لاتتابع»، ليس لأنه لايريد أن يعرف تلك التفاصيل التي حجبتها عنه كلو بإصرار، لكنه وعد، والوعد مقدس، «لا أريد أن أسمع كلمة واحدة عن أسرة كلو، ولاعنها...».

- ولماذا؟ ما كنت أود قوله لك كله لصالحها.

- أقدر لك ذلك، لكنني حلفت يميناً ولا أريد أن أحنث به.

ولكي يتجنب أية حماقات أخرى من قبل المحامي، ادعى أن لديه أعمالاً كثيرة يجب أن يقوم بها وتركه وحده على عتبة يأسه البائس.

حدثت الآن حركة لابأس بها على سطح السفينة، ظهرت كلوتيلد وهي تقود ياسمين. كانت الحرارة الاستوائية قد تغلبت على نسيم البحر، وتقدم القبطان من حبيبته براحة الضمير التي يحسها شخص عاش الماضي المجيد الذي عاشه هو.

كان يوماً مشحوناً بالتوتر، الركاب متوترون وهم يرتبون حقائبهم ويتطلعون إلى ساعاتهم في تحرق للوصول. هذه الساعات

الأخيرة هي الأبطأ في الرحلة كلها. وكلوتيلد كانت متوترة وهي تفكر كيف ستخبر أخاها بخطبتها وكيف تفسر وجود الخاتم في إصبعها. وكان القبطان متوتراً لأنه لم يكن يعرف كيف سيقابل تلك الأسرة في بارا؛ هؤلاء الأرستقراطيين «الذين يستحقون كل تقدير» كما سمع المحامي يقول. وراحت الساعات تتمطى والحرارة تتصاعد.

على مائدة الغداء، وبناء على طلب بقية الركاب، اقترح الدكتور فرمينو موريس نخباً صغيراً للقبطان تحية للرحلة الناجحة ولدماثته معهم جميعاً. تأثر فاسكو وشكرهم متمنياً لهم جميعاً، رجالاً ونساء، شباباً وصبايا، المزيد من السعادة. ودق كأسه بكأس كلوتيلد. ونهضت مويما الجميلة عن طاولتها وتقدمت من القبطان وقبلته على خده.

كانوا قد بدأوا يقتربون الآن من الشاطئ وخلال فترة وجيزة لمعت مدينة بيليم من بعيد، شد فاسكو على يد كلو ثم صعد إلى منصة القيادة.

وبالمنظار على عينه راح يتطلع إلى المدينة أمامه، البيوت مغطاة بالقرميد البرتغالي، الهياج الشبيه بالصور في سوق فيروبيزو، عمود «مرفأ بارا» الذي سترتبط به إيتا. كان ضباط السفينة كلهم على المنصة، حتى المحاسب كان معهم، وكان نائب القبطان يصدر أوامره، والسفينة تتقدم. وتنقلت عينا فاسكو ببطء على أعلام سفن الشجن والسفن البخارية الراسية. كل شيء كان يشير إلى أن إيتا سترسو إلى جانب سفينة شحن إنكليزية؛ وإلى الأمام من بعيد كانت هناك سفينة صغيرة للويد برازيليو، ويخت من غينيا الفرنسية وعدد من الزوارق البخارية. ومن السفينة الإنكليزية قدّم البحارة الشقر التحية، وخطر للقبطان أن مهمته قد استكملت لأن المحركات أخذت تبطئ شيئاً فشيئاً وكادت أن تتوقف نهائياً. لقد وصلت السفينة إلى مبتغاها، كل ما ظل عليه أن يفعله هو التوقيع

على بعض الأوراق ثم ينزل عبر المعبر الخشبي ليلحق بكلوتيلد ويستلم من يديها الورقة التي سجلت عليها اسمها الكامل وعنوانها، الورقة المعطرة بملامستها لصدرها العذري الملتهب، سيوقع الأوراق التي يمسك بها ممثل الشركة الواقف على الرصيف. بين هؤلاء الناس المنتظرين كلهم من منهم سيكون شقيق كلوتيلد؟ حاول فاسكو أن يخمن من هو وسط ذلك الحشد الذي ينادي نحو السفينة ويلوح بنفاد صبر. وكان الحمالون يقدمون خدماتهم وكل منهم يشير إلى الرقم الذي على صدره. كل شيء يسير على مايرام، قال القبطان لنفسه. في تلك اللحظة بالذات، وحين ارتسمت على شفتيه ابتسامة رضى، رن في أذنيه صوت وكيل القبطان، وكان محاطاً بضباط السفينة كلهم وبينهم حتى المحاسب: «أيها القبطان!».

ـ نعم؟

ـ طيب، أيها القبطان، لقد وصلنا إلى نهاية رحلتنا.

ـ لحسن الحظ، كل شيء سار على مايرام.

ـ لحسن الحظ. كل ما ظل عليك أن تفعله الآن هو إعطاء الأوامر النهائية. وتقدم أمامه برصانة ورفع صوته: «أيها القبطان، بكم هوسر(*) سنربط السفينة إلى الرصيف؟».

ـ ماذا قلت؟

ـ بكم هوسر سنربط السفينة إلى بيليم أيها القبطان؟ كرر السؤال برصانة أكبر.

ـ ولكن أنا قلت لكم، يا صديقي، إنني لاأريد إصدار أية أوامر. لقد جئت هنا للمساعدة في حالة طوارئ والسفينة بين أيدٍ أمينة.

ـ اعذرني أيها القبطان، ولكن لابد أنه قد فات بحاراً قديماً مثل حضرتك، يعرف كل القوانين التي تتحكم بالشؤون الملاحية، أن هذا

(*) الهوسر: حبل ضخم لشد السفينة إلى البر.

هو آخر المرافئ التي نتوقف فيها، وأنه في هذا المرفأ الأخير يكون المطلوب من القبطان، والقبطان وحده، تحديد عدد الهوسرات التي تربط بها السفينة إلى عمود الرصيف.

ـ المرفأ الأخير، معك حق، لقد فاتني ذلك... الهوسرات...

في مرفأ سلفادور دا باهيا، قبل أن تبحر السفينة تماماً، بدا له أنه لاحظ تبادل نظرات بين وكيل الربان وبين أمريكو أنتونيس، ممثل كوست وايز لاين في باهيا، الذي على الرغم من ذلك، قد أقسم له ووعده...

ـ إننا ننتظر أيها القبطان، نحن والركاب، والمحركات تدور بأقل من نصف سرعتها فبكم هوسر سنربط السفينة؟

تطلع إليه فاسكو بعينين صافيتين: «بكم هوسر؟» موهبة التنبؤ التي تلهم الشعراء أضاءت جبينه. يجب أن لايحدث أي خطأ، «بكم هوسر؟».

توقف للحظة، ثم قال بصوت القبطان المعتاد على إصدار الأوامر: «بها كلها!».

تبادل ضباط السفينة نظرات الدهشة وقد صدموا لوهلة. لم يكن هذا هو الجواب الذي توقعوه. والحقيقة أنهم لم يكونوا قد توقعوا أي جواب إلا الارتباك والاضطراب والفضيحة. ولكن بعد لحظة من التشوش ابتسم وكيل الربان ـ الآن ستكتمل النكتة ـ ورفع البوق إلى فمه ثم نقل إلى البحارة الأمر الغريب: «أوامر القبطان: اربطوا السفينة بكل الهوسرات!».

فهم الضباط الآخرون الوضعية، وكبحوا ابتساماتهم، نزل المحاسب الدرج راكضاً، كان يريد أن لايفقد الركاب أعصابهم وأن يشرح لهم ما يجري.

بدأ البحارة بالتراكض والتجمع، لقد ارتفعت الستارة عن ذلك المشهد الذي يعرض فوق إيتا والذي بدأ يجتذب الكثيرين ممن على

الرصيف، إضافة إلى ضباط السفن الأخرى وبحارتها وحتى طواقم الزوارق البخارية.

وسأل وكيل الربان مرة أخرى وهو يقف أمام القبطان: «كم مرساة كبرى أيها القبطان؟».

- كلها!

- وكم مرساة مقدِّمة أيها القبطان؟

- كلها.

- أوامر القبطان: كل المراسي الكبيرة ومراسي المقدمة.

حدث هرج ومرج على السفينة؛ والمراسي تنزل من الجوانب وسط صخب جهنمي، وكان المحاسب يتجول بين ركاب الدرجة الأولى ليشرح لهم واحداً واحداً ما يجري.

- وكم حبل نابض أيها القبطان؟

- كلها!

فك البحارة الكابلات وألقوا بها إلى مفرغي المراكب على الرصيف الذين ربطوها إلى المرابط الحديدية الضخمة.

- وكم من حبال مقدم السفينة أيها القبطان؟

- كلها.

- أوامر القبطان: كل حبال مقدم السفينة.

- وكم من حبال المؤخرة أيها القبطان؟

- كلها!

الهوسرات، الكابلات الفولاذية، الحبال، كلها مدت بشكل مشدود، وكلها بالتحديد، تربط السفينة إلى دعامة الرصيف، وكأنه لم يكن هناك وبجذور عميقة ما يكفي، كأن المرساة الكبرى ومرساة المقدمة لم تكونا كافيتين لتأمين السفينة من أعنف العواصف وأعتى الأعاصير - العواصف والأعاصير التي لم تتنبأ

بها أية أرصاد جوية، ولا أية عين خبيرة بالطقس بين أقدم البحارة وأكبرهم خبرة وسناً. لا بل كان التنبؤ بطقس لطيف وهادئ وبنسيم بحري خفيف.

وانطلق انفجار من الضحك الهوميروسي على الأرصفة، ومن الدرجة الأولى في السفينة، وتابع وكيل الربان: «وماذا عن مرساة الشد أيها القبطان؟».

- «وهذه أيضاً»، سمع الضحك المتعالي، وفهم اللعبة التي كان هدفاً لها، لكنه كان قد صار مثل رجل ممسوس فلم يعد يستطيع التوقف.

ووصل صوت الضحك إلى منصة القيادة، ضحك شامل عام.

- «مؤمنة بكابل أم بسلسلة؟».

- كلها.

- أوامر القبطان: ألقوا مرساة الشد وثبتوها بكابل وبسلسلة.

وانحنى له وكيل الربان: «شكراً لك أيها القبطان، هذا يؤمن الإرساء».

وقف فاسكو موسكوسو دو أرغان محني الرأس مخزياً. الاستهزاء العام، والضحك المتعالي من الأرصفة، وصل إلى المدينة وجعل الناس يأتون راكضين ليروا مشهد إيتا راسية مربوطة إلى دعامات بيليم وكأنه يوم القيامة وكأن العالم ستدمره العواصف والأعاصير.

مخزياً، مر بالضباط، الذين كانوا يشهقون بالضحك، متجهاً إلى كابينته حيث كان قد أعد حقائبه مسبقاً في تشوقه للحاق بكلوتيلد. رفعها. من لديه هناك في باهيا يستطيع أن يرسل له برقية يطلب إليه فيها أن يبيع البيت في بريبري ويشتري البيت في إيتاباريكا؟ ليس له أصدقاء في العاصمة: رفقته القديمة كلها ذهبت، ولايستطيع أن يطلب من زكوينها كرفيلو تدبير شيء من هذا القبيل، ولايستطيع

حتى أن يظهر أمامه ويتطلع إلى وجهه. وكانت أصداء الضحكات، التي تحولت إلى قهقهات هائلة، تملأ الكابينة.

نزل إلى سطح الدرجة الأولى وقد فقد قواه كلها، ووصل في اللحظة المناسبة ليسمع فيها المحاسب، وهو ينفجر بالضحك، ويشرح لكلوتيلد: «... تماماً كما أقول لك يا مدام...».

كانت في يدها ورقة صغيرة، تلاقت عيونهما، ألقت على فاسكو نظرة قاتلة، ثم مزقت الورقة، التي كانت ماتزال حارة من حرارة صدرها، والتي كتبت عليها اسمها وعنوانها. وأشار الركاب صوبه وهم يضحكون ويتطلعون إليه من أطراف عيونهم. أدارت كلوتيلد ظهرها له ثم نزلت الدرج لتلتقي بأهلها. ولكن عند الدرجة الأولى تطلعت إليه وأرسلت له نظرة قاتلة أخرى، ثم شدت خاتم الخطوبة من إصبعها وألقت به إليه. فتدحرج على سطح السفينة حتى اصطدم مع رنة بالحاجز المعدني. غام نظر فاسكو فاضطر إلىالإمساك بالحاجز، وبخطوات متعثرة اتجه إلى الدرج حين أمسكت يد بيده لتثبت خطاه: «ألا تحس أنك بخير أيها القبطان؟».

كانت هذه مويما، الوحيدة وسط هذا الحشد كله على السفينة والأرصفة، التي لم تكن تضحك.

ـ لاشيء....

حتى أنه لم يشكرها. اختفى صوته، اختفت متعته بالحياة، سقطت عنه كبرياؤه. كان قد صار على الدرج حين قوطع مرة أخرى، وهذه المرة من قبل ممثل شركة كوست وايز، ومعه الأوراق التي عليه أن يوقعها، خربش اسمه عليها؛ فالإحساس بالواجب لم يغادره بعد.

ـ هناك غرفة محجوزة باسمك في غراند أوتيل، ستبحر السفينة غداً بعد الظهر في الخامسة وقد حجزت لك حجرة في الدرجة الأولى، وكان يبذل جهداً كبيراً ليكتم ضحكته.

لم يجبه فاسكو، بدأ ينزل عن المعبر مع آخر الركاب، وفي ذلك

المكان الغريب كان البحارة، وضباط السفن الراسية والمصفوفة عند الرصيف، ومسؤولو الجمارك، وبائعو الحبال والخيش للسفن، وأشخاص كثيرون جداً جاؤوا من المدينة، كانوا، كلهم، مليئين بالدهشة من ربط إيتا إلى عمود الرصيف بهذه الحبال والهوسرات والمراسي كلها. ستظل على هذه الحالة حتى وقت الإبحار في اليوم التالي، وسيكون أمام المدينة كلها الفرصة للمجيء إلى الرصيف لرؤية المشهد الذي لم يسبق لهم أن رأوه في حياتهم.

وفيما هو الهدف الذي تتوجه نحوه الأصابع كلها، مصحوبة بالضحك الذي لايعرف كيف ينتهي، توجه فاسكو إلى حمّال: «هل تستطيع أن تدلني على نزل رخيص؟».

- هناك نزل دونا أمبارو؛ لكنه بعيد قليلاً...

- هل تستطيع أن تدلني كيف أصل إليه؟

- إذا أحببت سأحمل حقيبتك وأدلك، وادفع لي ما تشاء.

وعن منصة القيادة كان وكيل الربان والضباط يرقبون القبطان وهو يختفي وراء زاوية الشارع وكتفاه محنيتان وخطواته تتعثر مثل بحار خارج من سفينة غارقة؛ وقد صار بغتة رجلاً عجوزاً.

واستمر الضحك على رصيف الميناء.

حيث تستخرج الحقيقة من قعر البئر
بفضل جنون الرباح الهائجة

قبيل الخامسة بعد الظهر وصل فاسكو إلى نزل دونا أمبارو، وهي امرأة ودودة ذات أسنان مكسورة، من الأرياف. قدمت له غرفة مع أرجوحة شبكية ومودَّتها الفورية، لأن فاسكو كان يذكرها بصديق مخلص من آكر. سألته عما إذا كان مريضاً. كانت الحرارة خانقة، فجلس فاسكو على الأرجوحة ليفكر في الأمر كله. مريض؟ لا، كان فارغاً، مجففاً. لم يكن قادراً حتى على ترتيب أفكاره أو المشكلات التي تواجهه: عودته إلى باهيا، بيع بيته في بريبري، شراء بيت آخر في جزيرة إيتاباريكا. كان الشارع ممدوداً بصمت تحت وطأة ما بعد الظهر المتوقدة، ولكن كانت أصداء الضحكات الصاخبة ماتزال ترن في أذنه. سيظل يسمعها طوال حياته؛ أصداؤها تتردد في صدره. كان الألم حاداً، حاداً وأبدياً. أيها القبطان جورج دياس نادرو، هذه المرة لامخرج، شيء ما قد أطبق على البحار العجوز. لن يرفع رأسه بعد الآن أبداً، وهو محني تحت وطأة الحزن كان قد صار أضحوكة المدينة كلها.

حين جاءت دونا أمبارو لتناديه إلى العشاء وجدته في الوضعية ذاتها، ممدداً في الأرجوحة، حتى أنه لم يخلع قبعته.

لا، لايريد أي عشاء.

كانت دونا أمبارو امرأة علمتها الحياة الكثير كما يشهد لها زبائنها وجيرانها. ولم يكن يبدو لها أنه يعاني من ألم جسدي، حللت

الأمر بدقة وحزم، هذا حزن، وحزن من النوع القاسي، ربما موت ابن وحيد، وربما، وهذا هو الاحتمال الأرجح، هروب زوجته. لاشك أنه متزوج من شابة، عاد إلى البيت ولم يجد إلا ورقة صغيرة، لقد رحلت، وأخذت معها أثاث البيت وسعادة الرجل المسكين. دونا أمبارو تعرف حالات عديدة مشابهة.

ألا يجب، على الأقل أن يتناول مشروباً ليستعيد قواه ويقاوم هذا الحر؟ فمن أجل الحر الذي تسببه الزوجة الهاربة لاعلاج أفضل من كأس من الروم. ماذا يقول في ذلك؟ قَبِلَ بهزة من رأسه. فأسرعت بجلب زجاجة، جرعة واحدة لن تفي بحاجته.

كان فاسكو في أيامه شارباً شهيراً للخمر، لكنه في السنوات الأخيرة اقتصر في شربه على المشروب الحار الذي يعده بعناية شديدة في بيته في بريبري. أما الآن فقد رفع الزجاجة إلى فمه كما كان يفعل حين كان شاباً وجرع بشراهة ودون توقف، مازال يحتفظ بمقاومته القديمة، ومازال قادراً على الوقوف والذهاب إلى قاعة الطعام طلباً للمزيد من الروم، وتطلع إليه النزلاء وجامعو المطاط بفضول.

بعد أن دخل القاعة بالزجاجة الجديدة أوضحت دونا أمبارو: «المسكين قصة محزنة، رجل يتقدم وينجح خلال سنوات، وببذلة وكل ماهنالك، وزوجته، الفاجرة، تهرب مع عريف في الجيش، متسكع سكير. انظر إلى شكله... دنيا خداعة وفاجعة...».

نام فاسكو نوماً عميقاً خالياً من الأحلام بتأثير الروم والحر. بصعوبة تدبر خلع حذائه وسترته، وكان نصف نائم حين تناول جرعته الأخيرة.

وبسبب ذلك كان هو الوحيد في بيلم دوغران بارا كلها الذي لم يشعر في تلك الليلة بالذعر وبرعشة الموت، وبالإحساس بأن النهاية التي لاترحم قد اقتربت. فعندما خرجت دونا إمبارو مع نزلائها من الباب هاربين بعد أن استيقظوا من النوم، وهم يدعون الله، لم

يتذكروا حتى أنه كان موجوداً، فقليلون هم الذين تذكروا في تلك الساعة المشؤومة الأب أو الأم أو الزوجة أو الأولاد.

في تلك الليلة، بغتة وبلا توقع ودون سابق إنذار، وبشكل جعل خبراء الخدمات الأرصادية يبدون أضحوكة مثل القرود، وبطريقة تهزأ بكل تنبؤات الطقس وتذهل رجال البحر ذوي الخبرة، هبت عاصفة على المرفأ ومدينة بيليم، عاصفة لم يروا مثيلاً لها من قبل، إعصار ليس له شبيه حتى في ذكريات أكبر السكان سناً، أسوأ عاصفة عرفت في هذه المياه الاستوائية.

الرياح كلها وحدت قواها وهبت عنيفة ضارية، جاءت تهدر، معولة بكراهية، مندفعة دون رحمة. من أربعة أطراف الدنيا جاءت في إعصار مخيف مندفع لتدمير كل شيء وكأنه يقول: «لا نوم بعد الآن».

جاءت رياح السموم الحارقة ومعها اللسان الناري الصحراوي، نابشة الرمال إلى علو يجعل منها جداراً مريعاً. وجاءت الرياح الموسمية من المحيط الهندي، الذي سافر فيه القبطان كثيراً. ووحدت الرياح قواها لتقتلع البيوت من أساساتها، وتقذف بها إلى الجو مثل أوراق الشجر الميتة. ووصل الهارماتان(*) الأسود قادماً من أفريقيا وهو يصفر نشيد الموت المعروف عنه ويدور في دوامات وحشية فينتزع السفن من مراسيها ويقذف بها على الأرصفة مكسّراً أشرعتها ومداخنها. وأغرقت الرياحُ التجارية(**) مراكبَ النقل الصغيرة والمراكب الشارعية والزوارق. وقعت الميسترال(***) على اليخت القادم من غويانا الفرنسية و«كما لو أنها نكتة مدينة، سحبته إلى البحر فمزقت أشرعته، وخلّعت دفته وقذفت به إلى جزيرة ماراجن التي كانت فيها السلاحف الجبارة

(*) ريح حارة جافة تهب من الشرق أو من الشمال الشرقي للصحراء، تثير غباراً كثيفاً تنقله مئات الكيلومترات فوق الأطلسي - الموسوعة.

(**) ريح تهب باطراد نحو خط الاستواء - المورد.

(***) ريح شمالية عنيفة باردة جافة.

تغزو القرى. أما البرد القاتل الذي نزل على المدينة فقد جاء من سيبيريا على الأجنحة البيضاء للرياح الشتوية الجليدية، هذه الرياح جاءت من بعيد متأخرة ما يقرب من نصف ساعة، ولكن حين وصلت كانت نهاية العالم قد حلت. أما الرياح الشمالية الشرقية - التيرالية والأكارتية - فقد شغلت نفسها بالسفينة الإنكليزية وسفينة اللويد فخلعتهما من رسوهما غير المتقن وحطمتهما بقذف كل منهما على الأخرى مع أصوات كانفجارات المناطيد. ثم قذفت الأراكاتي ببقايا اللويد إلى وسط البحر عارية من صواريها. ومن كل ما على سطحها ومن مقرات قيادتها. أما التيرال، الشوفينية القاسية، فركزت غضبها على سفينة الشحن الإنكليزية، فمررت لسانها الفولاذي الحاد، لسانها الشمالي الشرقي القاتل، على رقاب البحارة الشقر. ومع دوامة عاصفة حطمت التيرال سفينة الشحن على رصيف المرفأ وتركتها هناك عبرةً وذكرى.

ومع الرياح جاءت الأمطار من الجوار، من خط الاستواء، حيث كانت تنام في الغابات الرطبة فجلبت معها المياه الآسنة المحملة بالملاريا والتيفوس والجدري، جاءت فحولت المدينة إلى آلاف الأنهار والجداول والسواقي والأخاديد، وبدأ الأمازون يرتفع ليلتهم الأراضي بأسنانه المائية الجائعة مخلفاً وراءه جزراً وجثثاً. وارتفعت زعقات المد حتى امتد ضجيجه الرهيب أميالاً عديدة وسمع في شواطئ أفريقيا، في مدينة داكار، وفي القرى النائية التي سمع فيها الهمج المرتعدون صرخات (كسانغو) للحربية.

ترك سكان المدينة بيوتهم، وزأر الرعد، وبدلاً من الأضواء الكهربائية حلت لمعات البرق، التي كانت عديدة متتالية بحيث كان من الممكن رؤية كل شيء: البيوت المنهارة، العربات والسيارات التي تجرفها المياه، والزوارق البخارية محمولة في النهر دون وجود أحد على دفتها، ثم تنزل في الجزر الجديدة المتشكلة من الأرض المفصولة عن الجرف. كان الناس يتراكضون في الشوارع كالمهووسين، وبدأ اللصوص والقتلة عملهم، وركع الرجال

والنساء ليرددوا صلوات مرتجلة، وحاول قسٌّ بسرعة شديدة أن يقيم قداساً، وامتلأت الكنائس حتى الاختناق. كان مشهداً من يوم القيامة. والسفن التي ربطت إلى الأرصفة رفعتها يد الرياح القادمة من كافة أرجاء الأرض، فانفكت من مراسيها وبقيت تحت رحمة العاصفة. هطل المطر وبكى الفقراء وكز الأغنياء على أسنانهم.

لم تدم العاصفة أكثر من ساعتين، ولو دامت ساعة أخرى لاختفت من الخريطة مدينة بيليم بقرميدها البرتغالي ومفاتنها الأثرية.

كان من الممكن أن تختفي مدينة بيليم، أن يبتلعها الطوفان، أو يقتلعها الأعصار، ولكن إيتا كانت ستظل مربوطة إلى دعامة الرصيف مع كل وسائل الإرساء التي أمر بها القبطان فاسكو موسكوسو دو أراغان. رئيس البحارة، الوحيد بين رجال البحر العتاة كلهم، الذي استطاع أن يتوقع العاصفة ويتنبأ بها وأن يتخذ الإجراءات الضرورية لحماية سفينته منها. ها هي هناك قرب الدعامة ثابتة لايمكن تحريكها.

وبغتة ودون توقع، وكما جاءت العاصفة، هدأت، وصعد الهواء نقياً وهادئاً، ثم جاءت الحقيقة فغطت قبة السماء.

بعد أن انتهى رعبهم، بدأ الفقراء يحصون موتاهم ومفقوديهم، والأغنياء يحصون خسارتهم. كان الموتى قلة، والخسائر كثيرة... وصلت إلى الملايين. وظهر احتمال الأوبئة في المدينة التي تخرَّب نظام بواليعها ومجاريها وصارت أرصفة «مرفأ بارا» كومة من الحطام. وظلت إيتا، دون إزعاج، وسط الدمار المحيط بها، بمقدمتها الشامخة، وهي تعلو مرساتها، وقد نجت بفضل بعد نظر قبطانها.

وفي وقت متأخر من ذلك الصباح حين وصل مندوب كوست وايز لاين، وضباط السفينة والناس إلى نزل دونا أمبارو، الذي لم يجدوه إلا بصعوبة شديدة، كان فاسكو ما يزال نائماً، وغافلاً عن

كل ما جرى. الناس الذين ضحكوا، ثم بكوا في الليلة السابقة كانوا الآن يهتفون في الصباح المشمس. وجاءت دونا أمبارو بعد أن استردت وعيها لتقرع باب غرفة فاسكو؛ فاستيقظ. وحين سمع أصوات الناس خطر له أن الوضاعة بلغت بهم حد أن عثروا عليه وجاؤوا إلى هنا ليهينوه.

لكنهم تدافعوا إلى بابه ونادوا باسمه عدة مرات، حتى فتح لهم ووقف أمامهم دون حلاقة وجواربه في قدميه، وسرواله مدعوك، ولسانه مثقل بالروم، وأمامه وقف وكيل الربان ثم اكتظت الغرفة بالناس.

خلال ذلك كان مركز البرق الوطني قد نقل إلى البلاد كلها، وإلى القارات الخمس، أنباء الجائحة المدمرة وعبقرية القبطان فاسكو موسكوسو دو أراغان الوحيد الذي تنبأ بالعاصفة وأنقذ سفينته. ولاشك أن البرقيات التي نشرت في العناوين الكبرى لصحف باهيا لعدة أيام متتالية قد قرئت في بريبري وحفظها زكوينها كرفيلو عن ظهر قلب؛ وكذلك البرقيات التي قامت بالتغطية للتقدير الذي حصل لرئيس البحارة المتخفي والحفل الذي قامت به كوست وايز لاين، والحفل السيار الذي تم على متن إيتا التي أنقذها والتي عاد عليها مظفراً إلى سلفادور دا باهيا، وهناك كوفئ بوثيقة وبميدالية ذهبية تقديراً لمأثرته، ومن فوق منصة القيادة أطل على البحر، ورأسه، مرة أخرى، مرفوع ومتواضع وباسم.

حول مغزى هذه القصة والأخلاق اليومية

وهأنذا أصل إلى المرفأ في نهاية جهودي، ونهاية تحرياتي حول هذه الحكاية المثيرة للجدل. ماذا يمكن أن أضيف؟ خبر وصول القبطان إلى مرفأ باهيا، وفرقة الموسيقيين التي تنتظره مع ممثل عن المحافظ، ومدير المرفأ، وأمريكو أنتونيس في سعادة غامرة؟ صوره في الصحف والحديث الذي طلب منه أن يقدمه للإذاعة وهو مايزال على متن السفينة؟ نزوله المظفر في بريبري في قطار الساعة الثانية مع أصوات المفرقعات والألعاب النارية وتهليلات الفرح وكيف حمله أصحابه على أكتافهم إلى البيت الذي تطل نوافذه على البحر؟ أعداء الأمس الذين صاروا الآن أكثر معجبيه حماساً، باستثناء شيكو باشيكو الذي فضل الابتعاد والرحيل: فالبلدة لاتستطيع احتواءهما، هما الإثنين: هو بقضيته والقبطان بأمجاده؟ هل أصف انفعالات زكوينها كرفيلو عندما قُدِّمَتْ إليه المنفضة وعليها صورة إيتا؟ الأسئلة التي ألقيت على القبطان دفعة واحدة وفي وقت واحد؟ الطلب بأن يحكي لهم كل شيء حتى أدق التفاصيل دون أن يهمل أي تفصيل؟ الحديث الذي دار في تلك الليلة في الصالون الكبير الذي فيه التلسكوب حين تذكر كلوتيلد؟ لقد كانت لحظة مفرطة الحماس والانفعال.

«كانت جميلة جداً... وعلى الرغم من وجود هؤلاء الشبان كلهم على السفينة فإن عينيها وقعا علي فانذهلت... لم تكن تزيد عن العشرين: سميتها كلو تحت ضوء القمر على سطح مؤخر السفينة. كان لها شعر طويل وبشرة برونزية، واحدة من تلك الفتيات ذوات

الدم الهندي الموجودات في أمازونيا، جاءت وطلبت مني أن أرقص معها، تصوروا! وحين رجعنا كانت على الرصيف لتودعني». كما ترون؛ مرة أخرى يصبح من الصعب التوصل إلى الحقيقة وتجريدها من أستار الخيال. في التحليل الأخير: من التي أحبها القبطان؟ ومن هي التي خطبها في تلك الليلة على السطح تحت ضوء البدر؟ كلوتيلد المحبطة العظيمة المتقدمة في السن والمتعودة على الإغماء؟ أم مويما الريفية الخليعة التي امتدت يدها لتسند ذراعه في ساعة الامتحان الصعب، مويما المتعجلة للوصول إلى مصيرها الدراماتيكي؟ بالنسبة لي أنا لم أعد أعرف ولقد رفعت يدي من الموضوع.

لكن هناك شيئاً واحداً مؤكداً ويستحق الإشارة إليه: إذا كان القدر يقف إلى جانب فاسكو ويفضله، فيجب أن لاتفوتنا مساعدته في فسخ الخطوبة مع كلوتيلد. هل تستطيعون تصور المحبطة العظيمة في بريبري وهي تحول الحياة في تلك الضاحية إلى جحيم، وتعزف السوناتات والأنغام على البيانو وتحول شيخوخة رئيس البحارة المجيدة إلى جولة يومية من النَّقِّ والتقييد والإغماء والعبوس؟ ما كان في إمكانه أن يعيش إلى الثانية والثمانين مكرماً وسعيداً لو استمرت الخطبة وتم الزواج وتحققت الفكرة المدمرة حول جلبها معه.

لم يعد لدي ما أقوله، انتهت مهمتي، سأرسل هذا العمل ـ الذي لم يكلفني جهداً ومعاناة بسيطين ـ إلى لجنة التحكيم التي عيّنها مدير الأرشيف العام. يجب أن يفوز بالجائزة، سأشتري لدوندوكا ثوباً جديداً وفازاً بالزهور. إن شيئاً من هذا النوع ضروري في البهو الجميل في البيت الصغير في زقاق الفراشات الثلاث.

لاتندهشوا، دعوني أحكي لكم آخر التطورات على جبهة كفاحي من أجل الوجود. لقد عاد فضيلته، ونحن الثلاثة نعيش معاً الآن في وئام وانسجام. فلقد صادف أن اكتشفت دونا أرنستينا، الزوجة القوية والمبجلة للقاضي الشهير، (عن طريق رسالة من مجهول دون

أدنى شك) الغزوات الليلية للدكتور سكويرا على بيت دوندوكا، ولم تستطع النظارة السوداء أو القبعة ذات الحواف أن تحميه. انفجر غضب زبلين مثل العاصفة في بيليم ولم يكن أمام القاضي المتقاعد إلا أن يكذب فكذب مثل فارس. صحيح أنه كان يذهب إلى هذا البيت المشبوه، لكنه كان يذهب لكي يؤدي واجباً ويساعد صديقاً. وكان من الواجب العمل على تجنب فضيحة في بريبري، والصديق الذي يحتاج المساعدة هو هذا المؤرخ المحلي المتواضع. ألم تعرف هي، أرنستينا، أن والد تلك الفتاة البائسة، بدرو توريسمو، قد أقسم على الهجوم على البيت الذي تعيش فيه ابنته مع عشيقها؟ وصلته أنباء هذه التهديدات، فقلق على حياة الشاب المعني وسمعته فذهب إلى هناك متجاوزاً طبيعته ومبادئه الأخلاقية لتحذيره. لقد كان قراراً نبيلاً لايخجل منه أبداً.

لكن زبلين طالبت بدليل فاضطر فضيلته إلى أن يركع على قدميّ طالباً مني السماح، وراجياً مني أن أشاركه مرة أخرى في فراش دوندوكا ومفاتنها مع الادعاء ولو أمام العقيلة الهائجة، زوجته، بالمسؤولية الكاملة عن الفتاة. وقبلتُ أن أفعل ذلك - وأوضحت أنه معروف مني - دون أن أترك فرحتي والغبطة التي تملأ صدري تظهران، فقد كنت على وشك أن أدع نفسي تسقط في أحضان المحبطة الحساسة، الأرملة المهترئة التي تقضي عطلتها، والتي رسمتُ ملامحها في فصل سابق من حكايتي هذه، لقد كانت حاجتي ماسة، ولكنني بين ذراعي دوندوكا أسكتُّ جوعي.

ومنذ ذلك الحين ونحن في أفضل العوالم الممكنة: ثلاث أوراح شقيقة. فضيلته ودوندوكا وأنا نتحدث ونضحك مستمتعين بحياتنا إلى أبعد الحدود وطالما أن رؤساء الحكومات يسمحون لنا بذلك؛ طالما أن كلاً منهم يهدد الآخر بصواريخ موجهة وقنابل هيدروجينية. ذات يوم، بالمصادفة، ستنفجر إحدى هذه القنابل وعندها سندفع ثمن ذلك ونتحمل العواقب.

لكننا نعود إلى القبطان ومغامراته، وأكرر أن هذا هو الهدف

الوحيد لجهودي المتواضعة، وأعترف أنني وصلت إلى نهاية قصته وقد غرقت في البلبلة والشك.

هل يستطيع قرائي الآن، بثقافتهم وخبرتهم، أن يقولوا لي ما هي الحقيقة، الحقيقة الكاملة؟ وما المغزى المستقى من هذه القصة التي هي أحياناً غير مهذبة وفظة؟ هل تكمن الحقيقة في الحوادث اليومية والأحداث المتكررة، في التفاهة أو السوقية التي ترتبط بها حيوات معظم الناس؟ أم أن للحقيقة مأواها في الحلم الذي أُعطيناه للهرب من شرطنا الإنساني؟ كيف يسمو الإنسان على رحلته في الحياة؟ بالكيد والغش يوماً بيوم؟ أم بالحلم المحلِّق الذي لايعرف قيداً ولاحدوداً؟ ما الذي قاد فاسكو دا غاما أو كولومبوس إلى سطح المركب الشراعي؟ وما الذي وجه أيدي العلماء الذين أطلقوا الأقمار الصناعية فخلقوا نجوماً جديدة وقمراً جديداً في هذه الضاحية من الكون؟ أين هي الحقيقة؟ قولوا لي أرجوكم - في الواقع الصغير لكل منا؟ أم في الحلم الإنساني الكبير؟ ومن الذي يقوده حول العالم ليضيء طريق الإنسان: فضيلة القاضي أم الشاعر الفقير المدقع؟ شيكو باشيكو باستقامته الدفينة؟ أم القبطان فاسكو موسكوسو دو أراغان رئيس البحارة؟

ريو دو جانيرو

كانون الثاني 1961



عودة البحار

لعل جورج أمادو في هذه الرواية يريد أن يقول إن الحياة لاطعم لها بالواقع وحده. لابد من فسحة للحلم. الحقيقة العارية التي نسعى إليها هي حقيقة باردة ميتة. والحياة التي لها طعم هي تلك المطعمة بشيء من الخيال وشيء من حلم اليقظة، بشيء من الكذب الأبيض الذي لايؤذي.

وبراعة أمادو في هذا المجال هي التي تجعلك تشك وأنت تقرأ وتستمع: أين هي الحقيقة؟

ولأن المسألة على هذا النحو، فإنك وأنت تتقدم في قراءة الرواية تبدأ بالشك في أن القبطان يكذب. ولكنك تتعاطف معه، وتتمنى أن لاينكشف كذبه، أن يستمر هذا الحلم الجميل الذي يجمّل الحياة: حياتنا وحياة أهل القرية وحياة القبطان ذاته.

ويبلغ التعاطف حداً يجعلك تقف على حافة مأساة حقيقة حين يتهدد القبطان بالفضيحة. كيف ستكون النتيجة عليه هو وعلى أهل القرية الذين جمّل حياتهم؟

«أين هي الحقيقة؟ قولوا لي، أرجوكم: في الواقع الصغير لكل منا؟ أم في الحلم الإنساني الكبير؟».

على الرغم من أن جورج أمادو يبدأ، وينهي، روايته «عودة البحار» بهذه العبارات إلا أنه يريد، منذ البداية، أن يسخر منا، أو أن يورطنا في هذه الجدية الموحى بها من خلال هذا الكلام الذي يريد أن يبدو فلسفياً.

الناشر